رحلة طافور

في عالم القرن الخامس عشر الميلادي

ترجمة وتقديم

الدكتور حسن حبشي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

رحلة طافور

في عالم القرن الخامس عشر الميلادي

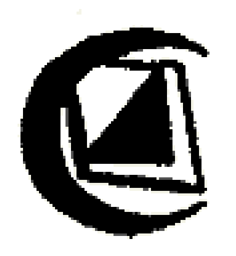
ترجمة وتقديم
الدكتور حسن حبشي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

طبعة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٧٧٠٩
I.S.B.N الترقيم الدولي	977-341-068-4



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - القاهرة

ت ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس ٥٩٣٦٢٧٧

فهرست

رحـــلة طافور

ص

اللوحــــــات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة العربية

تحتل كتب الرحلات مكانة هامة فى ثبت المصادر التى تتضمن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب فى مختلف العصور، ومع ذلك فإنها لم تجد العناية الجديرة بها من قِبَل المشتغلين بالدراسات التاريخية والاجتماعية، رغم ما تحفل به هذه الأسفار من مادة تلقى ضوءاً على شتى جوانب المجتمعات فى أوربة والشرق على السواء، وتمدّنا بذخيرة طيبة من المعلومات التى نفتقدها فى الكتب السياسية والحوليات التى تكون — فى العادة — قد دُوِّنت تحت دوافع معينة، فتطمس أحيانا — عن قصد وتدبير — أموراً لو تكشّفت لبدّلت نواحى كثيرة من التاريخ المدوّن، ومجمل القول إن كتب الرحلات ترقى إلى أن تكون من المصادر الأصلية فى تبيان الأحداث الرئيسية والجانبية الغامضة وتنقلها من هامش الفكر إلى بؤرة النظر والإدراك الصحيح والتفسير المعقول المطابق لحقيقة الواقع، ثم إنها لا تخلو ـ بنسب متفاوتة بين بعضها والبعض الآخر ـ من مادة لا تتوفر فى سواها، وذلك بسبب تغلغلها بين طبقات الشعب التى قلّ أن تعبأ بها كتب التاريخ المألوفة، ومن ثم كانت الرحلات ذات أهمية خاصة من حيث العنصر التاريخى، وهى فى الوقت ذاته تكون ـ فى أغلب الأحيان ـ بعيدة عن التحيز؛ هذا إلى أن ما تتضمنه إنما هو نتيجة مشاهدة عيان فى أكثرها.

ولقد اهتم العرب بالرحلة منذ ظهور الإسلام اهتماماً يسّرته لهم سعة الرقعة الإسلامية العربيـــة الجديدة، ودفعتهم إليه رغبتهم فى الوقوف على أحوال

شعوب هذه الأقطار والتعرف عليها عن قرب ، إلى جانب عوامل اقتصادية تتمثل على وجه الخصوص فى التجارة أو كعملاء فى تناول السلع ، هذا بالإضافة إلى دوافع روحية ، فليس من جدل فى أن المسلمين الأوائل كانوا يرحلون من بلد إلى آخر – رغم اختلاف الأقطار – جريا وراء حديث يأخذونه عن ثقة حجة لا يرقى إليه الشك دون اكتراث بما يلاقونه فى سبيل ذلك من مشقة بالغة وما يصادفونه من أخطار الطريق ، وما يصيبهم من مكابدة مادية تكاد تجعل المطامع عسير التحقيق ، والمنشود صعب المنال : ولا مشاحة فى أن تاريخ العرب حافل بالرحالة الذين نعرف أسماءهم وإن ضاعت آثار معظمهم ، وبقى البعض منها كاملاً غير منقوص أو فى صورة نتف مبعثرة فى ثنايا الكتب ، وهى جديرة بأن يتوفـــر البعض على جمعها عسى أن تتكون منها ومن الآثار الخطية الكاملة مكتبة تامة — أو شبه تامة — تستدرك نواقصها على مر الأيام .

. .

ولقد شهد الغرب – كما شهد الشرق – رحالة كثيرين ، لعل أذيعهم ذكراً التاجر البندقى «ماركو بولو» ثم «نيكولو دى كونتى» ، وهناك من هؤلاء أيضاً « بيرو طافور » الذى أتاحت له الفرصة أن يرحل فى النصف الأول من القرن الخامس عشر إلى كثير من بلاد أوربة وإلى مصر سفيراً وباحثاً وتاجراً ورجلاً متطلعاً لمعرفة حقيقة عالم يومه الجغرافى والسياسى والدينى ، ولقد كانت هذه الفترة فترة إرهاص فى تاريخ الإنسانية إذ كانت فجر عهد جديد من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية ، فقبل أن يلفظ ذلك القرن أنفاسه بسنوات قلائل سقطت القوة الإسلامية فى الأندلس ، وأخذت بعض دول أوربة تتكتل لمضايقة مصر اقتصاديا لتعطيلها عن ممارسة نشاطها التجارى لاسيما فى تجارة

الـكارم ، كما قامت محاولات أخرى جانبية فى هذا الميدان ذاته وقبل ذلك بقرن تقريبا ـ لمقاطعتها تجاريا أو لتحويل مجرى النيل ، ووضعت فى كل هذا تقارير مختلفة على مستويات عالية سياسية ودينية .

وعلى الرغم من أن صاحب هذه الرحلة كان أثيراً لدى ملك قشتالة إلا أن الغموض يكتنف سنوات طويلة من حياته ، والواقع أن ما كُتب عنه حتى الآن لا يشفى غلة المعنى بوضع ترجمة وافية له تُلم بدقائق عمره وتعتبر سجلاً له ، أو تتضمن الأعمال المختلفة التى قام بها ؛ ولقد كانت ضآلة المادة عنه مؤدية إلى عدم التأكد من مهبط رأسه ، فالإبهام الشديد يغشى السنوات الأولى من نشأته ، ويمتد هذا الغموض حتى ليغلف سنة مولده ووفاته ومعظم الأعوام التى عاشها .

ويرجح الذين كتبوا عنه ـ وهم قلة ـ أنه وُلد فى قرطبة ، ويستدلون على صحة هذا الرأى ببعض الوثائق التى جمعها أحد الـكتاب الإسبان وإن كانت الإشارة فيها ليست صريحة كل الصراحة بدرجة تقطع الشك وتثبت اليقين بقرطبية مولده ، وإنما كان عمل الأب فيها وإن كنا لا نعرف أتفتحت عيناه ـ هو الآخر ـ فيها أم أنه طارئ عليها ، وهل وُلد ابنه « بيرو » وهو لا يزال فى قرطبة ؟ أم أنه نزح عنها ـ بسبب ما ـ إلى بلد آخر ؟ ، وإن كان « بيرو » نفسه قد أشار فى رحلته هذه إلى مقابلته لمترجم السلطان برسباى ، وهذا المترجم أشبيلى الأصل ، وذكر له رحالتنا أنه هو ذاته وُلِد فى مدينة أشبيلية .

ولا يستبعد فى هذه الحال أن يـكون الأب « خوان دياز طافور » قد انتقل بالأسرة من قرطبة إلى أشبيلية حيث وُلد له « بيرو » ، وبذلك لا يكون

ثم شك فيما قاله طافور عن أشبيلية مولده؛ ثم إنه ليس هناك مايدعونا لإنكار رأيه حول مكان ولادته[1] إذ لا نستبين في نسبته إلى إشبيلية — مكانا كانت فيه أول صرخة له — ما يجعلنا ننزل قوله عن مكان مولده منزلة الزعم؛ ونستطيع أن نخلص من هذا إلى الأخذ بأن أشبيلية كانت البلد الذي خرج فيه إلى الحياة.

وإذا كان الجدل قد قام حول مهبط رأسه فإن هناك تشككا حول عام مولده، فليس هو بالمعروف على وجه التحقيق، وإن رجح القول بأنه كان في مطلع القرن الخامس عشر، والمتفق عليه أنه كان سنة ١٤١٠ م وأنه عاش قرابة ثلاثة أرباع قرن، إذ يُستدل من بعض الوثائق التي جمعها أحد الكتاب (واسمه رفائيل رميرز) — ومن بينها وثيقة بقلم زوجة طافور — أنه مات حوالى سنة ١٤٨٤[2].

وقد انخرط «بيرو طافور» في سلك الخدمة العسكرية في «جيان» تحت لواء لويزدى قزمان الذي يهديه كتابه[3] هذا، وحارب معه فيما بين عامى ١٤٣١، ١٤٣٢ حتى إذا عقدت الهدنة بين غرناطة وقشتالة قام برحلته هذه التي امتدت من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩، فلما عاد منها استقر في قرطبة وتزوج

---

(١) يذهب Letts : Pero Tafur, Trevels and Adventures, p. 8 إلى أن ما قاله طافور لترجم السلطان من أنه من مواليد أشبيلية إنما كان الدافع له عليه هو رغبته في أن ينال عطفه ورعايته، لأن المترجم اليهودى كان هو الآخر أشبيلى المولد.

(٢) cf. Boletin de la Real Academia de la Historia, Vol. XII, pt. IV, 1902.

(٣) J. de la Serna & Palencia : Historia de la Literatura Espanola, Madrid 1949, p. 95. وأشكر في هذا الموضع صديق الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى الذى أمدنى ببعض المراجع الإسبانية المتعلقة بطافور وقام بترجمتها.

فى سنة ١٤٥٢ م Dona Juana de Horozco التى أنجبت له ثلاث بنات وولداً ، ويرجح أن ابنه مات قبله .

والظاهر أن طافور كان يعتقد أنه من ذرية أباطرة الدولة الشرقية ، وتؤكد هذا إشارته إلى أن من بين أسباب زيارته القسطنطينية « رغبته فى استكناه حقيقة نسبه الذى أنبئ عنه أنه نبع فى الأصل من هذا المكان ، وأنّ له عرقاً يمتّ للعرق الإمبراطورى بوشيجة القربى » ، ثم يسوق قصة لا نعرف مصدرها التاريخى بشأن نزاع قام بين أحد الأباطرة والنبلاء ، وانضم ابن الإمبراطور إلى صفوف الأخيرين ، وبعد مصادمات عنيفة بين المتنازعين اضطر الأمير الشاب للفرار إلى إسبانيا ، حيث عرف باسم كونت « بدور » ، وأنجب ابنا سماه دوق « استيفان إلان » واستقر به المقام فى قشتالة ، وتزوج الأمير الهارب من إحدى أخوات ملكها ، وأكرمه أهلها لما أبداه من براعة فى الحرب ضد المسلمين ، ورد طليطلة للطاعة حين تمردت على ملكها الشرعى ، حتى إذا مات هذا الأمير دفنه القوم فى كنيسة الملوك القدماء فى طليطلة ، وزينوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته » ، وهى ذات الأسلحة التى يحملها مؤلفنا طافور لأنه يمت بعرق إلى هذه الأسرة ، ونحسب أن خيال طافور كان أبعد من الواقع فى هذه الناحية ، وإن كان هو يزعم أن حنا باليولوجس الثامن قد وافقه على ذلك .

ومهما يكن الأمر فقد شغل طافور نفسه بالأمور السياسية فى بلده ، إذ نراه يساهم فى حملة هنرى كونت لبلة ، التى شنها على المسلمين فى جبل طارق ،

ولكنه لقى حتفه أمام عينى طافور الذى يمتدحه ويقول فى هـذه المناسبة « انكفأنا راجعين يرمضنا الحزن لفقدنا هذا القائد المحنك ، وانثنينا قافلين إلى قشتالة ومنها إلى سان لوكار[1] » . ولقد كانت حملة الكونت على جبل طارق حلقة من سلسلة المجريات العدوانية التى كانت تحرك أوربة الغربية لاسيا إسبانيا والبرتغال فى ذلك الوقت، والتى بلغت ذروتها فى إسقاط قرطبة والحكم الإسلامى عام ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) .

* * *

استغرقت رحلة طافور الفترة الممتدة من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩ ، وهى فترة خصيبة من حيث الحركات التى شهدتها وسبقتها ، وكان مجال رحلته بعض الأقطار الأوربية ومصر ، ولقى فى هذه السفرة الطويلة أحداثاً عجيبة تصور بجلاء مدى ما كانت عليه أوربة حينذاك من تأخر فكرى وفوضى سياسية ، وقد أتاح هذان العاملان الفرصة الطيبة لظهور الإقطاع الذى استشرى بصورة خطيرة فى تلك القارة ، والواقع أن الفوضى السياسية التى عمتها لم تنته بظهور الإقطاع بل لازمته وصحبته وإن ظهرت فى صور جديدة فى شتى الأقطار الأوربية إذ ذاك ، وإنما أخذ نجمها فى الأفول بظهور بعض شخصيات استطاعت أن تجمع السلطة فى يديها دون الأمراء والنبلاء والكونتات والأدواق ، ولكن هذه الشخصيات لم تستطع أن تحرر نفسها من الطابع الإقطاعى وإن كان بشكل يختلف عن سابقه ،وتمثل هذا فى قيام هنرى الثانى بإنجلترا (١١٥٤ — ١١٨٩ م) وفيليب أغسطس بفرنسا (١١٨٠ — ١٢٢٣) وفردريك بربروسة فى ألمانيا (١١٥٢ — ١١٩٠ م) ، وكان المظهر الذى

---

(١) انظر الرحلة ، ص ٣ .

ظهرت به هذه الفترة بالذات — أعنى منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر حتى الربع الأول من الخامس عشر — هو استتباب النظام النسبي، وكان إلى جانب ذلك تضخم شأن الكنيسة وازدياد كوادرها وتعددها حتى لقد أصبحت على حد قول أحد المؤرخين المحدثين[1] — « دولة مركزية منظمة، امتدت سلطتها القضائية على شتى الأخطاء والجرائم »، على أن هذه البيروقراطية الكهنوتية لم تلبث أن وجدت من يعارضها بظهور جماعات ممن اصطلح العرف التاريخى — المستمد أصوله من إيحاءات القرون الوسطى — على تسميتها بالمراطقة الذين كرهوا فى الواقع امتداد سيطرة رجال الدين خارج نطاق واجباتهم الدينية، واتساع نفوذهم اتساعا شمل جميع مرافق الحياة الآدمية اليومية، وأصبحت الكنيسة تسيطر — بفضل ما ادعته من حقوق وخاصة هبة قسطنطين المزعومة — على مقدرات الفرد[2].

على أن هذه الحركات المعارضة لسلطان رجال الدين — وليس للدين نفسه — وجدت استجابة من نفوس فئات قليلة، لكنها كانت ذات أثر بارز أدى فى النهاية إلى ازدياد التضارب بين السلطتين الزمنية والروحية، وضعف سلطان الكنيسة، بل إن هناك من كبار رجال الدين من وقفوا ضد البابوية، ونرى إيماءة بسيطة لهذه الناحية فى رحلة طافور حيث يشير إلى ما جرى بين « مجمع بازيل » وبين البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧ م) فقد خلعه المجمع، ووقف « لويز دى أمارال » المعروف بأسقف « ڤيزو » فى صف القوة الزمنية، حتى لقد كان على رأس السفارة التى غادرت البندقية إلى القسطنطينية

---

(١) Flick : Rise of Medieval Church, pp. 603–604.

(٢) Thorndike ; Hist. of Medieval Europe, pp. 197 ff.

لحمـــــل الأمبراطور يوحنا الثامن وبطرك القسطنطينية لحضور جلسات هذا المجمع .

ولقد تضمنت الرحلة فى ثناياها — وفى مواضع متعددة من الكتاب — إشارات إلى مثل هذه الأمور التى كانت تسود أوربة فى ظل نظام منهار من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك صورت المدى البعيد المحزن من الضعف الذى بلغته الإمبراطورية البيزنطية التى سقطت نهائيا بعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء رحلة طافور ، ولم تكن الإمبراطورية فى الغرب أحسن وضعا من مثيلتها فى الشرق ، فقد بلغت ذروة الضعف بموت سجسمند ثم ابنه ألبرت الهابسبورجى الذى استقبل طافور فى برسلاو ، ولقد أدرك طافور مبلغ قوة العثمانيين إذ ذاك ، وهو فى كلامه عنهم يظهر تقديره إياهم وإعجابه بهم ، ولم يفته ذكر الأحوال فى أرمينية وسيطرة مصر التجارية فى البحر الأحمر ثم فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط . هذا إلى نفوذها وصلاتها بالمحيط الهندى ، وأشار فى صراحة إلى ما كانت تعانيه الكنيسة الرومانية ومنازعاتها مع الإمبراطورية الغربية .

* * *

أول ما يلاحظ على رحلة طافور أنها خلت من ذكر التواريخ التى تساعد من غير شك على تحديد قيامه بها وأوقات زياراته للأماكن المختلفة التى تضمنتها سفرته الطويلة لأقطار متعددة يخالف بعضها بعضاً فى كثير من مناحى الحياة وأساليبها ، غير أن ذكره بعض الأحداث الهامة وملاقاته لأشخاص معينين أمران قد يسرا لنا أن نعرف متى قام بهذه الرحلة الممتعة ، ذلك إن إشارته فى مستهل رحلته إلى حملة كونت لبلة على طارق وملاقاته الموت غرقاً تجعلناو اثقين

من أنها بدأت فى سنة ١٤٣٥ ، إذا أنه شرع فى رحلته قبل موت كونت هنرى الذى حدث فى مستهل سنة ١٤٣٦ كما يرجح أكثر المؤرخين ؛ وإلى جانب هذا نعرف من رحلته أنه فى أثناء وجوده فى جنوة ثار أهلها على دوق ميلان الذى نصب من نفسه حاكما عليها ، وإن كان ذلك قد تم أيضا برضاء الجنويين أنفسهم ، والمعروف أن جنوة قاست كثيراً من الخضوع المحتل الأجنبى ، فاستسلمت آونة للألمان ، ثم لأهل نابلى ، ثم لأهل ميلان من بعدهم ، وعلى أية حال فقد كانت ثورة جنوة ثورة عارمة ترجع إلى سبب هام هو أن مملكة نابلى كانت قد آلت إلى ألفونس الأراجونى الذى أصبح إيطالياً فى مشاعره واتجاهاته مما دعى الأهالى لتلقيبه « بالعظيم » ، لقباً استحقه عن جدارة بفضل عطفه على الآداب والفنون ، غير أن هذه المملكة كانت تتنازعها فى الأربعينات من القرن الخامس عشر أحزاب « أراجون » و « أنجو » ، وإذ كانت جنوة تنظر بعين الاعتبار بطبيعة الحال للفوائد المادية المترتبة على نشاطها التجارى ، بالإضافة إلى عداوتها التقليدية للأراجونيين فقد خُيل إليها أن صالحها يقتضيها الوقوف إلى جانب « أنجو » ، وسلكت بالفعل هذا السبيل ، وطبيعى أن يؤدى ذلك الاتجاه من جنوة إلى غضب « ألفونس الأراجونى » ملك نابلى ، ومن ثم كان لابد من اصطدام الجانبين بعضهما ببعض أن آجلاً أو عاجلاً ، وحدث ذلك الصدام يوم ٥ أغسطس ١٤٣٥ أمام جزيرة « بونزا » حيث دارت الدائرة على ملك نابلى «ألفونس» ، ووقع أسيراً فى أيدى الجنوية ، كما وقع فى الأسر معه بعض كبار وجوه مملكته ، فأسلموه إلى دوق ميلان « فيليبو ماريا » الذى سرعان ما أطلق سراحه هو ومن معه ، مما أثار حنق الجنوية وغضبهم على «فيليبو» ، واندلعت هذه الثورة يوم ٢٧ ديسمبر ١٤٣٥ [1]

(١) J. C. De Sismondi : Hist. of the Italian Republics, pp. 209 — 210.

ومن هذا نستدل على أن طافور كان فى جنوة فى تلك السنة[1] .

ثم إنه يشير فى موضع آخر[2] إلى إبحاره من البندقية إلى الأرض المقدسة وكان ذلك يوم الاحتفال بعيد الصعود ١٧ مايو ١٤٣٦ ، وفى نوفمبر من العام التالى ١٤٣٧ نراه فى القسطنطينية حين أبحر إمبراطورها يوحنا الثامن باليولوجس، الذى قبل - خوفاً من ازدياد سلطان الترك - توحيد الكنيستين اليونانية والرومانية ، لكن رجال الكنيسة الشرقية رفضوا هذا الاتفاق واستقبلوا الإمبراطور بعد عودته بشتى أنواع الإهانات .

* * *

وإذا كان طافور قد بدأ رحلته هذه فى سن مبكرة ، إذ كان وقتئذ يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، وهى سن لا تمكن صاحبها من رصد كل شىء يراه رصداً دقيقاً وبصورة تتضمن تحليل الأحداث تحليلا صحيحاً ، إلا أنه استطاع - فى كثير من الدقة - أن يصف كل ما وقعت عليه عيناه وأحسه بوجدانه ، ومع أن هذا الوجدان كان بسيطاً بل ساذجاً فى أكثر من موضع إلا أنه يشير فى وضوح إلى أن صاحبه كان فى الوقت ذاته رجلا قد تمرس بشتى أساليب الحياة ، وليس من شك فى أنه اشتغل بالتجارة على نطاق أوسع من النطاق المحلى ومارسها ممارسة عملية ، ولا يستطيع هو - أو غيره - إنكار هذه الصفة . فصفحات رحلته تفيض بما يكشف القناع تماماً عن قيامه بعمليات تجارية ضخمة يستخدم فيها رجالا لحسابه الخاص ، وإن عمليات المقايضة التجارية لتغلب عليه - رغم تدينه - فيقدمها على حضوره الصلاة والقداس ، ولكنه

---

(١) رحلة طافور ، ص ١١ .

(٢) رحلة طافور الفصل الخامس ، ص ٤١ .

لا يكاد يفرغ منها حتى يهرع إلى الكنيسة ليؤدى واجب الرب ، كما أدى حقوق الفرد الإنسان .

كذلك نستدل من كتاباته على حبه للرحلة حباً جرى فى دمه وحمله على الاعتداد بالأخطار ، فقد توسل بشتى الوسائل حتى استطاع أن يحصل على إذن بزيارة دير سانت كاترين ، فاستجاب له السلطان الأشرف برسباى وأمده بثلاثة جمال وسار عابراً الصحراء « التى لا حياة فيها ،والقينا فى ذلك مشقة كبرى واكتنفنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدة حداً عجبت منه كيف يستطيع أى إمرئ احتمالها » ، واستغرقت هذه الرحلة الشاقة منه خمسة عشر يوماً ، ثم إنه وهو فى سيناء تشتاق نفسه لزيارة الهند ، ويحاول قيم دير سانت كاترين ثنيه عن هذا الغرض ويعارضه « كل المعارضة» لكنه لا يلقى إليه سمعاً ، وإنما ينتظر وصول القافلة القادمة من الهند التى يلتقى بأحد رجالاتها وهو « نيكولو دى كونتى » الذى يحدثه عن أخبارها وعجائبها وثرواتها ، ولكنه لا يكاد يعلم منه بإزماعه المضى إلى هناك حتى « يفضى إليه فى الحال بوجوب التخلى عن تلك المحاولة التى لا يمكن إنجازها مهما صدقت النية[1] منه » ، ويقول له فى ختام حديثه ناهيا إياه عن السفر إليها « إنى أستحلفك بالله . . . أن لا تركب هذا المركب الجنونى نظراً لبعد الشقة ، وجسامة المشقة ، وفداحة الخطر » ، ثم يعدد له « نيكولو » الصعاب التى تجعل من سفره وحده أمراً مستحيلاً[2] .

---

(١) رحلة طافور ، ص ٧٨ .

(٢) انظر الرحلة ، ص ٨٠ .

وإن حبه للمخاطرة ليتجلى فى رغبته فى رؤية السلطان العثمانى فى عقر داره، فيلتمس الإذن فى ذلك من « دراجس » نائب الإمبراطور يوحنا الثامن ، ويستجيب له « دراجس » ويرسل فى طلب فئة من التجار الجنوية ليدبروا لصاحبنا رؤية السلطان مراد الثانى الذى يبعث فى طلبه حين يعلم بخبر مقدمه ، فيلتقى به ويضمّن صفحات رحلته وصفه الجثمانى ووصف حاشيته وكيفية إقامته وخروجه للصيد، بل إنه ليدخل معسكرات الأتراك ويلم بكل ما فيها ، ويصف ذلك كله وصفاً دقيقاً ربما فات الكثيرين ممن عاشوا فى البلاط العثمانى أن يذكروه تفصيلا كما ذكره طافور ؛ وليس من شك فى أن بصيرته اللماحة قد ساعدته على وصف القاهرة وشوارعها الحافلة إذ ذاك وأسواقها وما بها من مختلف التجارات الواردة من شتى أنحاء العالم، كما يصف الحلاقين والطباخين، ولا يفوته ذكر الفواكه وأطباق المحشى والسقائين ، وهذه صور انقرض الكثير منها ولكنها كانت يومذاك مألوفة ، وإنه ليضيف إلى معلوماتنا عن الإسكندرية شيئا جديداً حين يشير إلى «مكان كبير بمينائها لاستقبال النصارى القادمين والراحلين على السواء » ، ثم يشير إلى دمياط حيث يطلب من واليها جلد تمساح سأله إياه ملك قبرص، ولا تفوته النكتة هنا فيقول « إن رائحته (أى رائحة الجلد) كانت شديدة الكراهية، ولم يكن أحب إلى نفسى من أن آخذ معى ابنة الوالى اللطيفة بدلاً من جلد هذا التمساح ».

والرحلة حافلة إلى جانب ذلك بوصف المدن الأوربية التى زارها طافور ، وهو وصف فريد فى مادّته من حيث القيمة التاريخية .

• • •

أما الرحلة نفسها — كما كتبها طافور — فقد ظلت مدة أربعة قرون رهن الظلام حبيسة المخطوطة ، ولم يقيض لها أن ترى النور إلا فى سنة ١٨٧٤

حين قام الأديب الإسبانى Marcos Temerez de la Espada (المتوفى عام ١٨٩٨) بنشرها لأول مرة باللغة الإسبانية تحت عنوان Andanças é viajies de Pero Tafur per diversas partes del Mundo avidos (1435-1439) أى رحلات ومشاهدات بيرو طافور لأجزاء مختلفة من العالم (١٤٣٥-١٤٣٩)، على أنها لم تلق ما تستحقه من الاهتمام الجدير بها، فلم تظهر لها سوى ترجمة واحدة كاملة باللغة الإنجليزية قام بها «مالكولم ليتس» عام ١٩٢٦ ونشرت فى مجموعة Broadway Travellers التى كان يشرف عليها سير دينسون روس والأستاذة إيلين باور بعنوان Pero Tafur ، Travels and Adventures ، أما الترجمة الكاملة الثانية فهى هذه الترجمة العربية .

* * *

على أن هناك طائفة من العلماء والمؤرخين والباحثين الأوربيين استعملوا النص الإسبانى استعمالا مجزوءاً، وكان أولهم الوثائق «ماس لاترى»، إذ اعتمد عليها بعد عشر سنوات من ظهورها فى صفحتين فقط فى كتابه «تاريخ أساقفة جزيرة قبرص اللاتين Histoire des Archeveques Latins de l' île de Chypre (Arch . de l' Orient Latin, II , Paris 1884). ؛ ثم وردت الإشارة إليها فى السنة التالية (١٨٨٥) حين استمد منها العالم الألمانى «هايد» ماجاء بها من معلومات خاصة بالتجارة وذلك فى دراسته القيمة الفذة لهذا الموضوع الذى اعتمد فيه كلية على المصادر والوثائق الأولية فى مختلف دور المحفوظات الأوربية وخطيات العصور الوسطى وضمنها كتابه Histoire du Commerce du Levant au Moyenage . وكان استعماله للمادة التى ذكرها طافور - نتيجة مشاهدته وخبرته - على مجال أوسع من مجال سابقه «ماس لاترى» .

فلما كان مطلع القرن الحالى عمد المؤرخ الألمانى شولته فوضع كتابه المسمى
Geschichte der Mittelalterlichen Handels und Verkehrs zwischen Westdeutschland und Italien mit Ausschluss von Venedig (1900)
وفيه تكلم عن مدينتى بروجس وأنتورب وتضخمهما التجارى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وأسواقهما المختلفة والبضائع الموجودة بهما ، متخذاً عما ذكره طافور فى رحلته هذه مادة لدراسته ووصفاً لمشاهد عيان لا يرقى إليها الشك فيما احتوته من أخبار .

ثم جاء العالم الفرنسى المؤرخ هنرى بيرين فرسم فى كتابه History of Belgium صورة ثانية لهاتين المدينتين السالفتى الذكر وأهميتهما وتوسعهما التجارى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى معتمداً فى ذلك على رواية طافور ، ولكنه نقل كل ما جاء عنهما سلفه « شولته » الألمانى ، ولم يستعمل هو نفسه النص الأصلى الذى نشره « لا إسبادا » ، ومع ذلك فقد جاء عرضه وتحليله واستنباطاته دقيقة فى عرض ملامح الازدهار التجارى لأنتورب وبروجس ؛ فلما كان ختام الربع الأول من القرن الحالى نشر وليم ميللر بحثين فى المجلة التاريخية الإنجليزية (English Historical Review, 1923 & 1926) جعل محورها إمبراطورية طرابيزون ، معتمداً على ماورد بشأنها فى رحلة طافور .

ثم كانت بعدئذ ترجمة مالكولم ليتس فى سنة ١٩٢٦ التى قدّم لها بمقدمة استعرض فيها فصول الرحلة ، وقد ترجمها عن الإسبانية وزوّدها بكثير من الحواشى التى أصاب فى معظمها وجانبه الصواب فى القليل منها ، ولكنه استطاع بهذه الترجمة الإنجليزية أن يجعلها قريبة إلى يد الكثيرين من البحاث والقراء الذين تقف الإسبانيــة حائلا بينهم وبين مطالعتها والاستفادة منها بالصورة المرجوّة ، ولقد كانت هذه الترجمة الأنجليزية حاملة المؤرخ الروسى

فازيلييف Vasiliev على كتابة بحث له فى مجلة بيزانتيوم (١٩٣٢) أشار فيه إلى زيارتَىْ طافور للقسطنطينية، واكتفى فازيلييف باقتباس صفحات مطوّلة من الرحلة شغلت معظم المقال، كما أشار فى الوقت ذاته إلى الاختلافات البسيطة بين الأصل الإسبانى وترجمة ليتس .

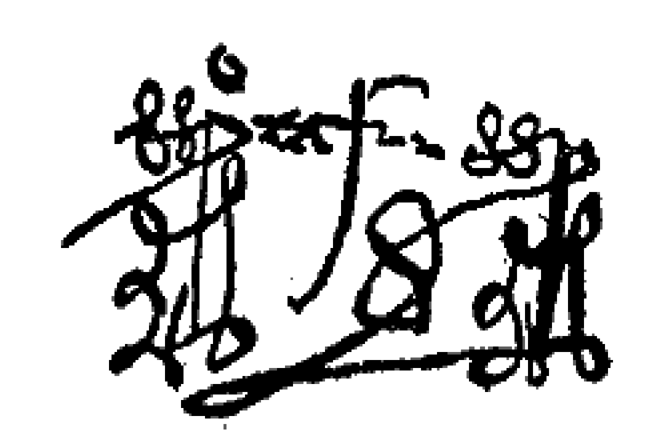
نستدل من هــذا الثبت على أن استعمال « رحلة طافور » كان مجزوءا ، ولـكن هذا الاستعمال بواسطة أعلام البُحّاث وجهابذة المؤرخين يشير بجلاء إلى القيمة الضخمة التى ضمّنها طافور كتابه ، والتى كانت المصدر الأساسى لدراسات عميقة متزنة ؛ على أن هناك جوانب أخرى ما زالت مطوية وأخصها الأوضاع الاجتماعية وأساليب الحيــاة اليومية فى البلاد والمدن التى زارها رحالتنا ، وهى جوانب تعتبر ملامح صريحة وجديدة عن ذلك العصر وتلك البقــاع ، وعنى بهــذا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فقد تناول هذه الناحية فى دراسته عن (العصر المماليكى فى مصر) ، واستعمل الرحلة فى إمداده بمادة جديدة عن القاهرة حينذاك ، وكذلك الدكتور أحمد درّاج فى رسالته عن عهد السلطان برسباى . وإن الصفحات التى تركها طافور عن القاهرة لجديرة بأن تـكون نواة لبحث أو بحوث تضيف جديداً إلى معلوماتنا عن مصر القرن الخامس عشر .

* * *

وبعد فإنى أقدم هذه الرحلة لأول مرة فى لغة الضاد ، راجيا أن تـكون معوانًا للبحاث ، ومن الله التوفيق ؟

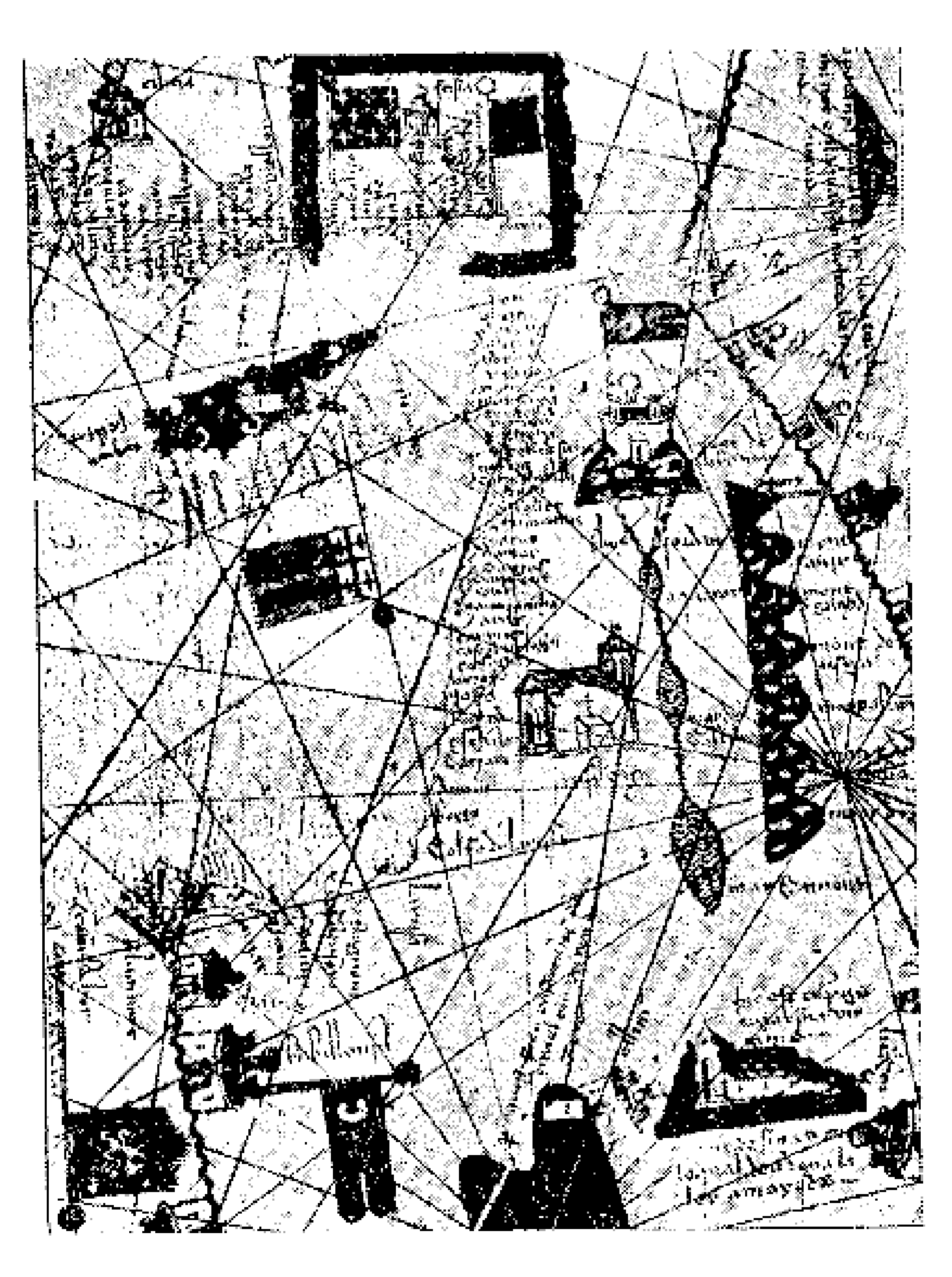
حسن حبشى





إمضاء طافور من وثيــــقة
محفوظة فى أرشيفات قرطبة





قسم من خريطة كتلانية للعالم سنة ١٣٧٥



الفصـــل الأول

بدء الرحلة . كونت لبلة . جبل طارق
قادس . ساحل الغرب . جزائر
البليار . العاصفـــة
جنـوة

فردنا القلاع وغادرنا ميناء « سان لوكار دي برّاميدا » ، وكان سفرى فى سفينة من سفن غاليسيا لأنى كنت قد أعددت عدة الرحيل دون أن يكون لدى شيء من الجياد أو سواها من الوسائل الضرورية للسفر براً ، وظللنا مبحرين طوال يومنا هذا والليلة التى تلته ، حتى إذا عطفنا على رأس الطرف الأغر دخلنا المضيق ، وبلغنا ــ مع انبلاج ضوء النهار ــ جبل « كارنيرو » عند مدخل جبل طارق ، وأرسينا على مقربة من البلد ، وطالعنا عدداً كبيراً من سفن الملك ، وغراباً من أغربته جاءت صحبة كونت لبلة[1] الذى وجدناه قد أرسى على مسافة نصف فرسخ من جبل طارق ، بصحبته ألف ومائتا فارس وخمسة آلاف من المشاة وبرفقته ابنه أيضاً ، وإذ ذاك غادرتُ السفينة ومضيتُ قُدُماً لمقابلة الـكونت الذى سرّه لقائى ، واستبدّ به العجب كيف تمكنتُ من القدوم رغم ما كنت أعانيه من مرض ألمّ بى حديثاً ، ثم أخذ فى مشاورة فرسانه مُفْضياً إليهم بسبب وجوده هناك ، وكان قد أبقى هذا الخبر مكتوماً عنهم حتى اللحظة ، وكان الأمر كما يلى : لقد أنبأه بعضهم أنه لا يوجـــد فى جبل طارق عشرة من المسلمين المقاتلين ، على حين أن ألفاً من الرجال قلّ أن يكفُوا

للدفاع عن حصن عظيم مثل هذا الحصن الذى لن يلبث أن يقع فى يديه إن هو باغته بالهجوم . لذلك رسم أن يتجمع فرسانه عند المدخل الواقع على اليابسة ؛ أما هو فيكر بمن معه من المدججين بالسلاح كرة خاطفة على تلك الناحية من الجبل المتاخمة للمرفأ ، حيث دخل الملك ألفونسو .

ورسم الكونت أيضاً لابنه « دون خوان » أن يزحف عن طريق البحر على برج « تورتو » القائم على الجبل ، وفى هذه الأثناء يكون الباسكيون قد مضوا قدماً فى سفنهم وغرابهم لمواجهة حصن « كازال دى جينوفيز » الواقع على أعلى قمة هذا الجبل .

على هذا النمط رتب الكونت كل شىء ، فلما كان اليوم التـالى انطلق كل فريق — بعد فراغه من القداس — إلى الناحية التى اتفق على وقوفه بها ، ثم خرجنا نحن بعدئذ واقتربنا من البلد ، حتى إذا بلغ الجزر مداه غادرنا السفن وتحركنا شطر السور ، بيد أننا لم نصطحب معنا فى ذلك اليوم مدفعيتنا ، إذ لم يكن همنا يومذاك إلا استطلاع عدد القائمين بالدفاع عن هذا المكان. لكننا لم نكد نصاقب السور حتى لقى خمسة عشر رجلاً أو عشرون من رجالنا مصرعهم ، واضطربنا اضطراباً لم نلق معه بالا إلى أن المد أخذ فى الارتفاع حتى أصبحنا نخوض فى المياه إلى ركبنا . ولما رأى الكونت عجزنا عن القيام بشىء ما — إلى جانب إننا لم نجلب معنا مدفعيتنا — فقد أصدر أمره بأن نعود على أعقابنا إلى البحر ، فارتد الرجال إلى القوارب ، بينما تخلف الكونت لجمع الآخرين ، وبينما هو يتأهب للوثوب فى القارب الأخير هو وعشرة أو اثنا عشر فارساً ممن ظلوا معه على الشاطىء أدرك العدو أن لم تبق غير شرذمة قليلين ، وقد انسحب الآخرون دون إصدار أوامر بتغطية هذا الانسحاب بالسهام والمدافع ، وعرف العدو أن الجميع قد ركبوا البحر حين أوشك القارب

الأخير على الرحيل ، وإذ ذاك قامت جماعة من فرسان المسلمين يبلغون العشرين وطائفة كبيرة من مشاتهم وحملوا على القارب — وكان صغيراً قد أثقلته حمولته فانقلب بمن فيه ، وابتلع اليم الكونت ومن معه ؛ حدث هذا فى الوقت الذى كانت فيه التدابير الأخرى قائمة على قدم وساق ، ونهض بقية الرجال بأكثر مما يستطيعون من الأعمال ؛ ولم يُستَثْنَ من ذلك سوى من على الشاطىء من الفرسان الذين لم يجدوا ثَمّ من يقاتلونه فلم نَرَ من العودة بداً ، وانكفأنا راجعين يرمضنا الحزن لفقدنا هذا القائد المحنك فى البر والبحر على السواء ، وانثنينا قافلين إلى قشتالة ، ومنها إلى « سان لوكار » التى كان إقلاعنا عنها من قبل .

* * *

وجبل طارق قلعة بلغت من المناعة منتهاها ، وخبرها ذائع فى شتى ربوع الدنيا ، وهو يقوم عند فم المضيق ، حيث يلتقى المحيط الأطلسى بالبحر الأبيض المتوسط ، وأرضه شديدة الخصب ، أما المدينة فتشرف على المدخل المؤدى إلى الأرض الرئيسية الشديدة الضيق والتى تمتد من هناك إلى قمة الصخرة مسافة تقرب من فرسخ ، وهى حصينة التسوير حافلة بالبساتين والكروم والمياه العذبة ، وتجثم فى بقعة شديدة الانخفاض واقعة على سيف البحر ، وتنهض خلفها الصخرة التى تضرب بقمتها إلى العنان ، حتى ليحسب رائيها أنها تمس السماء ثم تنتصب معتدلة ، وعلى الرغم من مظهرها القوى من ناحية الغرب إلا أنها تبدو من الشرق أكثر صلاحية ، ومرفؤها أمين كل الأمان ، وهو عبارة عن لسان من البحر يدخل فى اليابسة حتى يبلغ أرض الجزيرة الخضراء ، ويمتد مسافة ثلاثة فراسخ صالحة كلها لرسو السفن .

غادرنا هذا المكان ، وركبنا المضيق ونحن نشاهد رأس طريف ، ومررنا بميناء قادس وسواه من الأماكن الواقعة على الساحل ، ثم دخلنا ميناء « برّاميدا » عند سان لوكار ، حيث تلقانا من بها بقلوب أقل انشراحاً عما كانت عليه حين رحيلنا عنهما من قبل ، فجمعت ما كنتُ قد جهزته ، وامتطيت ظهر مركب كبير يملكه « خيرونيمو دى فوانداخو » الذى كان قد قدم من جنوة بسفينتين أخريين تابعتين «لاستبان دوريا » و « خيرونيمو دوريا » ، وعليهما جماعة من الجنود للدفاع عنهما ضد القطالونيين ، كما أبحر عليهما معظم الجنوية الذين كانوا فى أشبيلية لما كانوا يحملونه من الأموال الضخمة .

* * *

خلّفنا وراءنا ميناء قادس ، وبلغنا ساحل إفريقية وقد أدركنا مدينة تسمى « أصيلة » ، حيث كان علينا أن نفرغ شحنتنا بها ونأخذ أخرى جديدة مكانها ، وهذه البلدة ملاصقة لرأس « اسبارتيل » وتابعة الملك فاس ، ومن ثم كان عليها والٍ من قِبَـــله وهو فارس بربرى اسمه « مصالة ابن مصالة » .

وأصيلة مدينة وافرة الخصوبة ، غير أنها تزخر بالحيوانات والطيور أكثر من أى شىء آخر ، فأقمنا بها ثلاثة أيام ، ثم أقلعنا منها ودخلنا مضيق جبل طارق ، فلما حانت ساعة صلاة الغروب أبصرنا فى الظلام سفينتين كبيرتين حسبناهما من سفن القطالونيين ، فمددنا أدراجنا إلى الوراء وأرسينا بعيداً عن طنجة ، بيد أن السفينتين مضيتا فى طريقهما إلى قادس ، فلما كان اليوم التالى تابعنا الرحلة وبلغنا « سبتة » حيث علمنا من أحـد القوارب

الباسكية أن هذين المركبين من مراكب الأسطول الجنوى ، وأنهما جاءا من جنوة لمصاحبة سفننا الثلاث ، فأرسينا فى سبتة وغادرنا السفن وطلبنا قارباً صغيراً ذا شراع واحد ، وأنفذنا الرسائل إلى قادس طالبين أن تنتظرنا بها الشوانى وإلاّ فلتُلاقنا فى مالقة حيث كان علينا أن نفرغ بها حمولتنا ونتزود فيها من جديد .

* * *

وبقينا ذلك اليوم فى سبتة ، وخرجْت لتفقد المدينة ومشاهدة ضواحيها التى بدت لى أجمل ما تكون منظراً ، ودلت على أنها بلد كبير ، وليس من شك فى أنْ لو استولى عليها ملك[٢] قشتالة وزينها للناظرين لأضحت بسبب موقعها أعظم بلاد العالم فتنة .

وأرضها على وجه العموم خصبة رغم وعورتها ، والإقليم جبلى ، غير أنه توجد به ميناء صالحة وأرض فسيحة ، وفاكهة وفيرة ، ومياه غزيرة ، وأما ما سوى ذلك من المدينة فقد بلغ من القوة مبلغاً عظيما ، إذ يوجد على أحد جانبي الجبل مكان صخرى يحوطه سور يسمونه « الالميان » ، لا بد وأن يبلغ من العظم غايته لو قدر له ما كان ينبغى أن يكونه .

وتعج جبال سبتة هذه بالأسود التى يبلغ عددها هنا أكثر منه فى أى مكان آخر بالعالم ، ويعجز العد عن إحصاء ما بها من القنافذ والقرود والفهود والدببة والخنازير ، ويقال إنه يُشك فيما إذا كان يوجد ثم مكان آخر على الجانب الإفريقى أعظم من هذا المكان ارتفاعاً وأكثر جبالاً ، ويقال إن سبب ذلك قربه من الغرب ووقوعه على هذا الجانب من المضيق .

ورحلنا عن سبتة مخلفين إفريقية على يميننا وأوربة على يسارنا ، وأبحرنا في المضيق ، حتى أرسينا على ساحل مدينة مالقة التابعة لملك غرناطة ، حيث أرسى التجار وأفرغوا بها بضائعهم ثم تزودوا بسلع أخرى غيرها ، فأقمنا بها تسعة أيام سويا .

وفي أثناء إقامتنا هذه وصلت السفينتان اللتان مرّتا بنا فنقلْنَا رجالاتهما إلى سفننا وحملتا البضائع وعادتا إلى قادس لأخذ بضائع أخرى إلى هولندة ، على أنه لم يكن لنا شاغل أثناء هذه الأيام التسعة سوى استملاء النظر بروعة مدينة مالقة التي أثّرت فيّ تأثيراً طيباً ، سواء من ناحية موقعها — رغم عدم وجود ميناء لها ، — أو من ناحية تربتها — رغم قلة خيرها — ، غير أن كل ما فيها حسن ولا ينقصها شيء من البساتين والفواكه .

والمدينة منبسطة ومعظمها مسور ، وعلى جانبيها حصنان يصل بينهما ممر له حائط يسمونه « جبر الفار » ، وهي تفيض بشتى أنواع المتاجر ، ولو كانت تابعة لنا لكانت أحسن مما هي عليه ، غير أن جميع أنواع التجارة كان لابد لها من أن تذهب إليها من قطرنا الذي لا يخاف قط من أي مكان في حوزة المسلمين ، ويتدفق البحر تدفقاً يبلغ جدرانها حتى ليستطيع أي أسطول من الأغربة سدّ بعض الأرماث إلى الأرض الواطئة ، إذا أن المنطقة الممتدة إلى البحر شديدة الانخفاض رغم حصانة تسويرها من ناحية البر ، وهي غاصة بالأهالي الذين تتألف غالبيتهم من طبقة التجار ، وإن قلّ البارع منهم في فنون الحرب .

وبعد أن قضى الجنوبة تسعة أيام في مالقة جمعوا بضائعهم وجهزوا السفن

بالسلاح وأعدوها للإبحار ، إذ كان عليهم أن يسافروا قرب الشاطىء من لسان فى البحر إلى لسان آخر على طول امتداد بلاد ملك أرغونة ، وتابعنا الإبحار على طول ساحل غرناطة ، واجتزنا « سالوبرينا » وحصن «المنكب » و«ألميرة» حتى أدركنا قرطاجنة الواقعة فى بلادنا ، فدخلنا الميناء ومكثنا هناك يوماً ونحن فى انتظار سماع أخبار الكتلان .

وقرطاجنة كميناء — فى تقديرى — من أحسن موانى العالم ، أما البلدة فرائعة ، وقد رحلنا وأبحرنا موازين لشاطىء « أرغونة » ، مارّين « بلنكة » ، حتى غدونا على مقربة من « بلنسية » حيث أسدانا البعض النصيحة بمغادرة الساحل والخروج إلى عرض البحر ، فلما جاء اليوم التالى لمبارحتنا الشاطىء قاربنا جزيرة « إبفيشيا » التابعة لملك أرغونة ، ومن ثم تابعنا طريقنا جاعلين « قطالونيا » و « برشلونة » على يسارنا ، مارين بجزائر «ميورقة» و«منورقة» التابعة للملك نفسه ، ودخلنا خليج « ليون » الذى يسمى بهذا الاسم حين خروج المرء منه ، أما عند مدخله فيعرف بخليج نربونة .

وحدث فى ذات يوم عند صلاة الغروب أن هبّت عاصفة هوجاء أرغمتنا على الهروب أمامها طوال الليل ، فلما كان الغد كنا جدّ بعيدين .

أما الشينيتان الكبيرتان فقد دفعتهما الريح بلا أشرعة شطر سردينيا ، ومضى شهران لم نسمع فيهما خبراً عنهما ، غير أن سفينتنا التى كانت لا تزال محتفظة بشراعها الرئيسى — وإن لم يبق منه غير جزء بسيط — فقد ظلت مصاقبة للجزيرة التى يسمونها بجزيرة «تيتان» قرب شاطىء بروفنس ، وبقينا يومنا هذا والليلة التالية له ونحن فى خطر مقيم ومشقة بالغة ، بيد أننا تابعنا السير ، حتى

إذا كانت الغداة وصلنا إلى نيس ، وكانت الليلة ليلة عيد الميلاد فألقينا مراسينا بها وأصلحنا أشرعتنا ، ثم سافرنا إلى مدينة « سافونا» الجميلة التابعة لجنوة ، وبقينا بها يوم عيد الميلاد[٣] ثم أبحرنا في اليوم التالي ونحن جد قريبين من البر مقاربين للشاطىء على بعد أربعين ميلا من جنوة وهي أجمل منظر في الدنيا . ويبدو الساحل من سافونا إلى جنوة — لمن لا يعرفه — أشبه بمدينة واحدة موصولة ، وهو آهل بالسكان ، مزدحم بالدور .

الفصل الثانى

جنوة . مقاضاة بعض التجار . سان لورنزو .
الأملاك الجنوية فى الخارج . السكان .
الثورة . بيزا . فلورنسا بستويا .
بولونيا . البابا أيوجين . فرارا .
صكوك التبادل
البندقية

. . .

دخلنا ميناء جنوة على مقربة من الحاجز القائم بها ، واستقبلنا رجالها ونساؤها بغاية الترحاب وإن كانوا جدّ محزونين أسفاً على المركبَين ، إذ لم يعلم أحد ما جرى لها ، وغادرنا السفينة ونزلنا اليابسة ، لكن قبل دخولنا المدينة قطعنا مسافة نصف فرسخ حتى بلغنا كنيسة سيدتنا كورونا وفاء لنذر نذرناه أثناء العاصفة ، ودبرت لنفسى مكاناً أقيم فيه طوال الخمسة عشر يوماً التى سأبقاها فى جنوة ، والواقع أننى كنت فى مسيس الحاجة إلى الراحة ، إذ أرهقنى الانهماك فى العمل وأمضّنى الحزن وأجهدنى دوار البحر ، وأحسست بشدة نقمتى على نفسى ، وكانت هذه أول مرة بدأت أعرف فيها الله ، إذ انقضت علىّ بضعة أيام وأنا منهمك فى مقاضاة فئة معينة من التجار الذين لم يحترموا بعض صكوك التبادل النقدى التى كانت معى ، غير أن الدوج[4] — وكثيراً من سادة هذا البلد — أظهروا لى مزيداً من الاحترام وأحاطونى برعايتهم ، وحملوا التجار على أن يدفعوا لى استحقاقاتى وضعف النفقات التى حمّلونى إياها .

والمدينة قديمة جداً ، ويزعمون أن بانيها هو « جانوس » أمير طروادة بعد تدميرها[٥] ، والواقع أنها تبدو أشبه بعمل رجل ذاق مرارة الهزيمة ، إذ أنها مقامة على جبل سامق الارتفاع مشرف على البحر ، وجميع بيوتها أقرب ما تكون شبهاً بالأبراج ، وهى مؤلفة من أربعة طوابق أو خمسة وقد تزيد عن ذلك ، على حين أن شوارعها شديدة الضيق ويصعب اقتحامها ؛ والتربة جد قحطاء غير أن أهلها أهل جد وعمل ، وهم يجلبون الميرة من جميع نواحى العالم ، ومن ثم فالمدينة وافرة المئونة كما لو كانت الأرض خصبة .

ولها ميناء رائع ورصيف به برج ومنارة تظل موقدة طول الليل ، ويوجد على الشاطئ الآخر للميناء برج ثان شديد الارتفاع ، به هو الآخر منارة حتى لا يضل أحد ما الطريق إلى مدخل الميناء ، وبلغت نفقات ذلك كله مبالغ طائلة .

والأديرة رائعة جداً شأنها فى ذلك شأن كنائسها التى أعظمها الكنيسة المسماة « بسان لورنزو » التى بلغت الغاية فى الجمال ، لا سيما سقيفة بابها ، ويحتفظ القوم بالكأس المقدس المصنوع من زمردة[٦] واحدة ، وهو فى الواقع أثر مدهش من المخلفات المقدسة ؛ أما حكم المدينة وإدارة جميع أملاكها ففى يد الأهالى الذين مكنهم جدهم وحكمتهم من الاستحواذ على كثير من المدن والقلاع فى الداخل ، كما ساعدهم ذلك أيضاً على احتلال بعض الجزر فى البحر ، فلهم جزيرة « خيوس » و « ميتليني » ، وتتبعهم فى جزيرة « قبرص » المدينة المسماة « بالماغوصة » التى استولوا عليها حين أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته معهم إلى جنوة[٧] ، وقد ولد أبو الملك الحالى[٨] هناك فى «فاروس» ، وسمى « جانوس » نسبة إلى مولده فى جنوة ، وهم يملكون أيضاً مدينة « بيريه » المتاخمة للقسطنطينية ، ومدينة أخـــرى تدعى « كافا »

الواقعة فى طرف البحر الأسود والمشابهة لإشبيلية فى ضخامتها إن لم تزد عليها ، وللجنوية بعض القلاع فى بحر أزوف وكذلك فى تركيا .

والشعب الجنوى شعب بحرى قوى جداً ، وتعتبر شوانى المدينة على الخصوص أحسن شوانى العالم على الإطلاق ، ولولا المنازعات العنيفة الناشبة بين أهلها لامتد سلطانهم على كافة أنحاء الدنيا ، وهم أهل جد لم تدنسهم الرذائل ولم ينغمروا فى المتع الجسدية التى لا تشجع عليها طبيعة البلد ، هذا بالإضافة إلى ما هم عليه من الثروة وحب النظام . أما فيما يتعلق بالملبس فإنهم إذا رأوا أحداً — رجلا كان أو امرأة — قد أسرف فى ملبسه إسرافاً لا مبرر له فرضوا عليه غرامة . وبشرتهم جميلة جداً وإن لم يكونوا فاتنى الوجوه رغم العناية بهم ذكوراً وإناثاً من حيث التغذية ، وهم يقومون النساء بأحجامهن ، فأفرعهن طولا أقلهن مهراً ، وإذا ترملت المرأة لم تتزوج ثانية ، فإن فعلت ذلك لاكت الألسن سيرتها بمقالة السوء .

* * *

وفى أثناء الاضطرابات التى ألمت بالناس دخل دوج « ميلانو » المدينة مع فريق من التاثرين . وتولى حكمها ، غير أن أهلها تمردوا — خلال إقامتى بها — على الدوج[٩] وقتلوا واحداً من قواده المقيمين بها ، واسمه « باسينو اليتاتو » ، وهدموا حصنه القريب من المدينة ، وقد دعانى القوم لرؤية السجن المخيف الذى كان يلقى فيه ملوك أرغونة ونفارة بمن يقع فى أسرهم من الفرسان .

ويوجد السمك — وإن كان بقلة — فى البحر عند جنوة ولكن الموجود منه شديد الصغر . ولا جدال فى أن لو كان رجال الأمم الأخرى قد طبعوا

كالجنوية على حبِّ الرحلة موكلين ببقاع الأرض يذرعونها وتطول غيبتهم عن ديارهم لتهدد الخطر الجسيم عفة نسائهم ، غير أن القوم هنا يقدّرون الناحية الأخلاقية تقديراً عظيما ، حتى إنه قل أن ترتكب امرأة الفحشاء ، فإن جرى مثل ذلك لم يكن لها من عقاب سوى القتل .

* * *

غادرت جنوة وسافرت مبحراً على طول الشاطئ المزدحم بالسكان ، ومضيت إلى « سستري ليڤانت » ، ومنها وصلت إلى « برتوفينيري » فى اليوم الذى ثار فيه الأهالى ضد دوق ميلانو وملك أرغونة ، إذ كان الدوق قد سلم المكان للملك .

وبرتو فينيرى ميناء جيد تواجهه جزيرة تعتبر خير وقاء له ، والبلدة شديدة المناعة لوجود حصنين يقمان عند طرفيها . ولقد أبحرنا من هنا إلى مدينة «سبيزيا» الكبيرة التابعة لجنوة ، فانحدرنا منها إلى « لريتشى » ، وهى حصن قوى من أملاك ملك أرغونة ، ثم جئنا بعد ذلك إلى « بيترا سانتا » ، حتى إذا كانت ساعة صلاة الغروب وصلنا إلى خارج « ليجهورن » ، وهى ميناء بيزا ؛ وكان كونت « موديكا » قد جاءها من نابلى فى أربعة عشر غراباً فأخذ سفينتنا وبعث بجميع من كان بها من الجنوية إلى الأغربة ، على أنه كان من جهة أخرى حفيًّا بى ، ولقينى لقاء كريماً عظيما ، وأبدى لى رغبته أن أرحل لساعتى ، غير أن بعض الفرسان القطالونيين أخبروه بمدى الخطر الداهم الذى أتعرض له من جانب الرجال المسلحين فى تلك النواحى الذين يستأجرهم كونت(١٠) فرانشسكو قائد الفلورنسيين إذ ذاك ، وكان حينئذ شديد التحيز للجنوية ، ولقد سمع الكونت منى كيف ثارت « بورتوفينيرى » ضد ملك

أراجون ، وأن « نيكولا[11] بتشنينو » كان هناك مع رجاله وكيف عدت معه إلى « ليبرتشي » ووجدنا الحصن فى أمان وسلامة ، ولكن المدينة فى فتنة وقد نهبها الثوار وهاجموا « سيزيا » و« بورتوفينيرى » براً وبحراً ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليهما رغم تخريبهم ما حولها .

أرسلنى بعدئذ كونت « موديكا » و « نيكولا بتشنينو » إلى « بورتوفينيرى » وأعطيانى أربعة أسرى من الجنوية توكيداً لحسن معاملتى ، فلما بلغت « بورتوفينيرى » — حيث كنت معروفاً بها — وجدت مركباً أبحرت فيه إلى « لجهورن » ، وإذ دخل المركب نهر « بيزا » وصلت إلى المدينة ، وإنه لمن الممكن على السفن — وقت المدّ — أن تصل إلى الأسوار ، ولقد مرّ وقت من الأوقات بلغت فيه بيزا معارج القوة والثروة ، ولها أملاك كثيرة ما بين أراض وجزر ، وقد غدى البيازنة الآن خاضعين للفلورنسيين بعد أن كانوا سادتهم بالأمس .

. . .

بعد مغادرتى « بيزا » وصلت إلى « فلورنسا » ، وعلى بعد عشرة فراسخ من تلك البقعة عبرت قطراً كثير الفواكه ، واجتزت قرى كبيرة كانت مقفرة من السكان إبان الحروب البيزية ، وتشتهر فلورنسة بضخامتها وثروتها وجمالها من الداخل والخارج .

وهى تقع فى سهل تقوم على جانبيه الضواحى المديدة ، ويشقها فى الوسط نهر يصل إلى « بيزا » ، غير أننى لن أطيل الكتابة عن هذه المدينة مرجئاً كلامى عنها إلى وقت آخر[12] .

عبرت جبال الألب من فلورنسا إلى « بستويا » ماراً فى طريق بكثير من القرى حتى بلغت بولونيا ، حيث لقيت البابا « إيوجين[13] » ، ولقينى

من كان بها من القشتاليين بأعظم آيات الترحيب ، كما أكرم القس والفرسان وفادتى وأصروا على مرافقتى حين التمست الإذن من البابا فى التوجه إلى بيت المقدس ، فأجاب ملتمسى ونفحنى ببركاته ، كذلك أعطانى صك غفران تام عندما تحين ساعة الموت ، ولقد بقيت مستجماً هناك خمسة عشر يوماً شاهدت خلالها الحفلات التى يشترك فيها الأشراف والعامة معاً على السواء ، وكان الوقت منتصف الشتاء حيث اعتاد الناس تسلية أنفسهم والاحتفال بعقد زيجاتهم وإقامة أعراسهم .

وتعتبر المدينة نفسها جزءاً من لمبارديا ، وهى عظيمة الضخامة آهلة بالسكان ، تتوفر فيها جميع حاجات المعيشة ، ومن أجل ذلك تسمى « بولونيا السمينة » وأروع ما فيها بيوتها وشوارعها ، كما أن حاناتهاقد بلغت الغاية من الحسن ، وأمّا أماكنها وأديرتها فآية فى الجمال ، ومن أعظمها دير « القديس دومينيكو » المبشّر المدفون به جسد ذلك القديس الطوباوى الذى كان أحد مواطنى قشتالة ، وهو « قزمانى » الأصل من ناحية الأب « وأساوى » من جهة الأم ، ولقد كان الأخ الأعظم « دون لويس دى قزمان » منحدراً من نفس البيت ، ولقد أرسل إلى كبير خدام قصره « بدرو دى قزمان » الذى كان سفيراً لدى البابا وعضواً فى سفارة ذلك جوان طالبا إليه أن يقوم بزيارة المكان المدفون به القديس دومنيك ، وصَرْف مبلغ معين من المال به كان قد أعطاه له لهذا الغرض ، ففعل ما أمر به .

ولقد رأيت المصلى والمعبر ، وهما الآن على أبدع صورة من الزينة ولكنهما كانا مهملين من قبل أشد الإهمال ، كما نقشت حولهما ورسمت أسلحة قزمان التى أمر بعرضها هناك الفارس الطيب « دون لايس دى قزمان » رئيس إخوان « كلا ترافا » .

ويجرى عبر المدينة نهير يرجع الفضل إليه فيما هى عليه من فتنة ، كما يوجد بها مائة عين ماء بطواحينها ، بعضها لطحن الغلال والآخر للتوابل ، وغيرها لتنظيف الأسلحة وصناعة الورق ونشر الأخشاب وغزل الحرير ، ومن ثم ينتفع الأهالى بالمياه بشتى الطرق . وتوجد على أحد جانبى المدينة قلعة ذات جدار من الحصباء التى تقاوم بشدة طلقات النيران ، كما تقوم هنا جامعة من أشهر الجامعات فى الدنيا تدرس فيها جميع فروع العلم ، وترى الطلاب من مختلف الجنسيات وأعاظم لرجال يعملون فيها باستمرار ، والمدينة تابعة للكنيسة .

وفى أثناء إقامتى فى بولونيا اشتريت جيادى ، وركبت ورجالى إحدى السفن ، ووضعت بها بضائعى وسافرت إلى « فرارا » عن طريق ذلك النهر الذى وصفته آنفاً ، وهو شديد الضيق حتى إنه لا يمكن لأكثر من سفينة واحدة المرور به ، وإذا حدث أن التقت به سفينتان اضطرت إحداهما إلى الجنوح إلى الشاطىء حتى تمر الأخرى ، وتتجمد مياهه كل ليلة ويستعمل الأهالى قوارب قد غطيت قيعانها بالحديد ، ومن ثم يروحون ويغدون بها ليلا على النهر ، ويحطمون الثلج بأعمدة ذات رءوس حديدية مدببة ، وبذلك يشقون طريقاً للمسافرين به ، وترى الأطفـــال يمرحون ويغدون مؤملين وجود الجليد بكثرة .

وقد استطعنا أن نصل عن طريق النهر إلى نهر « بو » ، وهو من أكبر مجارى المياه فى الدنيا وأحد الفروع الأربعة التى تنحدر من جبال الألب الألمانية ، ووصلنا عبر هذا النهر إلى مدينة « فرارا » التى ما كدت أبلغها حتى مثلت بين يدى صاحبها المركيز[14] ، وبقيت بها ثلاثة أيام ثم غادرتها عن طريق النهر إلى مدينة « فرانسكلينو » ، وتابعت سيرى بعدئذ بالسفن

فى النهر ذاته حتى وصلت إلى البقعة التى تدخل البحر وتبلغ مسيرة يوم واحد .

. . .

بلغت البندقية[١٥] عند الغروب ، وقد قام على اليمين والشمال كثير من الكنائس والأديرة والخانات ، وكلها فى الماء كالبندقية ذاتها ؛ وما كادت قدماى تطآن اليابسة حتى أسرعت لرؤية كنيسة القديس مرقص المبنية على مشارف المياه ، وأديت الصلاة بها ، فلما فرغت منها ذهبنا إلى خان اسمه « السمكة » La Storjone [١٦] وهو من أحسن النزل بها وأروعها فأقمنا به يومنا هذا والليلة التالية له ، فلما كان الغد بعد انتهاء القداس رحت أسأل عن الصيرفى « سلفستر موروزينى » حيث كانت معى صكوك مالية تدفع من قبله ، وسرعان ما وجدته فأخذ أحدها ونقدنى القدر المطلوب ، وهذه طريقة لا يتوقفون قط عن الدفع بها ، ذلك أنه على الرغم من استعمال جميع التجار فى كل ناحية من نواحى العالم صكوك الدفع هذه إلا أن القوم هنا أسرع الناس لقبولها ، ولقد قضيت ذلك اليوم معه ومع « كارلا مدروزينى » وهو أحد التجار الذين كانوا فى إشبيلية ، وظل أمداً طويلا وهو يستأجر بعض المناجم ، وقد توثقت أواصر الصداقة بينى وبينه فى بيت السيد « دون لويس » ، ومن ثم رحب بى أجمل ترحيب ، وأباح لى التمتع بالحرية فى داره التى بقيت بها طول فترة مكثى فى البندقية .

وحين كنت هناك رحت أستفسر عن سفرتى إلى بيت المقدس ، وعلمت استحالة النهوض بها قبل ثلاثة أشهر حيث لم تجر عادة سفن الحجاج على الإبحار حتى يوم الصعود فى شهر مايو ، وأحببت أن أقضى تلك الفترة فى زيارة العالم المسيحى ، ومنها بلاط الإمبراطور وبلاط ملك فرنسا ، غير أن أصدقائى التجار

الذين التمست مشورتهم نصحونى بالتخلى عن هذه الفكرة إلى حين عودتى من أداء فريضة الحج لبيت المقدس ، على أن أقوم فى أثناء ذلك بالتجول فى أنحاء إيطاليا وهذا أمر جدير بالاهتمام ، وإذ كان موعد الصيام الكبير قد دنا فنى استطاعتى قضاؤه فى رومة ، ثم الرحيل بعدئذ إلى نابلى ومقابلة ملك أراجون ، وذكروا لى أنه بعـــد إنجاز ذلك كله يتبقى لدى عشرون يوماً أو أكثر قبل إبحار السفن إلى بيت المقدس ، ورأيت أن هذه خير نصيحة محضونى إياها فاستجبت لها ، ومن ثم مضيت لزيارة إيطاليا ، فشاهدت كثيراً من المدن الكبرى والصغرى والقرى والقلاع ، حتى إذا جاء الصوم الكبير ذهبت إلى رومة ، بيد أن البابا « إيوجين » كان إذ ذاك فى مدينة « بولونيا » كما قلت آنفاً حيث أخرجه من رومة فريق من المشاغبين الذين امتشقوا السلاح ضده ، والذين كانوا يرومون قتله ، فإن لم يكن فأسره ، إلا أنه فر فى قارب على نهر التيبر ومضى إلى « بيزا » ، ومن هناك إلى فلورنسا ثم إلى بولونيا .

الفصل الثالث

روما . البابا . الأسوار . التيبر . الفاتيكان

نزل ماركس أوريليوس . الكولوسيوم

بعض الكنائس . سوء حال المدينة

سكانها . الحيوانات الضارية

أقمت فى رومة[١٧] طوال فترة الصوم الكبير زائراً المعابد والمبانى القديمة التى بدت لى أروع ما تكون صناعة ، ولا يقتصر الأمر على عجزى عن وصفها بل أشكّ فى أنى مستطيع تقديرها التقدير الجديرة به ، وأرجو الصفح إن قصّرتُ فى بيانى عنها وفى وصف ما عليه رومة من فخامة وعظمة ؛ ولا أقدر على النهوض بمثل هذا الأمر نظراً للمدى البعيد من التخريبْ الذى ألمّ بهذه المبانى القديمة ، وما طرأ عليها من تغيير وتدهور ، ومع ذلك فمن الجلىّ البيّن أنها تبدو لمطالعيها أنها كانت فى فترة من الفترات بالغةَ الفخامة رغم ما حاق بها من الأهوال بعد أن أخذَت رومة فى السقوط من جراء المنازعات التى شبّ أوارها بين أبنائها الأمراء أنفسهم ، ورغم الدمار الذى أنزله بها الملوك الذين حاربوها ، ورغم يد الزمن التى تطحن كل شىء بثقالها . أضف إلى ذلك أن البابا القديس جريجورى كان قد رأى جموع المؤمنين وقد انثالوا إلى رومة طلباً لنجاة أرواحهم تعتريهم الدهشة ويستبدّ بهم الذهول لروعة المبانى القديمة ، حتى أنهم ليقضون وقتاً طويلا فى تملّيها والإعجاب بها ، وينسون

الغرض المقدس الذى قاموا من أجله بهذه الزيارة ، ومن ثم أنفذ البابا أوامره بتخريب كل أو عظم الآثار التى طاولت الزمن منذ القدم .

. . .

ومحيط دائرة المدينة كبير جداً ، وتمتد أسوارها محتضنة إياها مسافة أربعة وعشرين ميلا أعنى ثمانية فراسخ من فراسخنا ، وهذه الأسوار فى بنائها وارتفاعها تظهر كأنما قد فرغت اللحظة منها يد مبتدع صناع ، أما نواحيها التى هدمت فقد كان الطغاة ينفذون منها إليها بين آن وآخر لأن العمل من الضخامة بالدرجة التى يتحدى معها التخريب المقصود ، وإذن فلا عجب أن ظلت هذه الأسوار على حالها وبقيت كما بناها الأقدمون .

ويجرى فى وسط المدينة نهر جلبه الرومان إلى هناك وبذلوا جهداً شاقاً وأجروه فى وسطها وهو نهر « التيبر » ، وجعلوا للنهر أخدوداً جديداً يزعم الزاعمون أنه من الرصاص ، ومدوا القنوات بين أطراف المدينة وتشرف على مداخلها وخارجها بغية سقى الجياد ولأداء سواها من الخدمات اللازمة للناس . فإذا دخلها أحد ما من جهة غير تلك الجهات كان لابد له من أن يغرق ، وعلى جانبى النهر تقوم الطواحين التى تجعل من المدينة وحدة قائمة بذاتها .

وعلى أحد ضفتى التيبر حصن قائم على ربوة ظلت تتراكم وترتفع حتى صارت جبلا ، وحول الحصن سور شاهق الارتفاع به أبراج كثيرة قوية ويسمى حصن « سنت أنجلو » ، وهو يقوم على جسر مشرف على نهر التيبر فى الطريق إلى كنيسة القديس بطرس التى تعتبر مركز الرسل ، ويقال إنه اجتاح رومة ذات مرة طاعون تفشى بها واستمر أمداً طويلا ، وأوحى إلى البابا جريجورى بوجوب الخروج فى موكب إلى كنيسة واقعة عند أحد طرفى المدينة

تسمى كنيسة « القديســة أجاثا » حيث كان يوجد صنم يعبده الوثنيون بل ويتقرب إليه المسيحيون سراً ، لأن بعض الشعائر الوثنية ظلت حية باقية ، فلما وصل البابا فى موكبه إلى الكنيسة وجاء إلى الصنم انطلقت منه جلبة أشبه بالرعد وتهاوى قطعاً ، فلما أبصر البابا هذه العجيبة تابع موكبه ، وبينما كان عائداً خائفاً إلى كنيسة القديس بطرس عند الجسر الواقع عند سفح هذا الحصن تجلى للجميع ملك قد جرد سيفاً فى يده وكله ملطخ بالدماء ، ثم أخذ يمسحه بعباءته ليزيل ما علق به من تلك الدماء ، ثم عاد فوضعه فى غمده ، فَعُدَّ هذا الأمر إشارة إلى هدوء الرب وأنه لا يريد أن يموت أكثر ممن ماتوا ، وهكذا انهارت الوثنية ، وأطلق على الحصن منذ ذلك الحين حصن « القديس أنجلو » ، ولا يزال يسمى إلى اليوم بهذا الاسم وقد نصب عليه تمثال ملاك ، وأخذ البابا جريجورى هذه المعجزة وغيرها من الأمور القوية العجيبة التى جرت فى رومة بعين الاعتبار ، ومن ثم شرع فى هدم كثير من المبانى القديمة لأنها صرفت انتباه الحجاج عن الأماكن المقدسة ، غير أنه لم يحطمها جميعاً ، ولا زال الذين يذهبون اليوم إلى هناك — إذا أرادوا مشاهدة الأشياء الجميلة — يمضون إلى هذه الأطلال قبل أى شىء آخر .

ومسكن البابا ملاصق لكنيسة « القديس بطرس » على منحدرات تل « أفنتين » ، وهذه هى البقعة التى كانوا يستعملونها من قبل لضمان حرية روما ، وهى ذات الطريقة التى يصطنعونها لضمان الملة التى يعتبر البابا حاميها ضد الهراطقة الذين يرغبون فى محوها ، وجرت عادة الأباطرة على البقاء هنا عدة أيام قبل تتويجهم كما لو كانوا يعسكرون ضد أعداء الكنيسة ، ثم يتسلمون بعدئذ التاج المصنوع من الذهب فى سلسلة من الاحتفالات التى أعجز عن

تفصيلها ، أما مسكن البابا فكان متواضع ، وقد كان غير مرتب حين كنت هناك .

* * *

وكنيسة القديس بطرس[١٨] بيعة شهيرة ، ومدخلها رائع جداً ، ويصعد المرء إليها بدرج بالغ الارتفاع ، وتحلى سقفها الفسيفساء الكثيرة ، أما الكنيسة من الداخل فضخمة وإن تكن شديدة البساطة ، وقد بلغت من السوء والقذارة حداً كبيراً ، وقد تهدم أكثر نواحيها ، ويوجد على يمين الداخل عمود يسامي ارتفاع برج صغير ، وفيه « الفيرونيكا » المقدسة التي إذا أريد عرضها فتحت فتحة فى سقف الكنيسة ودُلّى منها صندوق خشبي أو مَهْدٌ جلس فيه خوريّان ، فإذا نزلا رفع الصندوق أو المهد وأخرجا « الفيرونيكا » فى توقير عظيم وعرضاها على الناس الذين تحتشد زرافاتهم هناك فى ذلك اليوم الموعود ، وكثيراً ما يحدث أن تصبح حياة المصلين فى خطر لكثرتهم وشدة تزاحمهم .

وعلى مسافة أبعد قليلا يوجد عمودان كبيران قد أحيطا بالخشب يُرْبط إليهما من به مس من الشيطان ، وقد بشر سيدنا من هذين العمودين بين أهالى بيت المقدس ، وأمامهما الحبل الذى شنق به يهوذا نفسه ، وهو فى ثخانة ذراع الرجل أو أكثر ، كما يوجد فى المحراب الأعلى جسدا القديسين بطرس وبولس ، وفى يوم معين من أيام السنة يكون غفران الخطيئة والعقاب ، كما يوجد هنا أيضاً الكرسى الذى جلس عليه القديس بطرس ، والذى يجلس عليه البابا يوم انتخابه ، والواقع أنه من الخير أن ينظر الأغراب إلى هذا الكرسى بالتوقير لأنه ليس بالغنى ولا بالموقّر .

وبهذه الكنيسة كثير من المعابد ، ويقوم فى الجانب الآخر منها برج[١٩]

عال صنع من قطعة واحدة من الصخر أشبه بقطعة الماس المثلثة الجوانب قد رفعت على ثلاثة قوائم نحاسية ، ويعدُّ الكثيرون هذا البرج شيئاً مقدساً فتراهم يزحفون بين الأرض وقاعه ، وكان قد أقيم تمجيداً ليوليوس قيصر وخصص لدفنه ؛ وبأعلاه ثلاث تفاحات ذهبية كبيرة فيها تراب الإمبراطور يوليوس قيصر ، ولا شك فى أنه بناء فخم رائع التنظيم بالغ الغرابة وهو يسمى بمسلة قيصر ، قد نقش فى وسطه وأسفله بل وعلى أعلاه أيضاً بضع رسائل قديمة مكتوبة على الحجر ، وإن صعبت قراءتها الآن ، ولكنها تشير فى الواقع إلى أن جسد يوليوس قيصر مدفون هنا ، وحول هذا البرج كثير من العمائر التى آل معظمها إلى أطلال دائرة .

* * *

وسكان مدينة رومة قلة إن هم قيسوا إلى حجمها ، ويذهب الكثيرون للقول بأنه نظراً لتدهور المدينة وقلة عدد سكانها فإنه يخرج من بين أطلال المبانى الكبيرة ومن المخازن ومن الصهاريج والبيوت ومن الأقبية العميقة المهجورة الآن هواء سام يضر بالأجسام الآدمية ، ومن ثم يقال إن رومة مدينة غير صحية ، على حين أنها كانت عكس ذلك يوم كانت حافلة بالسكان ، بل إنه ليبدو ــ حتى اليوم ــ أنه حيث يزدحم السكان ينعم الناس بصحة أحسن كما هو الحال فى « كامبو دى فيارى » وهو حى كبير وكذلك « كامبى دوليو » ، وهو الآخر حىّ كبير أيضاً ، وفى « جليتو » التى هى أشبه ما تكون بقرية كبيرة ، أما بقية أنحاء المدينة فلا تضم سوى قليل من المنازل المبعثرة .

كانت كنيسة القديس يوحنا أول كنيسة أقيمت بين الشعوب اللاتينية ، ومن هذه الكنيسة يستمد الآباء المقدسون ألقابهم التى بها يصبحون مطارنة ،

وفى هذه الكنيسة وحولها أشياء فريدة تستحق المشاهدة ، فيقال إن هذه الكنيسة كانت البيت الذى احتفظت فيه رومة بثروتها ، وبها بوابة «تربيان» التى فتحها قيصر حينما استخرج الثروة - والتى ظلت حتى ذلك الوقت مغلقة ، ولما اعتنق الإمبراطور قسطنطين العقيدة الكاثوليكية وأعطى ممتلكات الإمبراطورية للكنيسة ومنحها إياها التمس من البابا سلفستر إصدار مرسوم بشأن هذه البوابة من أجل أرواح الذين يمرون بها باعتبارها كانت من قبل ملاذاً لمن يحتمى بها ، فإذا قدم هارب ما وبلغ بوابة تربيان لم يستطع أحد ما أخذه مهما بلغت جريمته وذلك تقديراً للكنز الموجود ، ورسم البابا فى البداية بجب خطيئة كل من يعبرها وإسقاط عقابها ، مما حمل البعض على تعمد ارتكاب الخطيئة على أن تغفر لهم بعد مرورهم من هذه البوابة ، ومن ثم أمر البابا بإغلاقها وأن تفتح مرة كل مائة سنة ، ثم خفضت المدة إلى نصف قرن من الزمان ، والآن فإن البابا راض بما رسم .

ويوجد بهذه الكنيسة رأسا القديسين بطرس وبولس ، وهما أثر عظيم جداً وآيتان لغفران الخطيئة ومحو العقاب حين عرضهما كما يحدث أثناء عرض فيرونكا فى كنيسة القديس بطرس .

وإلى جانب تلك الكنيسة يوجد مذبح صغير يسمونه «قدس الأقداس» به صورة للسيد المسيح تبدأ من الزنار إلى أعلى وهى منقوشة على حجر ، ويقال إن سيدتنا العذراء التمست من القديس لوقا - وكان رساماً قديراً - أن يرسم هذه الصورة بعد موت ابنها ، فقبل رجاءها ورسم الصورة التى هى فى الواقع عمل من أعظم الأعمال قداسة وأنسب ذكرى للمسيح الذى كان ولا تزال له القوة على جميع الأشياء ، والصورة تظهر بجلاء هيكله وعمره وشكله وكل ما كان عليه ، وعلى خده الأيسر خال هو رمز إنسانيته ، وهى أقدس شىء

وأعظم أثر فى رومة . ويحرس الصورة على الدوام ـ وساعة بعد ساعة ـ أربعة رجال مسلحون بصولجانات حديدية ، فإذا كان يوم معين من السنة وهو عيد العذراء فى منتصف أغسطس خرجوا بهذا الأثر المقدس محروساً برجال مدججين بالسلاح ، وحملوه وسط مظاهر الفرح وساروا به فى موكب إلى كنيسة القديسة ماريا الكبرى ، حيث يبقى طوال هذا اليوم وتلك الليلة ثم يعودون به فى اليوم التالى إلى موضعه الذى كان به ، وتغفر إذ ذاك خطايا جميع من يكونون حاضرين ، على أنه لا يسمح قط لأية إمرأة بدخول الكنيسة ، ويقولون إن السبب فى ذلك هو ماحدث ذات مرة من أن امرأة تحدثت بما جرى فانشطرت شطرين ، وعلى باب هذه الكنيسة ناقوسان يقال إنهما كانا أول ناقوسين صنعا فى العالم .

ويجرى انتخاب البابا فى كنيسة القديس يوحنا ، حيث تقسام مختلف الاحتفالات ، ويتسلم البابا التاج الثلاثى ، وتحفل الكنيسة بكثير من آثار القديسة هيلينا أم الإمبراطور قسطنطين التى بعث بها ابنهـا حينما كان فى الأرض المقدسة .

أما الكنيسة فكبيرة ولكنها ليست غنية ، وينقصها حسن البناء ، وتعوزها النظافة والزينة الجيدة ؛ على أنه يوجد خارجها ميدان كبير به كثير من المبانى والتذكارات القديمة ، ويقوم هنا تمثـــال « ماركوس »[٢٠] الذى كان سبباً فى رفع الحصار عن رومة ، والذى أراد أن يقتل الملك فقتل عشيقته ، فأدان نفسه وأمر بحرق ذراعه اليمنى ، ويُرَى ممتطياً جواداً كبيراً من النحاس المذهب ، ويدل كل من التمثال والحصان على أنهما من يد ماهر صناع فى حرفته ؛ ويوجد حول الميدان وعلى مقربة منه كثرة متنوعة من التماثيل

الحجرية والرخامية والأحجار التي نقشت عليها نقوش قديمة .

. . .

وعلى مقربة من الميدان يقوم «الكولوسيوم» الذي يقولون إنه لا يماثله بناء قط في العالم بأجمعه من حيث حجمه وعظمته ، وعلى الرغم من استحالة أكثره إلى أطلال إلا أن مابقي منه يشير إلى ما كان عليه من فخامة وروعة ، ويطول بنا الكلام لو أردنا الحديث عن الكيفية التي حافظ بها الرومان على «الكولوسيوم» وتوقيره وعن التمثال الذي كان عندهم هناك [٢١] ، فقد كان كبيرا جداً حتى إن قدميه كانتا على الأرض على حين تبلغ رأسه أقصى ذروة في السقف وترتفع ذراعه اليمنى ، على حين يمسك بيده تفاحة كبيرة ، وهي موجودة الآن على باب القديس يوحنا اللاتيران ، ومعنى هذا في زعمهم أن العالم بأجمعه في قبضته ، ومن هنا يقال إنه جاءت العادة بحمل تفاحة أمام الأباطرة ، ويضيفون إلى ذلك أن هذا التمثال كان محاطاً في وقت من الأوقات بتماثيل لجميع ملوك العالم وأمرائه ، وقد شدت رقبة كل واحد إلى قدم هذا التمثال الكبير بسلسلة ، فإذا عرف أن أحد الملوك أو الأمراء قام بالثورة ضد رومة كسر القوم تمثاله وصدرت الأوامر بإعلان الحرب عليه . ومهما تكن الحال فإن «الكولوسيوم» يدل على أنه كان في زمن من الأزمنة بناء رائعاً وفاخراً .

وتوجد على مقربة منه قصور أكتافيوس أوغسطوس [٢٢] التي يقال إنه بناها وحصنها لما قصه عليه أحد السبليين من سقوط تمثاله إن جاءت العذراء بولد ، وكان هذا ماحدث من انهيار قصره يوم مقدم سيدنا ومولده ، ويقال إنه في كل سنة حتى الآن يسقط جزء يوم مولد السيد المسيح ، وتوجد هنا ربوة كبيرة تشبه التل ، ويبدو جلياً أن هذه الربوة نتيجة سقوط بعض المباني البالغة الضخامة ، حيث يتسنى للمرء رؤية كثير من الرخام والأحجار الكبيرة

وغيرها من الأشياء التى تكشف النتائج عما كانت عليه ، ويوجد هنا أيضاً دير شهير لأتباع «القديس برنارد» يسمى بدير «سانتا ماريا نوفا» .

وبروما كنيسة يسمونها كنيسة « سنت كروس » المقدسية محفوظ بها اللوحة التى كانت مرفوعة على صليب سيدنا وعليها لقبه « عيسى الناصرى Jhs Nazarenus» » وجميع مافى هذه الكنيسة - من أرضها وجدرانها وكل شيء آخر - مصنوع من تراب جيء به فى السفن المرصف من بيت المقدس ، وذلك حين أرسلت القديسة هيلينا الآثار المقدسة إلى روما ، وهنا تتم المغفرة التامة للخطيئة ويسقط العقاب، وتوجد كنيسة تسمى كنيسة «القديسة مارية»[٢٣] كانت فيما سبق المكان الذى يعقد فيه الشعب الرومانى مجلسه ، وهى قائمة على أعمدة كبار تعلوها طبقة من الرصاص ، ويخصص يوم واحد فى السنة لمنح الغفران بها ، كما توجد كنيسة أخرى خاصة بطائفة معينة من الراهبات يوجد بها رأس القديس « يوحنا المعمدان » حيث يمنح الغفران فى يوم عيده ، ويجاوره عمود كبير مصنوع من حجر واحد أقيم تخليداً لذكرى الإمبراطور «تراجان» الذى جاء من قشتالة وكان من أهل « بدرازا » ، وهو الذى سنّ لروما قوانينها التى لازلنا ولازال الرومان يعملون بها حتى يومنا هذا ، سواء فى الحرب أو فى تصريف الأمور العامة ؛ ويوجد أيضاً ثلاثة أو أربعة أقواس ولعل الرومان أقاموا أكثرها تمجيداً لشرف المنتصرين منهم ، ومن بينها قوس[٢٤] رائع جداً عُمِل تعظيما ليوليوس قيصر .

وثمة كنيسة أخرى تدعى كنيسة «سانتا ماريا أرا كولى» تحتها حجرة كبيرة على شكل قبو كان الرومان يعقدون بها مجلسهم فى بعض الأحيان ، وجرى فيها اغتيال يوليوس قيصر على أيدى «كاسيوس» و«بروتوس»، ويتاخمها كنيسة

«سانتا ماريا ماجورى» حيث يمنح الغفران التام بها فى يوم معين من السنة؛ ويوجد عند الباب – فى الميدان الكبير – عمود من الرخام السماق يحل بمنعه عن التقدير ، وتحفل هذه الكنيسة أيضاً بكثير من الآثار المقدسة .

* * *

ويتصل بها كنيسة «القديس براسادا» التى يوجد بها نصف العمود الذى رفع عليه المسيح ، ومسجى بها أيضاً جثمان القديس «جيروم» الطوبانى الذى يمنح الغفران التام يوم الاحتفال بعيده ، أما الكنيسة التى حبس فيها القديس بطرس فتسمى بكنيسة « بطرس المصفد » حيث يمنح الغفران كذلك ، وخلف أسوارها تقوم الكنيسة التى أعدم [٢٥] فيها القديسان «بطرس وبولص» والتى يوجد بها بعض العيون ذات المياه الشافية ، وهنا أيضاً تتم نعمة الغفران التام ، ويجاورها دير القديس بولص ، وهو دير شهير جداً للاخوان المبشرين ، وفيه أيضاً يمنح الغفران .

* * *

وتتوفر بهذه المدينة أشياء أخرى كثيرة ومعابد ، ويتم بها الغفران ، كما توجد فيها مبان مدهشة يستغرق وصفها أمداً طويلا ، ولما كان الذين يقدمون لزيارة الأماكن المقدسة يمضون وقتهم فى الإعجاب بالمبانى القديمة والأطلال فقد أمر البابا جريجورى بتحطيمها أو تحطيم معظمها حتى لا يشغل الحجاج بالهم بها ، وحتى ينصرف اهتمامهم إلى الأماكن المقدسة وحدها ، ومع ذلك فإنه لم يستطع هدمها جميعاً ، إذ أن ما بقى منها ليظهر ما كانت عليه هذه الأشياء أو بعضها يوماً ما .

وهنا كان قبرا « رومولوس » و « ريموس » أول بناة روما ، كما نصب كذلك كثير من التماثيل للرجال والنساء تذكاراً خالداً لأعمالهم . وأما رومة

التي كانت رأس العالم وأصبحت الآن ذيله فلم تفقد شيئاً من شعائرها التي كانت لها يوم كان العالم بأجمعه يدين بالخضوع لها ، ولكن تعاسة أحوال المدينة اليوم تجعل من العار التكلم عنها ، ويقال إن الرومان — رغبة منهم في ألا يفقدوا مكانتهم كسادة للعالم وقت أن كانوا مسيطرين عليه — يقومون في يوم معين من السنة بتقديم احتجاج رسمي إلى البابا معلنين أنهم لازالوا مستعدين لإخضاع العالم كما كان الحال قديماً ، وأنهم لم يفقدوا حقوقهم وإنما جردهم البابا منها ، ويقومون بهذا الاحتجاج الرسمي يوم الثلاثاء القذر ، ولو شاء الله أن يكونوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم ولم يكونوا — كما يقول الإيطاليون عنهم — شعباً غير ذي قيمة لما مارسوا كل رذيلة ، ولما لعنهم الجميع .

ولم أجد في روما واحداً استطاع أن يكون قادراً على إنبائي بخبر تلك الأشياء القديمة التي كنت أستفسر عنها ، ولكنهم قادرون بلاشك على تزويدي تماماً بأماكن جميع الحانات وسواها من الأماكن ذات السمعة السيئة ، ويقال إن الناس لايتناولون أبداً غذاءهم في بيوتهم مهما كانت الظروف ، وهيهات أن يتأتى لأي معجزة أن تحملهم على ذلك ، وليس من شك في أن ملابسهم ومظاهرهم — داخل بيوتهم وخارجها — يكشف بجلاء عن حقيقتهم ، وينصب قولي هذا على أغلبهم ، إذ أنه لا جدال في أن بين هذه الكثرة جماعة من الصالحين ، ويقال أكثر من ذلك إن رومة تضم بين جوانبها من السكان رغم قلة عددهم أكثر مما يضمه أي بلد نصراني آخر في العالم ، غير أنه يوجد بعض نواح داخل أسوارها تبدو كأنها الغابات الكثيفة ، حتى ليقال إن الحيوانات المفترسة والأرانب والثعالب والذئاب والغزلان بل والقنافذ تعيش في الكهوف .

• • •

وبرومة لوحان يزعم القوم فيما يزعمون أنه حدث ذات مرة شجار بين

العامة والنبلاء ، طلب فيه الشعب معرفة السبب الذى يذهب من أجله النبلاء بالتقدمة دونه ، على حين أنهم جميعاً أبناء أب واحد هو آدم وأمهم بالتالى جميعاً حواء ، وقال العامة فى نقش نحتوه [٢٦]:

Cum Pater Adam nobis sit, mater Eva, Cur igitur non Sumus nobilitate Pares ?

« إذا كان آدم قد خلق من أجلنا ، فيا أمنا حواء لماذا نحن غير متساوين فى كرم الأصل ؟

وإذ ذاك أجابهم النبلاء : « كل الناس يفسدون بتصرفاتهم ، ويصبحون أقل درجة ، ولكن الفضيلة أرفع ، والأخلاق تطوّر إلى الارتقاء »

Degenerant omnes viciis, fuint que minores, exaltat Virtus, nobilitantque mores.

ومن ثم يقال إن للنبلاء سلطة شرعية تفوق سلطة العامة . أضف إلى ذلك أن هذا كان السبب الذى من أجله نص القانون على أنه لا يحق الرجل أو المرأة من الشعب أن يتولى منصب القنصلية ، وقد شُجب هذا القانون فيما بعد حين اقترح « سالوست » تعيين — جايوس ماريوس فى مجلس السينيت .

الفصل الرابع

زيارة بعض المدن الإيطالية . مقابلة
كونت أربينو رافنا والبندقية .
الاستعداد للرحلة

غادرت رومة و بلغت « فيتربو » ، وهى مدينة رائعة جداً حيث توجد بها حمامات ذات مياه ساخنة يقال إنها تشفى جميع العلل وتُذهب شتى الأمراض، كما يقولون إن البابا أنفذ أوامره بهدمها استجابةً لالتماس طبيبه الخاص ، ولا يعرف أحد الآن أىّ أنواع الأمراض تبرئه هذه المياه ، وإن ساد الاعتقاد أنها شفت فى فترة قصيرة — منذ إنشائها — مرض الاستسقاء ، كذلك يوجد فى « فيتربو » جثمان القديسة روزة المقدس .

تركنا فيتربو ومررنا بمدن « نارنى » و « تيرنى » و « سبوليتو » ، حتى أدركنا فى النهاية « بيروجا » الذائعة الصيت التى ولد بها القائد العظيم « بركيو »(٢٧) و « سفورزا » والد دوق ميلانو الحالى .

وهذا الإقليم بأجمعه آهل بالسكان ، حتى لتبدو المدن والبلاد والقلاع وكأنما قد اتصل بعضها بالبعض الآخر .

غادرت بيروجا إلى « أستيسى » التى وُلد بها القديسان فرنسيس وكلير ثم احتوت أرضها جثمانيهما ، وهى مدينة نابهة ، تضمّ بين جوانبها ثمانية أو عشرة أديرة للرجال والنساء من أتباع الطوباى المبارك فرنسيس ، ويقع الدير الرئيسى فى أكبر ميادينها ، ولما مضيت للنزول فيه وجدتُ به واحداً من

أتباع كردينال قشتالة الذى كان صديقاً حميماً لى فأقمت بالدير مستجماً ثلاثة أيام سويا ، والشائع أنّ جسد القديس فرنسيس مدفون فيها ببقعة ما يدلوّن الطالب عليها ، وإن كان الحق أنها غير معروفة على وجه التأكيد حتى ولا لمن بالدير ذاته ، ولا يعرفها حقاً سوى البابا الذى أفضى بسرها إلى أحد الكرادلة وإلى واحد من الإخوان الرهبان . وهذا الدير يبلغ من الروعة أقصاها ، ومن إبداع الصنعة منتهاها .

• • •

رحلت بعدئذ إلى « جوبيو » التابعة لكونت « أديبنو » من بيت ملاتستا[٢٨] ، بيد أنى صادفت فى الطريق عسكراً مدججاً بالسلاح قد أقامه كونت فرانشسكو الذى كان إذ ذاك قد شنّ حرباً على البابا واستولى على كثير من الأماكن ، فنصحنى البعض أن أرسل جيادى من « أسيسى » بصحبة رجل معروف هناك كان ماضياً لمقابلة الكونت ، وذكر لى هذا البعض أنه يرى الخير لى فى ذهابى مترجلا ، فامتثلت لمشورته ، وبعد مسيرة يومين ونصف يوم أدركت « جوبيو » ، وهى مدينة كبيرة تابعة للكونت الذى وجدته إذ ذاك ماضياً فى موكبه مترجلا لتحية كردينال كولونيا أخى زوجته وابن أخى البابا مارتن ، ثم أبصرته قادماً وقد أحاط به رجال الدين وهو يرتل معهم حيث قابلوا الكردينال وتلقوه لقاء كريماً ، فقدمت نفسى للكونت ورفعت إليه احتراماتى والتمست منه — محبةً فى الله — أن يمد يد المعونة لى ، فما أنا إلا رجل فقير قادم من روما وماض فى طريقه إلى بيت المقدس ، وكان رجالى قد تخلفوا عنى ، إذ كنت قد طلبت إليهم عدم مصاحبتى ، فانتحى بى الكونت جانباً وبادرنى قبل كل شىء بالسؤال من أين جئت ، فقلت « من أسبانيا » ، وحينذاك أخذ يستوضحنى عما إذا كنت عريق الأصل ، فقلت « أجل » ، فسألنى إن كنت فارساً فرددت عليه بالإيجاب ، وتطرق بعدئذ فرغب فى أن أخبره كيف جئت وعما أحتاجه ،

وأفضيت إليه بخبر مقدمى وحضورى سيراً على الأقدام ، وزدت فأثبت أنى فى غير حاجة إلى شىء ما لاستكمال رحلتى بسبب ما توفر لدىّ ، وذكرت له أنى ماجئت متنكراً على هذه الصورة إلا لرؤيته والتحدث إليه ، فعانقنى حينذاك وقال « سوف أبذل كل ما فى قدرتى لمساعدتك حتى ولو لم تقبل » ، إلا أننى أجبته بعدم قدرتى على قبول شىء ما أياً كانت الظروف طالما أن لدىّ كل ما أحتاجه ، ولأننى صممت على ذلك قبل مغادرتى وطنى ، ورغم هذا فقد استبقانى يومين للاستجمام والمتعة ، حتى إذا انقضى هذان اليومان بعث فى طلب أحد أتباعه وأمره بمرافقتى طوال تجوالى فى ولايته حتى أبلغ ميناء « ريمينى » التابعة له ، على أن تكون جميع مصاريف سفرتى هذه على نفقته فلما بلغت « ريمينى » وجدته قد هيأ لى مركباً وكل ما أحتاجه فى رحلتى إلى البندقية .

وعندما هممت بفراق الكونت أخذنى من يدى ومضى بى إلى حجرته ، وطلب إلىّ أن آخذ كل ما أنا فى حاجة إليه ، وأعطانى ثلاثة أزواج من كل من قمصانه وملابسه الصوفية ومناشفه ، وإن يكن قد أزعجه كل الانزعاج رفضى قبول أى شىء آخر غير ما أخذت ، ثم ودعنى وداعاً رقيقاً كما لو كنا نِدّين متساويين ، وألحّ على أن أذكره فى صلواتى ، وأن أعاود زيارته وأنا فى طريق أوبتى ، إلا أن الموت قد مد يده إلى هذا الكونت الطيب ، ويقال إنه مات ميتة كريمة جداً ورفع إلى مرتبة القديسين .

وتحفل « جيبيو » بكثير من المخلفات المقدسة التى من بينها أصبع يد يوحنا المعمدان اليمنى التى أشار بها حيث قال « هذا هو حمل الله » Ecce agnus Dei .

رحلت مع ذلك التابع وبلغت « أريينو » التابعة للكونت فلبثنا بها

يوماً واصلنا رحلةً استغرقت يومين بلغنا في نهايتهما مدينة «ريميني» الكبرى التابعة هي الأخرى للكونت ، وأقمت بها يومين ، جهز لي خلالها التابع قارباً شحنه بالزاد ، ودفع جميع نفقات السفرة حتى أبلغ البندقية ، فلما هممت بفراقه قال لي : « سيدي الفارس ، لقد أمرني مولاي الكونت بأن أعطيك مائة دوكات وها هي ذي الآن » ، فطلبت إليه أن يشكر الدوق شكراً عظيماً على شفقته وكرمه ، إذ لديّ من المال ما يكفي جميع حاجاتي ، وقلت له : « إن وجدت نفسي في ضائقة في طريق عودتي إلى وطني فإني لا بد ملتمس منه مساعدته إياي ، هذا إلى أن رجوعي قريب » ، ثم رجوته أن يقبّل لي يدى الكونت نيابة عني ؛ ومن ثم انطلق كل منا في سبيله .

ركبت سفينتي وأبحرنا ، فبلغنا في اليوم التالي مدينة رافنا الكبيرة الموغلة في القدم وإن تكن غير زاخرة بالسكان ، وصادفتنا ريح رخاء ، حتى إذا كان وقت المغرب أدركنا البندقية فتلقاني أصدقائي التجار لقاء طيباً ، ووجدت الأموال التي تركتها عند مغادرتي إياها في يد أمينة ، فأقمت في بيت صديقي « كارلوموروسينو » ثلاثين يوماً أو أكثر ، حتى جاء يوم الصعود الذي يقع في شهر مايو الذي يؤذن فيه للسفن — لا سيما سفن الحجاج — بالإقلاع[٩] ؛ وقد اتفقت أثناء إقامتي هذه مع قائد السفينة — كما جرت العادة — على تكاليف رحلتي وتعويني بذخيرة من المأكولات المحفوظة لوجبات الإفطار والغذاء والعشاء ، وكذلك أجر السفر ذهاباً وإياباً ، فكان خمسة وثلاثين دوكاتاً عن كل شخص ، ولما كنت قد فكرت في الإقامة بالقدس فقد دفعت عن نفسي وعن تابعيّ الاثنين مبلغ ستين دوكاً أي عشرين دوكاً عن كل واحد منا .

ولقد أمضيت بالبندقية فترة من الزمن حلوة مريحة ، لم أتكلف فيها من النفقة غير شيء زهيد ، وكنت أخرج كل يوم لمشاهدة كثير من الأشياء الرائعة البهجة ، وتأتى الأخبار كل ساعة من جميع أقطار الدنيا لشدة نشاط حركة الملاحة ، كما تصل السفن باستمرار من شتى النواحى مما يقتضى المرء الاستفسار عن السفن إن هو شاء التماس نبأ ما من أى مكان .

الفصل الخامس

زارا . راجوزا . كورفو . خليج كورنثة
دير إغريق . ميدونا . كريت . رودس
الاسبتارية . الوصول إلى يافا

رحلنا يوم عيد الصعود بعد تناول البركة وأبحرنا ظهراً واتخذنا جانب الخليج الأيسر لأخذ المؤنة، ميممين وجهنا شطر إسكلافونيا [دلماشيا] ، والجانب الأعظم منها بندق ، وتتناثر على طول الساحل كثير من المرافىء الأمينة والجزر والموانى ، فلما كان اليوم الثانى بلغنا بلدة تدعى « بارنزو » حيث ركبنا البحر منها إلى مدينة « زارا » التابعة للبنادقة ، ثم وصلنا إلى « راجوزة » الداخلة ضمن أملاك الإمبراطور ، وظللنا طول هذا الوقت نمر بجزائر تابعة لإسكلافونيا ، بعضها آهل بالسكان والبعض الآخر مقفر ، والإقليم جبلى قحل ، وأهله أطول من رأيت قامة ولكن ما أعظم همجيتهم، وتربى فى هذه النواحى أحسن أنواع البزاة فى العالم باستثناء البزاة النرويجية ، ويقال إن الفضة موجودة فى أماكن كثيرة بها .

تابعنا رحلتنا على طول الخليج مارين بمدينة « فالونا » الكبيرة التى سقطت حديثاً فى أيدى الترك ، فلما غادرنا إسكلافونيا أبحرنا مصاقبين لألبانيا وهى جزء من نفس هـــذا الساحل ، وتركنا إيطاليا ورأس « سبارتيفنتو » على يميننا .

ويمتد خليج البندقية مسافة ثمانمائة ميل بين إيطاليا وإسكلافونيا ،

وتقع فى نهايته جزيرة « كورفو » التى يسميها البنادقة ببابهم ، رغم أن البندقية تبعد عنها فى الواقع بثمانمائة ميل ، ويوجد على اليد اليمنى ذلك الجانب من إيطاليا المسمى « بأبوليا » وأرض « لافورو » ، أما على اليسار فتقع إسكلافونيا التى كانت تعرف قديماً بدلماشيا وكذلك جزء كبير من ألبانيا :

ويسكن الإغريق جزيرة كورفو التى استولى عليها منذ أمد قريب لاديسلاوس ملك نابلى[٣٠]، وكان أخذه إياها بنية الاستيلاء على بيت المقدس التى يسمى نفسه بملكها ، ويقال إن حاجته إلى المال فيما بعد حملته على بيع الجزيرة إلى البنادقة الذين آلت ملكيتها إليهم الآن ، وقد بقينا بها يومين فى انتظار ريح مواتية ، فلما كان اليوم الثالث أقلعنا مبحرين إلى « مُودُنْ » ببلاد اليونان ، وقد مررنا هذا اليوم بخليج « بتراس » على شمالنا وتمتعنا متعة كبيرة بمنظره ، وتقع هنا مدينة « كورنثة » ، وهى مدينة قديمة جداً وذات أبنية رائعة، ولكنها الآن قليلة السكان قلةً بالغة ، ويدخل هذا الخليج الأرض ويكوّن بالتقائه بالخليج الآخر الذى يدخل من الناحية الأخرى : شبه جزيرة المورة، التى كانت تسمى فى الأزمنة السحيقة « بآخيا » ، ويحكمها إمبراطور القسطنطينية، وهى إرث للابن الأكبر الذى يسمونه بطاغية المورة، ويتوغل هذان الخليجان توغلا كبيراً فى الداخل حتى ليقال إن المسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز ميلين ، وقد حدث ذات مرة أن أراد أحد أباطرة القسطنطينية أن يحيل شبه الجزيرة إلى جزيرة لكنه رجع عن فكرته امتثالا لرأى مشيريه واستجابة لنصيحتهم ، إلا أنه أحاطها بسور شديد المنعة لا يزال يُرى حتى اليوم .

فلما كان اليوم الرابع أصبحنا مواجهين لمدينة « مودون » ، وقبل

وصولنا إياها بستة أميال مررنا بجزيرة صغيرة يقوم بها دير شهير لإخوة « سنت باسيل » اليونانى الذين يسميهم اللاتين بالرهبان .

ولما كانت الريح قد هدأت وكفت عن الهبوب فقد رغبت فى رؤية الدير ، فسألت ربّان السفينة أن ينزلنى إلى الشاطىء ، وحملت معى بعض السمك ، إذ لا تسمح نظم هؤلاء الرهبان لهم مطلقاً بأكل اللحوم ، فتلقونا بالفرح العظيم ، وأطلعونا على ديرهم ثم ما لبثنا أن رحلنا ، وقد أخبرنا سكان الجزيرة أن الرهبان يعيشون عيشة بالغة القداسة ، ويسمى الدير بدير « ستانفان »[٣١] .

وصلنا هذا اليوم إلى « مودون »[٣٢] الواقعة بين هذه الجزيرة وجزيرة « سابينزا » ، فأرسينا بها لتموّن السفينة ولتمكن ربانها وركابها من إنجاز بعض الأعمال الخاصة بهم هناك لأنهم كانوا بنادقة والمكان تابع للبندقية ، ويبلغ عدد سكانها ألفى نسمة ، ويكتنفها البحر من جانبيها ، وهى حسنة القسور منيعة التحصين ولكنها منبسطة الأديم ، وأبصرت بها كثيراً من البساتين الحافلة بمختلف أنواع الفاكهة ، وأرضها شديدة الخصب تشبه فى ذلك أرض الأندلس ، والسكن بها طيب ، ولغة سكانها اليونانية وإن حكمتها البندقية . وعلى بعد ستة أميال منها مدينة « كورون » التى تقع فى الخليج الآخر الذى تكلمت عنه وهى مدينة كبيرة وقلعة حصينة ، واليونانية هى لغة الحديث هنا أيضاً ، وإن شابهت مودون فى أنها تحت سيادة البندقية ، ويمتلك البنادقة هذه الأملاك فى شبه جزيرة المورة لأنها مراكز حيوية لتجارتهم ، والقوم هنا أثرياء جداً لأن هذه الأماكن هى موانىء يفرغ فيها جميع ضروب تجارة اليونان والبحر الأسود ، فبقينا بها ستة أيام ، ثم أبحرنا

شطر « كانديا » التي كانت تسمى قديما « بكريتا » حيث حكمها ذات مرة الملك « أجاممنون » الذي قاد الإغريق ضد أهل تروجان .

وقد تركنا بحر الأرخبيل على يسارنا ، وهو ملىء بالجزر التي يزدحم بعضها بالسكان على حين يقفر منهم البعض الآخر ، ورأيت من بينها جزيرة « سيتيرا » المسماة عند اليونان « بستريل » ، حيث أمسك « باريس » هنا « بهيلين » وحملها إلى طروادة ، كما أبصرت كذلك صخرة قوية ناعمة الملمس شديدة الارتفاع ، يتوسطها كهف ارتفاعه مائتا قامة(٣٣) وعمقه أكثر من ذلك .

والمسافة من « مودون » إلى جزيرة « كريت » ثلاثمائة وخمسون ميلا اجتزناها فى مدى يومين وليلتين وصلنا بعدهما إلى ميناء « كانديا » ، ولما كان لاتين كريت لا يعرفون سوى مدينة كانديا فإنهم يطلقون هذا الإسم على كل المملكة ، والجزيرة شديدة الخصب عامرة بالمدن الرائعة والقلاع الحصينة(٣٤) .

ولسان أهلها اليونانية ، والحكومة تابعة للبندقية التي ترسل كل سنة دوقا لحكمها ، وقد ثار أهل الجزيرةمنذ أمد غير بعيد ضد البنادقةالذين أرسلوا قوة عادت لاحتلال المكان ، وصدر قرار بتحديد بقعة معينة من الجزيرة يمنع زراعة أى شىء فيها كما يمنع بها تكاثر الماشية، ويستهدف هذا القرار الحد من الرخاء الذى يتمتع به أهلها لتوفر كل شىء لديهم .

ومدينة « كانديا » كبيرة جداً تحفل بالمبانى الضخمة الكثيرة ، ويقال إنه يوجد على بعد ثلاثة أميال منها قصر التيه الذى شيده « ديدالس » بالإضافة إلى كثير من الآثار القديمة الأخرى ، والمدينة حسنة البناء زاخرة بالبساتين

الجبلة والمياه الوفيرة ، أما الميناء فمشهور وله حاجز صناعى رائع لصد الأمواج ، كما تكثر بها الطواحين الهوائية ، وتطير فوق الجزيرة — فى فترة معينة من السنة — أسراب كثيرة جداً من الشواهين قل أن تجد لكثرتها شارياً لها ، وقد بقينا هنا ثلاثة أيام ثم أبحرنا إلى « رودس » تاركين بحر الأرخبيل والجزائر المتعددة على يسارنا، والمسافة من « كانديا » إلى رودس تقدر بثلاثمائة ميل ، فلما كان اليوم الثالث بلغنا الجزيرة ووجدنا هناك بعض الأغربة والسفن التابعة للملك أراجون ، غير أننا سلحنا أنفسنا ورفعنا راياتنا المثلثة الصغيرة التى عليها صورة بيت المقدس ، فلما شاهدها القوم تركونا فى الحال وأبحروا .

ومدينة « رودس » منبسطة الأديم ولكنها محصنة بخندق وسور ، ويوجد على أحد جوانبها مكان منفصل يقيم فيه فرسان بيت المقدس المعروفون « بالاسبتارية »[٣٥] ويسمى « كولاكيم » ، وفيه البيمارستان الذين اشتقوا اسمهم منه ، وهو من أفخم بيوت العبادة التى تسنى لى رؤيتها ، والواقع أنه لا يمكن أن يبزه بناء من حيث روعة العمارة أو الزينة أو كثرة المئونة ، ويستقبل الفرسان أى عليل يطرق بابهم ، ومن وافته منيته من نزلائه المرضى جُبَّت خطيئته وبرىء من عقابه ، بل إن أولئك الأشخاص الذين يزورون المستشفى ينعمون بغفرانات معينة ، ويقع هذا البيمارستان على يسار الداخل إلى « الكولاكيم » ، وقد بناه دوق « أنطوان دى فلوفيان » كبير فرسان الاسبتارية ، الكتلانى المولد .

وقد رحلنا من هناك لمشاهدة المدينة واجتزنا كثيراً من الشوارع وبيوت الفرسان ، من بينها بعض نزل وخانات يتناول فيها الأجانب طعامهم وتتم فيها مقابلاتهم ، ولكل أمة مكانها المستقل عن الأمم الأخرى ، ويشرف على رعاية كل بيت من هذه البيوت فارس يوكل إليه أمر تأدية ما يحتاجه نازلوها

حسب ملتهم ، ويوجد عند نهاية مسكن الفرسان — وعلى اليد اليسرى — كنيسة القديس يوحنا التى يدعون إليها دائماً لأداء صلاتهم وعقد مجالسهم ، وتزخر هذه الكنيسة بكثير من المخلفات المقدسة ، ومن بينها — كما يقولون — الوعاء الذى غسل فيه المسيح يديه وجزء كبير من النقود التى بيع بها ، وكذلك بعض الشوك الذى توج به ، ومسمار من الصليب الذى رفع عليه ، وغير ذلك الشىء الكثير ، فإذا جاء الفرسان لانتخاب كبيرهم أقسموا على هذه الآثار المقدسة قاطعين العهد على أنفسهم بأنهم سينهجون الحقّ متخذين الحيدة شعارهم فى اختيار أجدر القوم بتولى هذا المنصب ؛ ويوجد أمام هذه الكنيسة البيت الذى يقيم به كبير فرسان الاسبتارية وهو مسكن عادى بسيط ، ويقوم بخدمة هذا السيد إثنا عشر فارساً يسمون « بالرفاق » يتشاورون معه ويأكلون دائماً على مائدته .

ويقوم الفرسان فى كل يوم من أيام السنة بإطعام إثنى عشر من الفقراء وخدمتهم بأيديهم ، لا يمنعهم من ذلك إلا انشغالهم بالمرضى أو تغيبهم عن الناحية .

ويوجد خان آخر لاستقبال حجاج بيت المقدس الذين ينزل كل واحد منهم الرواق الخاص بوطنه ، فيجد كل شىء حاضراً ومجهزاً له إلاّ الطعام ، كما توجد كنيسة أخرى بها بعض القسس الذين يتمثل عملهم فى تلاوة القداس للحجاج ، وهدفهم من هذا كله إبعادهم عن الفنادق العامة ، ويقوم الفرسان بزيارتهم ، أما من أراد استصحاب ضيف معه فيجوز له ذلك بإذن من كبير الفرسان الذى يعرف بالمارشال .

ويتوفر بجزيرة رودس الطعام والنبيذ ، كما أنها تحفل بالبساتين التى خصص الجانب الأكبر منها لمائدة كبيرهم الأخ الأعظم يوزعها بين من معه من إخوانه

الإثنى عشر ، ويوجد فى الجزيرة أيضاً قلعة يسمونها قلعة « يوديجو » ، ويمكن أن يقال الكثير عن هذه الثلة الطيبة من الفرسان ، ولكنى أتركهم الآن لأتحدث عن أشياء أخرى .

* * *

رحلنا عن رودس وصرنا « بقشتيل الروج(٣٦) » وهى جزيرة مواجهة لساحل أرمينيا ، كما أنه قلعة حصينة جداً تابعة للفرسان ، واتخذنا الطريق إلى قبرص محاذين شاطىء تركيا حيث يسكن كبار السادة الأتراك وكذلك الكرمان ، ولورد كانديلور ولورد ستاليا وسواهم من الحكام الأقوياء ، وهناك أخذونا إلى مدينة يقال إنها خربت من جراء خطيئة اللواط ، ثم أبحرنا لمدة ثلاثة أيام على طول ساحل خليج « ستاليا » حتى وصلنا إلى جزيرة قبرص مارين بمدينة إسمها « ألباف » ، غدت الآن مقفرة من السكان لفساد هوائها ورداءة مائها ، ولما لم تجر عادة حجاج بيت المقدس بالنزول فى الجزيرة فى رحلتهم الخارجية فلست بمستطيع فى هذا المكان أن أقص عليك أكثر من هذا بشأنها ولكنى سأتكلم عنها فيما بعد . وهكذا تابعنا رحلتنا إلى يافا —ميناء بيت المقدس— والمسافة بينهما تقدر بثلاثمائة وخمسين ميلا، وظللنا مبحرين ثلاثة أيام بلياليها ، حتى إذا كان اليوم الرابع بلغنا شاطىء الأرض المقدسة ، ولكن لما كان معظم القطر شديد الانبساط فإنه لا يستطاع رؤية مدخل يافا .

الفصل السادس

الرسو بيافا . بيت المقدس . القبر المقدس . بيت لحم
أريحا . الأردن . البحر الميت . الحكم
والتنفيذ . مسجد الصخرة

لا تكاد سفينة الحجاج تصل إلى يافا حتى يُفضى بخبرها فى الحال تقريباً لقيم جبل صهيون الذى يرسل اثنين أو ثلاثة من الإخوان إلى والى القدس الذى يعود ومعه صك[٣٧] أمان من السلطان ، وإذ ذاك يؤذن للحجاج بالنزول إلى الشاطىء بعد كتابة أسمائهم وإرسال صورة منها إلى الوالى ، على حين يحتفظون بنسخة ثانية منها ، وبذلك يأمنون جانبهم ، أو أى مكيدة قد يدبرونها ، وحينما تطأ قدما الحاج الأرض يتلقاه جماعة من المسلمين بحميرهم التى يظل الحجاج يركبونها طوال فترة مكثهم فى الأرض المقدسة ، ويقدر ثمن استئجار الدابة بدوكين لا يزيدان أو ينقصان .

ويمضى الوالى والإخوان الرهبان مع الحجاج إلى « رامة[٣٨] » وهى مكان كبير يبعد عن يافا خمسة فراسخ حيث كان دوق جودفرى[٣٩] دى بويون قد أقام فيها خاناً للحجاج حين استيلائه على القبر المقدس ، وهو مجهز أحسن تجهيز وحافل بالغرف التى جعل بعضها للرجال وخصصوا البعض الآخر منها للنساء ، ومن ثم بقينا به يوماً واحداً ، حتى إذا انبلج صباح اليوم الثانى سافرنا مسافة ميلين إلى دير « القديس جورج » الذى يقال إن جثمانه به والذى يؤمن الناس بقتله التنين هنا ، على حين يقول البعض الآخر إنه قتله فى بيروت التى هى ميناء دمشق .

وبعد أن نمنا تلك الليلة فى مكان يبعد عن هذه الناحية بخمسة فراسخ ويتاخم قلعة تعرف بقلعة عاموص[٤٠] ، غادرناه فى اليوم التالى مبكرين وقطعنا خمسة فراسخ أخرى إلى مدينة القدس التى طالعناها على بعد أربعة فراسخ تقريباً ، حيث استطعنا أن نرى عدداً من المبانى وكذلك جبل صهيون وقلعة الملك داود والقبر المقدس وهو كنيسة مرتفعة جداً .

حينما دخلنا بيت المقدس خرج لاستقبالنا مسيحيوها من اليونان وغيرهم من الشعوب الأخرى ، وأخذونا إلى ميدان كبير أمام القبر المقدس أدينا فيه الصلاة ، ولكنهم لم يسمحوا لنا بدخول الضريح ذاته ، ثم مضوا بنا إلى خان يشبه ذلك الخان الذى أسسه « دوق جودفرى دى بويون » ألفينا فيه وفرة كثيرة من الطعام الذى يهيئه اليونان ويتفننون فى طهيه بشتى الطرق ويبيعونه للنصارى .

لم نلبث إلا قليلا حتى أقبل قيم جبل صهيون مع إخوانه الرهبان مستصحبين معهم عشرة أو إثنى عشر فارساً ممن يعيشون فى الدير ، فأقمنا حيث نحن فى غاية الراحة ثم ترك لنا القيم اثنين من الإخوان عهد إليهما بملازمتنا منذ ذلك اليوم ليمكنانا من مشاهدة ما ببيت المقدس وضواحيه من المناظر . ويقع دير جبل صهيون هذا على أعلى بقعة بأحد جانبى المدينة ، وبه كثير من الأماكن التى أظهر فيها سيدنا المسيح معجزات كبرى ، كما يوجد أيضاً برج شاهق فى القبو الذى ظهر فيه سيدنا على صورة ألسنة من النيران لتلاميذه حينما كانوا مجتمعين هناك ، وكان هذا عيد العنصرة ، ويستطيع المرء أن يشاهد من هذا المكان بحر « سدوم وعمورية » المسمى بالبحر الميت الذى كان مكانه من قبل خمس مدن ؛ وتقوم أسفل هذا البرج

الكنيسة التى تجلى فيها سيدنا للقديس توما الرسول وطلب إليه أن يضع يده فى جانبه[٤١] ، كما جرت فى هذا المكان أحداث أخرى عديدة ، ويقوم عند المدخل فى وسط أحد الشوارع « بيت العذراء مارى » ، وإلى جواره — خلف الدير — يوجد المكان الذى تناول فيه سيدنا العشاء الأخير مع حوارييه .

بقينا يومنا هذا حيث كنا ، فلما كانت الغداة سمعنا القداس فى القبر المقدس الذى يفتح مرة واحدة فى السنة ، وهناك أخذوا فى عدّنا وفق القائمة التى دونوها فى يافا ، فدفع كل حاج سبعة دوكات ونصف ، بالإضافة إلى الدوكين اللذين استأجر بهما الدواب ، كما دفع فى الأماكن المقدسة مقداراً معيناً من عملة صغيرة تساوى كل إحدى عشرة قطعة منها دوكا واحداً ، وبذلك يكون كل حاج قد دفع إثنى عشر دوكا ونصفاً : مكس دخول .

وبينما نحن نتأهب لدخول القبر المقدس خرج لملاقاتنا موكب من جميع أولئك المسيحيين الذين كانوا مقيمين هناك منذ السنة الماضية[٤٢] ، وأعنى بهم الكاثوليك (وهم ثلاثة من الإخوان الفرنسيسكان) واليونان والمسيحيين اليعاقبة والأرمن وأهل سنتوريا والهند والأقباط — وهم ينتمون إلى سبع أمم مختلفة من النصارى .

• • •

انضممنا إلى الموكب وذهبنا إلى القبر المقدس ، وهو كنيسة ضخمة شاهقة الارتفاع بها فتحة كبيرة ينفذ منها الضوء ، وبداخلها كنيسة أخرى أصغر منها حجما وبها القبر المقدس ذاته ، ولكنه شديد الصغر حتى

أنه ليس به مكان لواقف سوى القسيس الذى يرتل القداس والخادم ، فلما فرغنا من أداء الصلاة به ذهبنا صحبة الموكب إلى جبل «الجلجلة» حيث صلب سيدنا ، ويقع على بعد اثنتى عشرة أو خمس عشرة خطوة من هذا المكان ، وهو صخرة كبيرة تقوم عليها كنيسة محلاة بالفسيفساء ، ولا يزال يرى الثقب الذى وضع فيه الصليب وكذلك الثقوب التى وضع فيها صليبا اللصين .

ولما فرغنا من الصلاة به نزلنا إلى البقعة التى مُسح فيها المسيح بالزيت ، ومن ثم إلى الحجرة التى حبس فيها قبل صلبه .

وشاهدنا بعدئذ المكان الذى عثرت فيه القديسة هيلانة على الصليب وكذلك الناصية التى أشار إليها سيدنا بأنها مركز الدنيا ، ويتصل بها سكن الإخوان الرهبان ، حيث تحفظ الآثار المقدسة ، والذى ظهر فيه سيدنا للقديسة مريم على شكل بستانى ، وتقوم عند المدخل قاعة كبيرة تتدلى فيها راياتٌ وأعلامُ كثيرٍ من الملوك والأمراء المسيحيين ، ويضع الفرسان هنا أسلحتهم ، ويرى المرء كل هذه الأشياء وأكثر منها فى طريقه من هذه المقبرة وكذلك الآثار المقدسة ، ولكل شعب من هذه الشعوب النصرانية المشار إليها كنيسة خاصة به .

تركنا الموكب وسمعنا القداس ثم تناولنا غذاءنا الذى أعده اليونان لنا إعداداً جيداً لقاء ما دفعناه لهم .

وأذِن فى هذا اليوم للمسلمين والنصارى أن يعرضوا علينا بضائعهم لنشترى منها ما نريد ، وأقمنا يوماً وليلة نستمع إلى التراتيل والخدمة الدينية : كل وفق طريقة بلده .

ويوجد هنا قبر «جودفرى دى بوبون» ، وقد علته قبرية ذات نقش[٤٣] حفرت على حجر ، وإلى جواره قبر أخيه «بلدوين» وقد صيغ على ذات الصورة وعليه نقش آخر .

فلما كان اليوم التالى ـ وقد فرغنا من سماع القداس ـ فتحوا لنا الأبواب وأذنوا لنا بالخروج بعد أن أحصونا وأرسلونا إلى فندقنا ، ورأينا هذا اليوم الجبّانة ووادى « جيبوشابات » حيث يقوم قبر العذراء مارى ، وهو قبو تحت الأرض ينزل إليه المرء بخمس عشرة أو عشرين درجاً ، ويقوم بحراسته الفرنسيسكان ، فدفعنا هنا مبلغاً معيناً من النقود ، ثم مضينا منه إلى المكان الذى أخذوا به سيدنا فى الحديقة ، وانثنينا بعدئذ إلى جبل الزيتون حيث صعد المسيح إلى السماء ، وتوجد هنا كنيسة شهيرة تضم صخرة قد انطبع عليها أثر قدمه .

كذلك رأينا المكان الذى اجتمع فيه تلاميذه واتفقوا فيه على « مبادىء العقيدة » ، ومضينا منه إلى البقعة التى هتف فيها المسيح « أبانا الذى فى السموات » ، وتجاور هذه البقعة الشجرة القديمة التى شنق يهوذا نفسه إليها .

وفى أثناء عودتنا إلى بيت المقدس اجتزنا بالمكان الذى ظل خشب الصليب محفوظاً فيه أمداً طويلا ، وعلى مقربة منه الموضع الذى رُجم فيه القديس « اسطفان » ، فدخلنا المدينة من « البوابة الذهبية » الملاصقة لمعبد سليمان ، ومررنا بالبِركة التى حرك الملاك مياهها وشفى بها المرضى ، ثم شاهدنا بيتى بلاطس وكافا حيث حوكم المسيح ، ولا زالوا حتى اليوم يهدمون الناس هنا ، كما رأينا الشارع المسمى « بطريق الآلام » حيث حمل

سيدنا الصليب على كتفيه ، وهو طريق مسقوف ، وتتجمع به اليـوم مياه الأمطار التي يخزنها الأهالى فى صهاريج للشرب منها ، لأن المدينة تعانى ندرة فى المياه .

وبتنا هذا اليوم فى نُزُلِنا .

* * *

حتى إذا كان اليوم التالى غادرنا بيت المقدس مبكِّرين فى صحبة الحاكم والإخوان الفرسان وقصدنا « بيت لحم[٤٤] » التي تبعد مسافة خمسة فراسخ عن بيت المقدس ، فأطلعونا فى الطريق على كنيسـة تشير إلى البقعة التي ظهرت فيها النجمة للملوك الثلاثة ، ثم سرنا فرسخاً بلغنا بعـده بيت النبي « إيليـا » ، حتى إذا كانت الظهيرة جئنا بيت لحم ، وهى بلدة صغيرة يسكنها قرابة خمسين نفساً ، وهنا نافسنا المسلمون فى إظهار توقيرهم لها ؛ ودخلنا الدير وهو دير شهير غنى حافل بالمبانى الجميلة ، ويعيش به على الدوام ستة من الإخوان ، فلما بلغهم خبرنا خرجوا فى موكب لملاقاتنا وانطلقوا بنا فى الحال إلى كنيسة تحت الأرض هى التي ولد بها سيدنا ، وإلى جوارها المزود ، كما يوجد عند مخرجها المكان الذى ختن به المسيح . ثم شاهدنا الأقبية التي كانت مدفناً للأبرياء ، وفى هذه الأقبية المكان الذى ترجم فيه القديس جيروم الإنجيل[٤٥] ، فأقمنا به يومنا هذا ودفعنا الأجر .

رحلنا فى الغد بعد سماعنا القداس ميممين شطر البقعة التي وُلِد بها القديس يوحنا المعمدان وهى على بعد خمسة فراسخ ، وقد عاش بها القديس « زكريا » وكتب هنا مزموره[٤٦] Bene dictus Dominus Deus Israel ، ويحفل هذا المكان بكثير من الأشياء المقدسة

* * *

أقمنا فى بيت لحم طول هذا اليوم ، ثم عدنا غداته إلى بيت المقدس الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ فوصلناها مبكرين، وقضينا هذا اليوم فى زيارة بعض الأحرام المقدسة بالقدس ، وهى بيت القديسة « أنا » والبيت الذى أنكر فيه القديس بطرس سيدنا (ويوجد هنا أيضاً الحجر الذى سد به القبر) وبيتا القديسين : جيمس الصغير والكبير، وقبر أبسالوم الواقع خارج المدينة ، ويقال إنه حدث فى الأيام الأخيرة القليلة أنه بينما كان بعض المسلمين ينقبون عن كنز هنالك إذ دوت صرخة أخرجهم القوم على أثرها أمواتاً .

كذلك رأينا نبع ماء يقولون إن تفجيره كان على يدى المسيح وأمه العذراء ، كما شاهدنا المكان الذى تعثر به سيدنا وهو حاملٌ الصليب ، ورأينا قلاع الملك داود والناحية التى غسل فيها المسيح أقدام تلاميذه ، وغير ذلك من الأماكن الأخرى المقدسة الكثيرة .

إسترحنا يوماً ثم انطلقنا مبكرين من بيت المقدس مع الحاكم والإخوان الرهبان ، وتناولنا غذاءنا على مسافة فرسخين من هنا عند القلعة والمكان المسمى « مادالون » الذى كان إرث مريم الجدلية ، ويشتمل على كنيسة ذائعة الصيت ، والمكان الذى أقام سيدنا فيه « لعازر » من بين الموتى وغير ذلك من المواقع المقدسة ودفعنا هنا رسوماً .

فلما كان المساء رحلنا وجئنا إلى مكان تابع «لمارتا» أخت مريم الجدلية ، ونمنا تلك الليلة فى بيت بالجبل الذى أبرأ فيه سيدنا المرضى الذين جاءوه بهم ، وذهبنا فى الصباح التالى إلى « أريحا » التى تبعد خمسة عشر فرسخاً من بيت المقدس ، ويوجد هنا واد كبير وسهل فسيح يشقه نهر الأردن ويمضى إلى المكان الذى عمد سيدنا فيه القديس يوحنا المعمدان ثم تعمّد عنده على يديه ،

حيث يقوم فى الماء حجر يشير إلى بقعة التعميد ، فاغتسلنا جميعاً هنا ، ولكن غرق أحد رفاقنا وكان ألمانياً . وهذا المكان أعظم الأماكن طهارة .

كان على الحجاج أن يعودوا تلك الليلة ليناموا فى أريحا وليذهبوا غداً إلى Quarantana حيث صام سيدنا ، إلا أنى اتفقت مع رجل مسلم على أن يأخذنى إلى صحراء العرب الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ حيث بشّر القديس يوحنا ، وحيث لجأ للعيش بها أول ناسك وهو القديس أنطونيوس وغيره من الآباء الطوبانيين ، ثم عدت من هناك عن طريق البحر الميت حيث كانت « سدوم وعمورة » وثلاث مدن أخرى ، أى حيث كانت خمس مدن دمرت عن آخرها من جراء خطيئة اللواط .

والماء هنا كريه تعافه النفس حتى ليعجز المرء عن وصفه ، ويقولون إن السمك لا يستطيع الحياة به ، وأن الطيور لا تطرق هذا المكان .

وقد أفضى إلىّ المسلم الذى سافر معى بعجيبة كبيرة هى أن نهر الأردن يدخل البحيرة ويخرج من الناحية الأخرى دون أن يمتزج بالمياه الآسنة بصورة تجعل المرء قادراً على الشرب — وهو فى وسط البحيرة — من مائه العذب ، وكل مايقال عن هذا الوادى هو وجود أشجار معينة طويلة شديدة الاستقامة محملة بفواكه كثيرة تشبه الليمون ، فإذا مسها أحد ما بأصابعه ولو مسًّا رقيقاً هيّناً تفتّقت وانبعث منها دخان ، وظلت الرائحة الكريهة عالقة باليد طوال اليوم[٤٧] .

عدت فى اليوم التالى إلى أريحا[٤٨] حيث تناولت غذائى بها ، وهى قرية تسكنها مائة نسمة ، وجمعت منها بعضاً من تلك الورود النافعة للنساء وقت الحمل ، وشاهدت كثيراً من الأماكن المرتبطة بسيدنا ، ويوجد عند قمة ذلك النهر ولاية « بيثانيا » شرق الأردن ، ونمت تلك الليلة عند الجبل الذى صام عنده

سيدنا حيث انضممت ثانية إلى الحجاج ، وهذا الجبل شاهق الارتفاع ، تتوسّطه بعض كنائس صغيرة ، وبه طريق للصعود شقته القديسة هيلانة تعظيما لهذا المكان، وبينما نحن صاعدون إذا بسيد فرنسي قد زلّت قدمه ـ وهو ذاهب لمعاونة إحدى السيدات ـ فسقط من الجبل وتناثر قطعاً على الصخور التي بسفحه لأن المكان شديد الخطورة في تسلقه؛ ثم انحدرنا واتخذنا طريقاً آخر أسهل من الأول أدى بنا إلى نفس القمة التي حاول الشيطان عندها غواية سيدنا وتجربته ، ثم عدنا بعدئذ حتى بلغنا عين ماء قدم إليها أناس من أريحا يحملون طعاماً ليبيعوه لنا ، فبقينا هناك تلك الليلة ، حتى إذا تبلّج الصباح أخذنا جثمان ذلك السيد(٤٩) وحملناه إلى البيت المشار إليه بالجبل ودفناه ، ثم بقينا هناك بقية هذا اليوم .

* * *

عدنا صبح اليوم التالي إلى قلعة « مدالون » وإن يكن الحاكم قد تخلف عنا لذهابه إلى الصيد ، غير أنه عَهِد بنا إلى واحد من فرسانه سار في صحبتنا إلى الكنيسة التي قام فيها « لعازرْ » من بين الموتى ، فلما بلغناها طلب منا القيّم عليها أداء الضريبة ، لكن المسلم الذي كان معنا أبى دفعها إليه محتجاً بأن ذلك على غير ما جرت به العادة ، واشتد العراك بينهما اشتداداً عنيفاً حتى لقد استل القيم ورجاله السلاح ضد الفارس الذي عهدوا إليه بحمايتنا وجرحوه ، فنهضنا لنجدته وهاجمنا الآخرين وجرحنا كثيراً من المسلمين ، وانتهى الأمر بأن قبضنا على الحارس ورجاله وحملناهم أمام الوالي الذي كان قد اقترب منا إذ ذاك ، وراح يستقصي جلية الأمر ، فلما أدركه أصدر حكم الإعدام على الحارس الذي قطعت رأسه بلا معارضة ، أما بقية الأسرى الآخرين فقد أمر

بجلدهم ، فبقينا هناك حتى المساء ثم عدنا لنقام بالقدس .

فلما كان اليوم التالى سافرنا مع نفس الفارس وجئنا إلى «باثينيا» فأرونا أماكن مقدسة كثيرة ، من بينها جبل «ثابور» حيث تجلّي سيدنا ، ويقال إن هنا أيضاً الوادى الذى به قبرا آدم وحواء ، وعدنا تلك الليلة إلى بيت المقدس مارين بعدة أماكن مقدسة ، من بينها البستان الذى صلى فيه سيدنا واقتيد ، فوصلنا هذه المدينة مبكرين .

* * *

ساوَمْتُ تلك الليلة أحد الأعلاج من أهل البرتغال على أن أعطيه دوكين إن هو أدخلنى معبد سليمان(*) فقبل عرضى ، فلما كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أدخلنى إياه بعد أن ألبسنى ملابسه ، ورأيت المعبد وهو هيكل من صخرة مفردة وكله مزين بالفسيفساء المذهبة ، وأرضه وحوائطه من أجمل أنواع الحجر ، وتتدلى فى المكان كثير من المصابيح التى يخيل لرائيها أنها متصلة كلها بعضها ببعض ، وأما سطحه فنبسط جداً ومغطى بالرصاص ، ويقولون أيضاً — وهذا حق — أنه حينما بنى سليمان هذا الهيكل كان أفخم بناء فى العالم كله فى يومه ، ثم تهدّم وأعيد بناؤه ، ولكن لا شك أنه لا مثيل له حتى فى حالته الراهنة ، ولو عرف القوم حينذاك أننى مسيحى لبادروا إلى قتلى دون توان ، فقد كان هذا المعبد منذ أمد قريب كنيسة مقدسة ، غير أن أحد المقربين إلى السلطان حمله على أخذه وتحويله إلى مسجد .

آب بى العلج الذى أخذنى إليه إلى جبل صهيون حيث كان الإخوان الرهبان فى حزن علىّ، ظناً منهم أننى قد لقيت حتفى لعدم عودتى فى الموعد المضروب ، فلما رأونى كانت فرحتهم بى عظيمة ، وكذلك كان شأن السادة من رفاقى .

إتفقنا على أن نذهب فى اليوم التالى لسماع القداس، وأن نبقى يوماً وليلة فى القبر المقدس ، ومن ثم بلغناه عند انبلاج النهار ومضوا ففتحوا لنا الأبواب بنفس الاحتفالات السابقة، فبدأنا بالاعتراف، ثم تناولنا القربان، وتَصَّبتُ ثلاثة من السادة فرساناً للقبر المقدس، إثنان منهم من ألمانيا وثالثهم فرنسى[51] الجنسية. ووضعنا أسلحتنا فى المكان المعهود ، وأخذنا بعض الآثار المقدسة التى تفضّل بها علينا الحارس ، وقضينا طوال هذا اليوم والغد فى سماع القداس ثم افترقنا، واستفسرت عما إذا كان من الممكن زيارة دير « سنت كاترين » على جبل سيناء المتاخم للبحر الأحمر ، لكنى علمت أن الحراس الذين مع الجمال قد رحلوا مع سفير من تركيا ذاهب إلى سلطان مصر ، ومن ثم لم يكن من المستطاع إنجاز رحلتى ، وكنت راغباً فى البقاء هناك حتى السنة التالية إذا إحتاج الأمر إلى ذلك ، بيد أن الحارس نصحنى بالذهاب إلى قبرص لرؤية الكردينال أخى الملك العجوز ، ذاكراً لى أنه سيعطينى عهد أمان إلى مصر ، وبذلك أستطيع الوصول إلى جبل سيناء من هناك .

فعزمت أن أفعل ما أشار به .

الفصل السابع

مغادرة قبرص - رامة - يافا - بيروت

قبرص - طافور سفير إلى

سلطان مصر

رحلنا فى اليوم الثانى صحبة الوالى والإخوان الفرسان وقضينا ليلتنا بمدينة الرملة ، حتى إذا كان اليوم التالى بلغنا ميناء يافا فوجدنا السفن فى انتظارنا فركبناها ، وعاد المسلمون والإخوان إلى بيت المقدس بينما أبحرنا نحن إلى بيروت ، وقد جاء فى هذا اليوم الوالى «ناصر الدين» وروى لى ما أصاب ملك الدانيمرك وهكذا بلغنا ميناء دمشق ، ومررنا على طول الساحل بمدن صور وعسقلان وعكا التى توجد بها قلعة كان فرسان القديس يوحنا قد ارتدُّوا إليها بعد ضياع بيت المقدس من أيديهم ، وعلى مقربة منها «الناصرة» [٥٢] ـ التى كرمت فيها سيدتنا العذراء ـ وهى تقع فى الجليل، وهكذا وصلنا إلى بيروت حيث اشترى ركاب السفن ما شاءوا من البضائع ، ورغبت أنا فى مشاهدة دمشق إلا أنهم لم يستطيعوا البقاء لانتظارى ، وقد رأيت من هنا جبل لبنان بجميع أشجاره وغابات الأرز وإن بدت أشبه بأشجار الغار ، ويقول الناس إن مار جرجس قتل التنين هنا فى بيروت ، وأنهم يجدون الآن هذه المخلوقات فى الحقول تحت الأحجار أشبه بالعقارب ولا تكبر عنها وإن تكن غير سامة ، ومرجع ذلك كما يزعمون إلى صلوات الطوباوى مار جرجس .

وقد جمعت معلومات جمة عن دمشق، وإذ لم أكن قد رأيت ذلك المكان فإننى أتجاوز عن وصفه وأتركه لمن كانوا به ، وكان رحيلنا عن بيروت فى

محاذاة للساحل الشامى حتى أرمينيا التى يقال إنه كانت بها أنطاكية القديمة وقد أرونا إياها ، ثم تقدمنا على طول الساحل فرأينا قلعة « كوخليس » حيث عاش « ميدا » وجزيرة القطيع الذهبى ، وهذه القلعة تابعة لملوك قبرص الذين ينعتون[٥٣] أنفسهم بملوك أرمينية ، ويوجد فى هذا القسم من أرمينيا سلسلة جبلية مرتفعة تعرف بالجبل الأسود ، ويقولون إن سفينة نوح استقرت هنا بعد الطوفان .

* * *

وقبالة هذه القلعة توجد جزيرة قبرص ، وتقوم فى هذا الجزء المواجه لأرمينيا بلدة « الماغوصة » القديمة التى استولى عليها الجنوية حينما أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته[٥٤] إلى جنوة ، حيث وضعت الملكة ولداً أسموه « جانوس» وهو والد الملك الحالى ؛ والمكان قليل السكان لفساد هوائه ، ويقال إن به بحيرة اسمها « كوستانزا » هى علة ضعف الصحة ، وإن تكن معظم نواحى مملكة قبرص غير صحية .

وصلنا عند انبلاج النهار وألقينا مراسينا لشحن السفينة بالبضائع ، وودّعت قائد المركب وأصدقائى ، وأنزلتُ تجارتى إلى الشاطىء ورحت أفتش عن مطايا استأجرها لتقلنى أنا وجماعتى وبضائعى ، فلما فرغت من ذلك كله رحلت ميمماً شطر « نيقوسيا » التى تبعد مسافة عشرة فراسخ وهى أهم مدن المملكة وأصحها ، وقد اعتاد الملوك عقد بلاطهم بها ، كما أن فيها مساكن كبار رجالات المملكة . وإذ كان الوقت متأخراً فقد تحتم علىّ البقاء فى فندق موجودٍ على مسيرة فرسخين من المدينة ، وبينما أنا فى طريقى إليه انتابتنى آلام شديدة فى رأسى خلتُ معها أن منيتى قد حانت ، وبلغ الألم ساقىّ ، وأحسست

به يهاجمنى فى ممدتى وبطنى وأردافى وأفخاذى وركبتىّ حتى القدمين ، وظل هذا الألم ملازمى تلك الليلة واليوم التالى بطولها إلى وقت الغروب ، فما خالجنى شك فى أنى لابد وأن أموت لو بقى هذا الألم ثلاث ساعات أخرى .

* * *

سافرت تلك الليلة وجئت إلى مدينة « نيقوسيا » وكان الملك موجوداً بها إذ ذاك ونزلت فى أحد الفنادق، فلما أشرق الصباح ذهبت إلى كنيسة مارجرجس، وبينما كنت أستمع إلى القداس بها اقترب منى سيد من أتباع السيدة « انيز »[٥٥] ـ أخت الملك السابق جانوس ـ كانت قد أوفدته لدعوتى للمثول بحضرتها، فلما فرغ القداس توجهت مع التابع إلى قصر السيدة وأظهرت لى احترامها، وقدمت لها احترامى ورحبت بى ترحيبا حارًا ورغبت أن تعرف من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وما هى وجهتى ؟ وبعد محادثتها إياى طويلا أمرت أن أقيم فى قصرها وأن يوفر القوم لى كل ما أحتاجه أنا ومن معى ، ولقد كانت هذه السيدة فاضلة جداً . ولكنها غير متزوجة إذ نذرت نفسها فى شبابها أن تبقى عذراء، وكانت تحضر باستمرار مجلس الملك، وهيأ لها نفوذها أن تدبر معظم أمور المملكة ، وكانت تبلغ الخمسين تقريباً من عمرها . فلما نلتُ قسطى من الراحة أخذتنى فى اليوم التالى إلى الملك ابن أخيها[٥٦] وإلى أخيها الكردينال ، فقدمت لكل منهما احترامى وأحسنا لقائى وقصصت عليهما سبب رحلتى، ذاكراً أننى جئت فى المكان الأول لزيارة الملك وبلاطه، وثانياً للحصول على عهد أمان لرحلتى إلى القاهرة وجبل سيناء ، وأطلعتهما على ما معى من رسائل يزكينى فيها « الملك خوان » إلى كردينال قبرص الذى كان إذ ذاك فى إيطاليا ولكنى وجدته هنا، فوعدنى ببذل كل ما فى طوقه لمساعدتى، وقد حضر هذا اللقاء « موسين سواريس » أميرال قبرص الذى

أبدى نحوى منتهى المودة والصداقة، قائلا إنه قشتالى الأصل مثلى ، وقد التمس الإذن من الملك والكردينال والسيدة إينيز فى أخذى معه لأنزل ضيفاً عليه ، فعارضت السيدة إينيز ولكنها استجابت بعد إلحاح ، فمضيت معه إلى داره .

ولقد ولد هذا الفارس فى « سيجوفيا » من عائلة « ثِرْنادِيلاَّ » ، وجاء فى رحلاته — وهو ما زال بعد صغيراً — إلى قبرص فى نفس اليوم الذى كان الملك السابق يحارب فيه جند السلطان ، وأبدى من الشجاعة فى القتال ما أنقذ معه حياة الملك ، ولكنه أخذ أسيراً معه وحمل إلى مصر[٥٧] ، وقد جرت عادة المسلمين على ألا يمتطى صهوة جواد من كان علجاً نصرانياً ، فلما كان ذلك اليوم — وقد دخلوا القاهرة وكان الملك أسيرا — جاءوا بحصانين أحدهما للملك والآخر « لموزين سواريس »[٥٨] ؛ فأصدر السلطان — حين أصبحوا بحضرته وحين سمع بحقيقة الأمر — أن يساوى «موزين سواريس» بالملك فى التشريف، حتى إذا انقضت بضعة أيام — وقد أخذوا يتكلمون فى الفدية التى يطلقون بها سراح الملك — أفضى السلطان إلى « موزين سواريس » أنه إذا أراد إطلاق الملك حراً فإنه سيطلقه بناء على كلمته ، على أن يرحل ثم يعود بالفدية ، أو على الأقل يعود هو نفسه بدونها إن لم يستطع الوفاء بها ، ومن ثم وعده بذلك موزين سواريس . وحينئذ أمر السلطان بتهيئة كل شىء له ، فلما سئل على أية صورة يريد الذهاب أجاب أنه سيسافر متنكراً على هيئة شامىّ ، ومن ثم ألبسه السلطان لبس أهل الشام وأذن له بالسفر فرحل ، حتى إذا بلغ قبرص أخذ فى مشاورة الكردينال والسيدة إينيز ومشاوريهما ، فقرّ الأمر على إرسال بعض الفرسان إلى ملوك البلاد النصرانية وأمرائها طلباً لمعونتهم فى افتداء الملك (ولقد رأيت فى قشتالة الفارس الذى جاءها وكان اسمه يعقوب جيرى) ، ووقعت القرعة على موزين سواريس ذاته للذهاب إلى البابا برومة ، وعاد كل

فارس من هؤلاء الفرسان فى الوقت الملائم من سفارته بما استطاع الحصول عليه من مال وضمانات لازمة ، فأخذ « موزين سواريس » مع بقية أعضاء المجلس مبلغاً من الذهب قدر بثلاثمئة ألف دوكات وذهبوا به إلى الملك .

وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى سمع السلطان بخبرهم فأنفذ أوامره بتلقيهم واستقبالهم ، وخلع على « موزين سواريس » كثيراً من التشريف كما لو كان ابنه نفسه ، وكان خلاص الملك على هذه الصورة : هى أن السلطان أخذ الذهب بالإضافة إلى ما التزمه ملك قبرص على نفسه من أن يرسل كل سنة ثمانية آلاف دوكات ، وبذلك فُضّ الأمر وحلّت المشكلة ، وأصدر السلطان أوامره بإعداد الأشياء الضرورية وتجهيز السفن اللازمة لحمل الملك إلى بلده ، كما أظهر الملك عطفه الكبير على موزين سواريس وكذلك على كبير مترجمى السلطان ـ وكان علجاً يهودياً أشبيلياً من أهل قشتالة ـ لقاء ما أداه له وهو فى سجنه من الخدمات ، وقد جرت عادة الملك الحالى أن يرسل كل عام إليه مبلغ مائتى دوكات .

ولما عاد الملك إلى مملكته وتشاور مع كبار رجالاته أخذ موزين سواريس من يده وأجلسه إلى جواره ، وقال إنه لو لم يكن له ابن شرعى لوهب المملكة له ، كذلك بعث الملك إحدى بناته — وكانت أمها جارية لديه — وعقد لها على موزين سواريس وجعله قائد بحريته ووريثه .

بعد أن أمضيت أربعة أيام أو خمسة فى قصر الأميرال « موزين سواريس » بعث الكردينال فى طلبى وأخبرنى بأن أذهب لسماع القداس مع الملك ، وأنه سيأذن لى بالرحلة إلى مصر بعد تناول الغذاء معه ، فلما فرغ القداس انتحى الملك فى الكنيسة جانباً بالكردينال وعمّته ورجال

مجلسه ، وما لبث الكردينال أن جاءنى وأخبرنى أن الملك علم برغبتى فى الذهاب إلى القاهرة وزيارة جبل سيناء ، ولما كان الملك قد أعدّ العدة لإرسال سفير من قبله إلى السلطان فقد سألنى إن كنت أقبل المهمة ، فإن قبلتها تطلّب الأمر منى أن أخلص فى خدمة الملك ، وقد عرفت أن الكردينال هو الذى أشار بهذا العرض لتعظيمى ، فأجبت بأنى راض بأن أخدم الملك على هذه الصورة لأننى أعرف أنه مسيحى ومن شعب فرنسا ، وإذ ذاك بعث الملك إلىّ لتناول الغذاء معه ومع الكردينال ، وأفضى إلى بأنباء رحلتى .

الفصل الثامن

الرحيل من قبرص . دمياط . الحمام الزاجل . نهر النيل
التماسيح . الرحلة فى النيل الى القاهرة . المماليك
استقبال السلطان المملوكى . المطرية
الأهرام . الفيلة . الزراف
لعب الكرة

• • •

سافرت إلى « الباف » ، وإذ كان الطاعون فاشياً بها فقد أمر الملك باستقبالى فى قرية بأحد الجبال لم يمسسها الطاعون بضُرّه ، فأقمت فى بيت السيد « ديجو ثينوريو » القشتالى الذى حمدته صحبته كل الحمد ، فلما انقضت ثلاثة أيام على وجودى هنا قدمتْ إلى « الباف » سفينة بها ثمانية عشر ملاحاً أعدّت لحلى أنا ورفيق مترجم الملك ، وقد جهزت السفينة بالمؤونة الوفيرة كأنما أعدّت لبعض آل بيت الملك ، وعليها كل ما اتُّفق على إرساله إلى السلطان .

فلما كان اليوم الثانى من وصولها أقلعتْ بنا والريح موانية ، وظلت مبحرة أحد عشر يوماً بلغنا بعدها ميناء دمياط ، حيث يصب النيل — الذى يأتى من الجنة الأرضية — مياهه فى البحر الأبيض المتوسط ، وهناك دخلنا النهر وبلغنا دمياط الواقعة على مسافة فرسخ ونصف فرسخ من البحر ، وهى تماثل « سلامنكا » فى ضخامتها ، وحافلة بالأطعمة والكروم وشتى ضروب الفواكه والسكر .

وهذه المدينة منبسطة جداً غير مسورة وليست بها قلعة ، وهى شديدة الحرارة وإن تكن بيوتها قاسية البرودة ، ويكثر بها ابن عرس كثرة عظيمة حتى لتراه فى بيوتها وشوارعها ، ويربو عددها على ما لدينا من الجرذان .

ورأيت فيها لأول مرة الحمام الزاجل[٥٩] الذى يحمل الرسائل فى ذيله من المكان الذى تربى به إلى سواه من البقاع ، فإذا علقت بها الرسائل أطلقت لتعود إلى موطنها ، وسرعان ما يقف الأهالى على أخبار جميع من يقدمون أو يسافرون بحراً أو براً ، فيكونون بمنجاة من الأخذ على غرة ، ولا سيما وهم يعيشون بلا وسائل دفاع عنهم ، وليس لديهم أسوار ولا قلاع .

* * *

ما كدت أصل إلى دمياط حتى ساروا بى إلى الوالى فأنبأته أننى قادم إلى السلطان، وسألته أن يهيىء لى قارباً صغيراً ليحملنى لوجهتى لعدم قدرة سفينتى التى جاءت بى على السير فى النهر ، فأصدر تعلياته بإنزالى فى بيته حتى تتم الإجراءات الضرورية ، وبينما أنا مقيم بداره إذ قدم بعض المغاربة قائلين إننى كتلانى ، وأنهم رأونى على مائدة لورد « كاندلور » ولديهم البينة على ما يدعون ، ومن ثم استقدموا سيدين تركيين قيل إنهما كانا حاضرين إذ ذاك وفى استطاعتهما إقامة الحجة على صحة دعواهم ، فلما جاءا وتمعنا فى طلعتى بادرا فى الحال لتكذيب زعم المغاربة ، وإذ ذاك تساءلت : « لو أن التركيين قد قالا غير ماقالا فماذا يكون مصيرى حينذاك ؟ » فأجابونى أنه كان لا بد من قتلى فى الحال ، لأن أى كلام

بقوله التركى يعد حقيقة لا ترق إليها الشبهة ولا يصل إليها الباطل .

* * *

ويوجد فى هذا الإقليم من النمر أكثر مما يوجد فى أى بقعة أخرى من العالم .

ويخترق النيل المدينة وأعنى بذلك أحد فرعيه اللذين يبعدان عن بعضهما مسافة رحلة يوم عن حصن بابليون(٦٠) .

وتعلو المياه فى شهر سبتمبر — وقت أن كنت هناك — وتغمر القطر بأكمله ، فإذا بلغت ذروة ارتفاعها دخلت النهر كميات ضخمة من السمك قادمة من البحر فتوجد فى كل بقعة ، حتى بين المساكن .

والحرارة شديدة الارتفاع جداً ، ومن ثم فالطراز السائد فى بيوتها هو وجود فتحات تطل ناحية النهر حتى يسهل جمع المياه وحتى يمكن للأسماك أن تدخل خلال هذه الفتحات فتطفو على الأرض ويسهل صيدها .

وفى هذا النهر كثير من الحيوانات التى تعيش به تسمى بالتماسيح ، فإذا كانت فى الماء لم يستطع النجاة منها إنسان أو حيوان ، ويقولون إنها تخاف من الجاموس، ولما كانت هذه النواحى خالية من الجسور وليس فى الاستطاعة إقامة شىء منها لسعة إمتـــداد الوحل فإن الفقراء يعمدون إلى امتطاء الجواميس وعبور النهر بها آمنين من كل خطر ، عجزاً منهم عن استئجار القوارب ، وقد اعتادت هذه المخلوقات أن تخرج من الماء لمسافة خمس أو ست خطوات ، فإذا كان اليوم مشمساً استغرقت فى النوم ، فإن أراد أحد قتلها استل حربة تنتهى بسهم ذى شوكات تنغرز فى اللحم إذا دخلته وتمسك به ، ويربط طرف الحربة الآخر بحبل يبلغ طوله ما بين مائة ومائة وخمسين

قامة ، فإذا قارب الصائدون الحيوان ضربوه تحت ضلوعه وهى النقطة الوحيدة المكشوفة التى فيها هلاكه ، فينغرز فيها الحديد ، وإذ ذاك يشدون الحبل عليه شداً عنيفاً ، فلا يكاد الحيوان يحس بالإصابة حتى ينفلت إلى الماء فينهكه الحبل حتى تنحل قواه ، وإذ ذاك يسحبونه إلى الشاطىء ويحملونه ويسيرون به فى المدن والقرى يلتمسون الصدقات ، شأنهم فى ذلك شأن أهل قشتالة حين يقتلون أحد الذئاب .

وهذه المخلوقات على شكل السحالى ، وتتداخل أسنانها العليا والسفلى فيما بينها ، فإذا أمسكت شيئاً ما بينها استحال إفلاته منها ، وهى تفر من كل شىء على اليابسة لأنها ليست فى أماكنها الطبيعية ، ولقد رأيت الكثير منها فى ذلك النهر .

ويقول الناس أيضاً إن فى نفس النهر ضروباً أخرى من الحيوانات — رغم أنى لم أرها — وهى فى حجم الجياد تماماً ، إلا أن فكها يكون بعرض جباهها ،وهى تخرج من الماء التماساً للكلأ فيحفر الناس لها حفراً فى الأرض ويغطونها كما هو الحال إزاء حفر الذئاب فى قشتالة وبذلك يقتلونها رغم أن هذه الحيوانات لا تضر أحداً فى الماء أو خارجه .

وماء النيل أحسن ماء فى الدنيا وكأنه ماء الجنة ولم أشرب طول زيارتى سوى هـذا الماء ، على الرغم من أنه كان فى استطاعتى الحصول على النبيذ الجيد .

ويوجد فى هذا المكان طائر السمان كالذى يوجد فى قشتالة ، ويبيعه الناس كل عشرة بمؤيدى واحد ، ويصيدونها بواسطة كلاب ويضربونها بعصىٍّ يعلقون فى أطرافها جرسين أو ثلاثة .

بقيت فى دمياط ثمانية أيام أعدّ الوالى فى أثنائها لى سفينة لتقلنى إلى القاهرة ، وهذه المراكب طويلة طول الأغربة الكبيرة ، وهى مجهزة بالحجرات التى تمتد من أحد طرفيها إلى الآخر حيث يستطيع المرء الإقامة ، ولها صنادل منبسطة لتستطيع السير فى المياه الضحلة ، وتحمل كثيراً من الحمولة ، وتجهز بقلع طويل يبلغ طول قلاع الشوانى ، ولكنه قلع ضيق مثلث الشكل يشبه قلع الغراب ، ورغم أنها تسير بالأشرعة والمجاديف ، غير أنها فى بعض الأحيان — وقت فيضان النهر — لا تستطيع التقدم ياردة واحدة إلى الأمام إلا إذا تجنبت التيار ، أو إذا وقف الرجال على الشاطىء ليقطروها بالحبال الطويلة ، ويكون عليها ثلاث طبول ، واحدة فى مؤخرتها والثانية فى مقدمتها والثالثة فى وسطها لإخافة التماسيح وإبعادها عن طريقها ، ولا يجرؤ من بها على أخذ الماء من النهر باليد ، ولكنهم يربطون وعاء برشاء طويل ، ويأخذون الماء بهذه الطريقة .

غادرت دمياط وتابعت سفرتى ميمما صُعُداً فى النهر الذى تتناثر على شاطئيه القرى حتى تصل إلى حافة الماء ، وبلغت فى مسيرى البقعة التى ينفصل فيها فرعا النهر بعضهما عن بعض ، وسرت فى أحدهما ، أما الآخر فيذهب إلى الإسكندرية .

* * *

ويوجد بالقاهرة رجال يحلقون رءوسهم ولحاهم وحواجبهم وأهدابهم ، ويحيون حياة تشبه عيش المجانين زاعمين أنهم يفعلون ذلك تطهراً ، وأنهم — فى سبيل الله — يهربون من الدنيا ومباهجها ، وأنهم من أجل هذا السبب أيضاً يحلقون كل شىء على أجسامهم .

وبعضهم يمشون وقد لبسوا القرون ، وآخرون يلطخون أنفسهم بعسل النحل ويضعون الريش ، ويحمل غيرهم أعمدة تنتهي بمصابيح تتدلى منها الأضواء ، ويمشي البعض بالقسي والسهام ويشرعونها للرمي ، وهكذا يذهبون مذاهب شتى قائلين إنهم معذبو النصارى ، ويوقرهم المسلمون توقيراً عظيما ، وقد حدث ذات يوم أن صادفت جماعة منهم فاستفسرت عن وجهتهم ، فقيل لي إنهم على وشك دخول النار مع الكلاب المسيحية ليروا أي الفريقين أسرع احتراقاً .

وبالاسكندرية وفرة من القنب يصنعون منه التيل الجيد .

تابعنا الرحلة حتى بلغنا القاهرة بعد سبعة أيام فأرسينا عند مينائها حيث يوجد سوق الغلال الذي يغشاه المسيحيون بكثرة ، فأنزلنا متاعنا من السفينة وأمضينا هناك ليلتنا هذه ، حتى إذا انبلج صباح اليوم التالي اكترينا حميراً مجهزة خير تجهيز بالبراذع واللجم ، وهي سريعة جداً في سيرها ، كما استأجرنا معها رجلا ليدلنا على الطريق إلى بيت كبير مترجمي السلطان الذي بلغناه بعد فترة امتدت من الفجر إلى الظهيرة ، فلما جئناه أسلمته ما بجعبتي من الرسائل، وأبلغته تحيات ملك قبرص ، ودفعت إليه كذلك مبلغ مائتي دوكات أرسلها إليه الملك استجابة لوصية أبيه التي نصت على إعطائه هذا القدر من المال مدى الحياة لقاء الخدمات التي أداها للملك وقت أسره .

فتلقاني المترجم بالترحاب العظيم وأنزلني في داره ، فبقيت به يومين قبل أن أتمكن من رؤية السلطان ، وأخذ المترجم طوال هذه الفترة في محادثتي فسألني الكثير عن نفسي ، ولما عرف مني أنني قشتالي الأصل أشبيلي المولد امتلأت نفسه غبطة لسماعه هذا النبأ فقد ولد هو الآخر بها ، ودرج طفلا على

ترابها، إلا أنه حمل صغيراً إلى بيت المقدس مع أبيه وكان يهودياً ، لكنه أسلم حين مات أبوه ، وكان اسمه فى بداية الأمر « حايم » أما الآن فيدعى « صايم » ، وقد أراد أن يعرف من أكون ومن أين جئت فلم أكتم عنه شيئاً من خبرى لأنتفع بخدماته ونصائحه .

لقيت ترحاباً فى بيت هذا المترجم كما لو كنت ابنه ، فأذن لى أن أجالس زوجاته وأطفاله قائلا لى أن ذلك أعظم تقدير يمكن أن يقدمه لى ، والواقع أنه بدى لى أنى ابن جلدته لشدة تعلق أبنائه بى ، ورغم تقدم سنه ومناهزته الستين تقريباً إلا أنه كان لايزال قادراً على الإنجاب ، فقد وضعت إحدى زوجاته غلاماً أثناء إقامتى عنده ، وتحت هذا المترجم أربع زوجات مسيحيات ممن يُبَيّنَ فى البحر الأسود، إذ المألوف أن ينظر إلى زواج المسلمة الأصل من مثل هذا الرجل باعتباره عيباً كبيراً .

وفى أثناء هذه الأيام الثلاثة التى انقضت قبل رؤية السلطان أرانى المترجم كثيراً من الأشياء التى تستغرق كتابتها منى الكثير ، فلما كان اليوم الثالث تناول الكتب التى أحضرتها للسلطان وحملها إليه بنفسه وأطلعه عليها ، وأشار بما يكون عليه الجواب ، ثم أعادها مُغْلَقَةً إلىّ فى تلك الليلة ، وأسرّ إلىّ - باعتبارى أحد مواطنيه - أن السلطان قد نظر فيها حتى لا أستشعر عيباً إن لم أتسلم الرد عليها فى الحال ، وذكر لى ماجرت عليه العادة من قراءتها أولا ، ولكنه نصحنى أن أعرض ما جئت من أجله دون أن أدع سبيلا لأحد ما أن يفهم أننى قد علمت بالأمر .

وفى صباح اليوم التالى أرسل المترجم فى تهيئة الدواب لى ولمن معى ، فخرجنا عند بزوغ الشمس إلى قصر السلطان ، وتمكنا قبل وصولنا إليه من

أن نصيب حظاً من الطعام والشراب ونحن في الطريق ، إذ يخرج الباعة حاملين الموائد وعليها الطعام المطبوخ ، وآخرون يبيعون الفاكهة ، وسواهم الماء إلى غير ذلك من الأشياء الكثيرة ، ووصلنا إلى المسجد الجامع وهو بناء رائع يستلفت النظر ، وإن يكن في البلاد النصرانية ما يبزه حسناً .

ثم جئنا إلى ميدان فسيح يعج برجال على ظهور الجياد والخيم المجهزة بالسلاح ، وعلمنا بوجود فرسان أكثر من هؤلاء عدداً خارج المدينة ، إذ هذا هو اليوم الذي يجلس السلطان فيه للحكم بين الناس ، ولا أستطيع أن أصف عدد الرجال المسلحين ما بين فرسان ومشاة ، ولعل ثمت جدوى في الإمساك عن ذلك لأنني لا أريد رواية شيء يصعب تصديقه رغم أن كل شيء في هذه الجهات يقال ويعتقد .

وصلنا إلى باب مقام السلطان وتركنا دوابنا وصعدنا الدرج إلى المدخل ، وهذا الدهليز يبلغ في حجمه حجم «فيلاديال» تقريباً ، كما أن الشوارع مكتظة بالسابلة ما بين رائح وغادٍ من مكان إلى آخر ، وعلمت أن هؤلاء هم المماليك الذين نسميهم نحن « بالمتبربرين[٦١] الأعلاج » ممن يشتريهم السلطان نقداً في البحر الأسود ومن جميع الأماكن التي يبيعهم فيها المسيحيون ، فإذا وصلوا إلى هذا المكان اعتنقوا الإسلام وشرع القوم في تعليمهم الدين ، وتثقيفهم على ركوب الخيل والفروسية والرمي بالقوس ، ثم يختبرهم رئيس الأطباء ، وتجرى عليهم الجوامك والإقامات ويبعثون بهم إلى المدينة . ولا يستطيع أحد أن يصير سلطاناً أو أميراً أو ينال شيئاً من التشريف أو الوظيفة إلا إذا كان من هؤلاء العلوج ، كما لا يتأتى لأحد من المسلمين ـ أولاد الأحرار ـ أن يركب حصاناً خوف الحكم عليه بالموت ، بل يذهب المماليك وحدهم دون سواهم بكل أمجاد الفروسية .

أما أبناؤهم فينالون تشريفاً أقل منهم ودون هذين : الأحفاد ، ثم يصبحون بعد ذلك مسلمين أحراراً ، كل ذلك بغيــة زيادة عدد المسلمين . ومن ثم فإنهم يسمون بمكثرى شرع محمد .

ولا يتمتع النساء بمثل هذا الامتياز ، ويجوز المسلم الزواج من مسيحية دون مهر على الاقتران بمسلمة مهما كانت ضخامة مهرهــا ، لاسيما إذا كانت مسلمة حرة .

* * *

وباستمرار السير فى الشوارع وصلنا إلى باب كبير أحكموا رتاجه بالأقفال ، فلما فتحوه لنا اجتزناه إلى ساحة فسيحة غاصة بالكثيرين من الفرسان الذين انتظموا صفاً إلى الجدران ، ثم فتحوا لنا باباً آخر أدى بنــا إلى ميدان اصطف فيه الفرسان ، ثم فتحوا لنا باباً ثالثاً وجدنا أنفسنا بعده فى ميدان غيره ، وقف فيه رجال من الزنوج وبأيديهم الهراوات ، فطلب إلىّ كبير المترجمين التريث حيث أنا مع مرافقىّ حتى يعود ، ثم ما كاد يغيب حتى عاد وقادنى عبر أحد الأبواب إلى ميدان فسيح قد وقف فيه كثير من الفرسان على الصورة السالفة ، وكان فى وسط الميدان خيمة فخمة كبيرة قد بولغ فى زينتها أعدت كى يتنــاول السلطان فيها غذاءه ويقيم فيها للقاء من يجيئون لتحيته ، كما أقيم على مقربة منها فسطاط ومصطبة عالية عليها مقعد يتبوأه السلطان .

وأخبرنى كبير المترجمين أن أنتظر فى وسط هذا الميدان ، وأنبأنى أن السلطان سيخرج وسيمر علىّ معه ، وإن أفضى إلى بأنه لن يظهر لى أى انتباه لأن هذه عادتهم فى امتهانهم النصارى .

وبينما أنا واقف حيث أنا إذا بهم يفتحون باباً كبيراً ، وإذا بالسلطان

يخرج منه على ظهر جواده ، وقد تقدمه ابنه ماشياً مع قرابة مائتي فارس، ومر على مقربة مني ثم جلس على المقعد المشار إليه .

كان السلطان قد أطلق من الحبس منذ أيام قلائل أحد أبناء دواداره وكان قد خلف أباه ، وكان شديد الثراء يملك كثيراً من الذهب واللآلىء والأحجار الكريمة وغير ذلك من الأشياء الغالية الثمن ، وقد عمد الإبن في إكبار هذه المناسبة ولعودته إلى عطف السلطان عليه إلى أن أرسل له حصاناً أسود بطرز زركش ، كما حلى السرج واللجام بالذهب أيضاً . وكان في قربوس السرج ياقوتة يقال إنها تزن ديناراً ونصف دينار مصري وتبلغ في الحجم حجم البرتقالة ، كما كان في قربوس السرج الخلفي ثلاث ياقوتات بحجم بيضة الدجاج، وسيف أحدب يساوي ذهباً كثيراً ، أما مايتدلى منه فكان من الحرير الدمشقي الأبيض الذي حلي بطرز من اللآلىء الغالية .

ثم جاءني كبير المترجمين وأخبرني بأنه يجب علي أن أقوم بتقبيل الأرض قبل اقترابي من السلطان ، ثم أخذ الرسائل التي أحملها ومس بها رأسي وفي للتحية ثم رفعها للسلطان ، ولما كانت هذه الكتب مكتوبة بلغة أجنبية فقد قرأها عليه باللسان التركي إذ لايوجد أحد في البلاط يتكلم غير هذه اللغة . ويقولون إن هذا نظام متبع حين اختار الترك الشريعة الإسلامية منذحين وأنهم يفعلون ذلك تشريفاً لهم .

* * *

إستفسر من السلطان عن ملك قبرص وعمه الكردينال وكذلك عن « موزين سوارز » وآخرين من رجال المملكة ، فلما أجبته على ما سأل ذكر لي سروره بإجابة ملتمسات الملك التي كانت تتلخص فيما يلي :

كان الملك قد أرسلنى إلى السلطان ملتمساً منه ألا يرسل المماليك كل سنة ـ كمألوف عادته ـ لجمع الجزية لأنهم يكلفون الملك نفقات باهظة لقاء أن يبعث الملك الجزية فى مدى أربعة أشهر ، ويسأله زيادة على ذلك أن يقبل السلطان الجزية على شكل عبك بالثمن الذى تقدر به فى القاهرة ، كما يرجوه أن يأذن له ببيع ملحه الذى كان مصدر دخل كبير فى بلاد الشام دون أن يدفع ضريبة على ذلك البيع ، فقبل السلطان كل هذه المطالب .

كذلك أصدر السلطان تعلياته بتوفير مسكن مريح لى إلى جانب كل ما يلزمنى ففعلوا ما أشار به ، ثم أعطانى فى ذلك اليوم — على مألوف عادته — خلعة فوقانية لملك قبرص كمظهر من مظاهر تبعيته للسلطان ، وهى عبارة عن ثوب أخضر زيتونى وأحمر قد حلى بالذهب ، وبفرو سمور .

ثم نزل السلطان من مقعده وجاء إلى الخيمة حيث حياه القوم وتناول غذاءه ، وإذا ذاك استأذنته فى التغيب هذا اليوم .

بينما كنت هناك دخل مايقرب من مائة رجل ومعهم مسلم طرحوه أرضاً وأخذوا فى جلده وضربوه بالعصى مائتى ضربة على بطنه وكتفيه ، وقد علمت فيما بعد أن القضاء فى الجرائم ينفذ فى حضرة السلطان .

* * *

ولما عدنا إلى هذا المكان لم نر أحداً ممن رأيناهم من قبل سوى جماعة السودان ، فانحدرنا من هناك إلى الميدان الفسيح الذى خلى ممن كانوا به من علية القوم ومن الخيم ، ولم يبق به سوى الفقراء وبأيديهم الغرابيل وهم ينخلون الرمال ، فسألت عن معنى ما أرى ، فعلمت أنهم من الزعر الذين جاءوا يلتمسون شيئاً من الفتات المتساقط على الأرض من ذلك الجمع الكبير من الرجال .

شغلنا هذا اليوم حتى غروب الشمس فى العودة إلى محل إقامتنا ، فلما كان اليوم التالى أقمنا مستجمين ، ورتبت إرسال رسالة السلطان إلى ملك قبرص فى ذلك المركب الذى كان راسياً بدمياط ، على أن يعود إلىّ فى مدى شهرين عزمت أن أمضى أثناءهما إلى دير «سانت كاترين» على جبل سيناء .

* * *

بقيت بالقاهرة مدة تقرب من الشهر بعد إنفاذى رسالة السلطان إلى الملك، شاهدت خلالها كثيراً من الأشياء التى تعتبر غريبة على شعبنا ، والواقع أنى كنت مجدوداً إذ اتخـــذت من كبير المترجمين مرشداً لى ، إذ كان يسرّه تحقيق كل رغبة لى ؛ ولقد ركبنا ذات يوم فى الفجر إلى « المطـرية »[62] التى يأخذون منها البلسم ، وهى على بعـد فرسخ من المدينة ، ولم نبلغها إلا وقد انتصف النهار رغم شدة سرعة دوابنـا ، ويمكن أن يقال إن مسكننا كان يقع فى وسط المدينة ، ومن هـــذا يستطيع المرء أن يتبين مقدار سعتها .

والمطرية بستان ضخم مسور بحائط، وفيها الحديقة التى ينمو بها البلسم[63]، ويبلغ اتساعها قرابة ستين أو سبعين قدماً مربعاً ، وفيها تنمو شـجرة البلسم التى تشبه كرمة بلغت من العمر عامين ، ويجمعه القـوم فى شهر أكتوبر ، حيث يأتى السلطان فى احتفال كبير لجمع الزيت ، ويقال إن المعصـور منه لا يكاد يصل إلى نصف مكيال من مكاييلنا ، ولـكنهم يعمدون إلى أخذ الغصون ويغلونها فى الزيت ويوزعون ذلك على العالم باسم البلسم ، حتى إذا فرغوا من جمع الجذور بدأوا فى الحال فى زراعة الأرض ، ويأخذون شتلات معينة خاصة ويغرسونها فى التربة ثم يروونها

بالماء الذى تدفق لسيدتنا العذراء فى هذه البقعة حينما فرّت هى وابنها إلى مصر ، وهذا المكان من الأماكن المقدسة عندنا نحن المسيحيين ، وإذا روّى القوم النباتات بهذا الماء وجدوها فى اليوم التالى قد ضربت بجذورها فى الأعماق ، وكثيراً ما حاولوا ريّها بماء النيل أو بغيره من المياه فجفت جذورها فى الحال .

وحين يخرج المرء من هذه الحديقة يصادف شجرة تين ضخمة جداً تنتج تين فرعون ، وهو أحمر اللون ، وفى داخل الجذع فجوة ضئيلة أشبه ما تكون بالكنيسة الصغيرة ، ويقولون إن هذه الشجرة قد فتحت نفسها بنفسها حيث اختفت بها سيدتنا وابنها حين كانا فى خوف من إلقاء القبض عليهما .

وبينما كنا عائدين إلى القاهرة على نهر النيل أبصرنا حدائق كثيرة وبيوت الأثرياء الفخمة ، واستغرقت العودة منا هذا اليوم بأكمله ، ولم نبلغ مسكننا حتى كان الليل قد انتصف .

. . .

ذهبنا فى اليوم التالى إلى مخازن غلال (٦٤) يوسف التى تقع فى الصحراء على بعد ثلاثة فراسخ من النهر ، وعلى الرغم مما يقولونه من وجود الكثير من هذه المخازن داخل البلد إلا أنه يوجد منها ثلاثة فقط : إثنان كبيران وواحد صغير ، وكلها مخروطية الشكل قمتها إلى أعلى ، وهى أعظم إرتفاعاً من البرج الكبير بأشبيلية ، وحينما يجتاز المرء الباب يلقى حائطاً متصلا بآخر يكوّنان شكلا مخروطياً يصل إلى القمة ، وبه نوافذ عدة ، فإذا كانت الدواب محمّلة بالغلال صعدت وألقت أثقالها من خلال هذه الطاقات حتى تمتلىء المخازن

إلى آخرها ، وليس من شك فى أننى أعتقد أنه لا يوجد فى العالم اليوم مثل هذا البناء ، الماثل ولم أر له شبيهاً من قبل أو بعد .

. . .

عدنا هذا اليوم إلى القاهرة ، فلما كان اليوم التالى ذهبنا لمشاهدة المكان الذى كانوا يحتفظون فيه بالفيلة فرأينا منها سبعة ، ولونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل ، أما الأرجل الأمامية والخلفية فقوية حتى ليخيل لرائيها أنها قد صبت من الرخام ، وأقدامها مستديرة ذات أخفاف قوية جداً ، ويقال إن أرجلها يتصل بعضها ببعض ولكن ليس بها نخاع ، والعينان حمراوتان وصغيرتان جداً بحجم المليم ، والذنب قصير كذنب الدب ، وتشبه الأذنان الدرع ، والرأس أشبه بجرة كبيرة من تلك الجرار التى تسع ست خروبات (٦٥) ، ويبلغ طول كل ناب أربعة أشبار ، أما الفم فصغير جداً ، ويتدلى من الشفة خرطوم طوله ستة أشبار تستطيع هذه الحيوانات أن تمده وتقبضه حسب إرادتها ، وتلتقط به كل ماتريد أكله وتلقيه فى فمها ، أو ترفع به الماء إذا احتاجته ، ويظهر أن هذه الحيوانات ذكية جداً ، فهى مدربة على القيام بالحيل والألعاب ، وتعمد فى بعض الأحيان إلى ملء خراطيمها بالماء وترش به أى شخص أرادت ، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه فى الجو ثم تمسكه ، كما تقوم بألعاب أخرى كثيرة .

فإذا كان الجو حاراً أخذها القوم عند انبلاج الفجر ودفعوها إلى النهر لتبترد وإلا عجزت عن كبح جماح نفسها ، وجلدها سميك جداً ، وإذا جرحت وضعوها حيث يشرق القمر عليها فتبرأ فى اليوم التالى .

ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلى مدراة يضربونها بهـا خلف

أذنها ، وبوجهونها أنّى أرادوا ، لأن جلدها الذى حول الأذن رقيق جداً حتى ليؤذيها وقع الذبابة عليه ، ويطعمونها الحبوب والشعير كما يفعل القوم بالخيول عندنا .

ويقال إن القوم بالهند يقيمون على ظهورها قلاعاً تسع ستة عشر رجلا ، فإذا خرجوا للقتال كسوا أسنانها بالصلب ، ويزعمون أن هذه الحيوانات تعيش حتى تبلغ من العمر أرذله .

* * *

عدنا هذا اليوم إلى مسكننا بعد أن طالعنا كثيراً من المشاهد الغريبة ، وذهبنا فى اليوم الثانى لرؤية حيوان يسمونه بالزرافة[٦٦] ، وهى كبيرة كبر الوعل ويبلغ طول قدميها الأماميتين قامتين[٦٧] ، أما الخلفيتان فلا تتجاوزان الذراع ارتفاعا ، وشكلها العام أشبه بالوعل ، وهى مرقطة ذات خطوط بيضاء وصفراء ، ورقبتها تسامق فى طولها طول البرج ، وهى حيوان أليف جداً ، وإذا قدموا إليها الخبز باليد خفضت رأسها حتى تعمل مع رقبتها قوساً كبيراً ، ويقول الناس إن هذا الحيوان يعمر طويلا ، وأن هذه الزرافة بقيت هنا فى هذا المكان أكثر من مائتى عام .

* * *

ذهبنا هذا اليوم لمشاهدة مدينة القاهرة ، وهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، يسمون أولها بحصن بابليون ، والثانى بالقاهرة ، والثالث بمصر ، وإلى جانب مدينة بابليون حيث يشقها النهر تقوم فى الماء ثلاثة أعمدة ذات خطوط معينة وكتابات قديمة ، فإذا كان الوقت شهر سبتمبر وقد ارتفع النهر[٦٨] أقيم الحراس عليها حيث يرقبون كل ساعة زيادة المياه ، فيذكرون مقدار الارتفاع

لمنادين على الأرض ينطلقون فى المدينة كل ساعة ، يعلنون فى صوت عال مدى الزيادة فى النهر ، فإذا بلغت الزيادة أقصاها عرف الناس إلى أى حد يستطيعون بذر الحب ، وعما إذا كانت السنة خصبة أم مجدبة ، ويقال إن تشييد هذه الأعمدة كان أول عمل نهض به القوم فى مدينة بابليون .

وفى الضاحية القديمة من هذه المدينة كثير من البيوت الرائعة والحدائق المتناثرة ، وتكثر الزروع حتى على الشرفات ، ويزرع القوم الأشجار الضخمة ، كما يوجد العديد من الكهوف والصهاريج لخزن مياه النيل .

وعدنا هذا اليوم إلى مسكننا فاتفقت مع المترجم على أن نذهب فى الغد لمقابلة السلطان ملتمساً منه الإذن بالذهاب إلى جبل سيناء ، ومن ثم مضينا فى الصباح إلى القصر السلطانى ، غير أننا وجدنا السلطان قد غادره للصيد ، فرحلنا فى إثره ولحقنا به على مسافة فرسخ واحد من المدينة وهو فى موكب رائع ، وحوله — كما خيل إلىّ — أكثر من خمسة أو ستة آلاف فارس والعدد الكبير من البزاة والفهود ، وقد تناول السلطان غذاءه فى هذا اليوم فى السرحة ، ثم لعب هو والأمراء لعبة اعتادوا عليها على الصورة الآتية ، هى أنهم يضعون كرة [٦٩] فى وسط الساحة ، ويقف بضعة آلاف فارس على أحد الجانبين ويرسمون خطوطاً على الجانبين أمامهم ، ويمسك كل منهم مضرباً بيده وتكون يده قابضة على رمح ، ويهجم الجميع على الكرة فى وقت واحد ، ويقصد أحد الجانبين دفعها عبر الخط ، على حين يحاول الفريق الآخر عمل ذلك بنفسه ، فإذا تمكن أحد الجانبين من دفعها عبر الخط كان هو المنتصر ، وقد حاول أحد اللاعبين فى هذا اليوم إعاقة ابن السلطان فاستل سيفه وحاول قتل خصمه ، فحدث إذ ذاك هرج شديد لم يهدأ حتى جاء السلطان وصرفهم .

الفصل التاسع

الرحلة إلى سيناء . تجارة للوميات . دير سنت كاترين
التفكير فى الرحلة إلى الهند . نيكولو دى كونتى
يروى قصة حياته . البحر الأحمر

. . .

التمست من السلطان فى هذا اليوم أن يأذن لى فى الذهاب إلى جبل سيناء، فاستجاب لرجائى، وأمر أن يصحبنى أحد مترجميه، وأمدّنى بثلاثة جمال لى ولمن معى دون أن يقبل عليها أجراً ، وحينئذ ودعته ورحلت بعد يومين لم يتهيأ لى خلالها فى الواقع كثير من الفراغ لشتى الغرائب العجيبة التى تبتغى رؤيتها ، ونظراً لشدة حرارة الجو فقد كانوا يأتوننى فى كل صباح بجرة ماء للشرب يعالجونه معالجة خاصة ويضعون به بذوراً معينة تشبه القنب ، فيصبح الماء — والحق يقال — صالحاً كل الصلاحية للشرب ، وقد جرت عادتهم أن يشربوه فى الصيف قبل تناول العشاء .

أعدّ مترجم السلطان لى كل ما يلزمنى وزكانى لدى الترجمان الآخر الذى كُلّف بمرافقتى ، حتى إنه كتب بنفسه كتاباً يوصى فيه بى خيراً ، وبعث به إلى بطرك الإسكندرية المتخذ القاهرة مقاماً دائماً له، والذى يختار بنفسه القيم على دير سنت كاترين بجبل سيناء[٧]، ثم رحلنا عن القاهرة واجتزنا صحراء مصر التى لا حياة فيها ، ولقينا فى ذلك مشقة كبرى واكتنفنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدة حداً عجبت منه كيف يستطيع أى امرىء احتمالها ، ويقولون إن هذه الصحارى تحفظ للوميات التى هى أجساد من

يموتون بها ، ذلك أن الجثث لا تتحلل بفضل جفاف تلك الجهات الشديد ، فلا يحدث غير إمتصاص الرطوبة تاركا الجثث كاملة جافة ، وقد خلت الصحراء من الطرق والمسالك لأن الريح تأتى عليها فتطمسها ولا تبقى منها أثراً ، كما أنها تنقل الرمال من مكان إلى آخر مكونة تلالا ضخمة تورد سالكيها موارد العطب والهلاك ، ويستعين القوم فى اجتيازهم إياها بالبوصلة كما هو الحال فى البحر ، ولا يصادف المرء أثراً للسكان فيما بين القاهرة وجبل سيناء ، وتحمل الجمال كل شىء تحتاجه هى والمسافرون على السواء .

استغرقت الرحلة إلى جبل سيناء خمسة عشر يوماً ، وهذا الجبل شديد الارتفاع يقوم منفرداً ، ويقع على بعد نصف فرسخ تقريباً من البحر الأحمر ، وكان على قمته فيما سبق دير حفظت به جثة القديسة كاترين ، ويقول الناس فيما يقولون إنه حدث فى إحدى السنوات قحط عظيم جداً فى الطعام ومجاعة أدت بالرهبان — الذين كانوا يكابدون المشقة الجسيمة فى تسلق هذه المرتفعات — إلى قصد مصر ، تاركين وراءهم الدير والجسد المقدس بلا حراسة ، وإذ ذاك تجلت لهم القديسة كاترين المباركة وأمرتهم بالعودة من حيث جاءوا ، مخبرة إياهم أنهم سوف يجدون ذخيرة ومكاناً ملائماً للعيش ، وطلبت إليهم أن يبنوا ديرهم ويدفنوا جسدها حيث يجدون كومة كبيرة من الحنطة ، فانكفأ الرهبان عائدين من حيث جاءوا ، ووجدوا عند سفح الجبل تلا ضخماً من الحنطة ، فشكروا الرب والقديسة كاترين العذراء على النعم التى واتتهم ، وشيدوا ديرهم الذى لا يزال موضعا من أبرز المواضع . ثم تسلق الرهبان الجبل وجاءوا بالجسد فى احتفال فخم ، وسجوه فى الدير الواقع عند سفح الجبل حيث لا زالوا يعيشون حتى اليوم ، وإن لم يهملوا ما على الجبل ذاته لكثرة الأماكن

المباركة به ، فقد كان البقعةَ التي ناول الله فيها موسى الألواح، والتي تجلى له فيها في العليقة، وهذا هو أيضاً المكان الذى أمر الربّ فيه موسى أن يضرب الصخر بعصاه فانفجرت المياه التي لا تزال تتدفق إلى اليوم منحدرةً إلى السفح .

أما الدير الأدنى فبناء لطيف يضم بين جوانحه قرابة خمسين أو ستين رجلا ما بين راهب وخادم ، وبه كنيسة حسنة البناء قد أقيمت على النمط البيزنطى ، ويرقد جثمان القديسة كاترين تحت المذبح الرئيسى ، ولم تتسنّ لى رؤية الجسد ، إذ لم تجر عادتهم على إطلاع أحد عليه ، كما أن المكان فى الواقع غير مهيأ لرؤيته ، ولكن ظهر لى من مشاهدة حجمه أن الجسد لابد أن يكون أطول شبراً من قامة أطول إمرأة يمكن أن توجد فى العالم اليوم .

كذلك يوجد بيت يحتوى على جثث محنطة لرجال معينين ، والناس ما بين قائل إنها أجساد فرسان زاروا ذلك المكان المقدس وقضوا نحبهم به ، ومن قائل إن بعض فرسان اليونان حُملوا إلى هناك بعد موتهم حيث البقعة مباركة . ويستمد الدير جزءاً كبيراً من دخله من جميع بلاد اليونان ، كما أن أحد كبار سادة « كانديا » ترك له حين موته دخلا يقدر بأربعة آلاف دوكات ، ولكن نظراً لشدة بعد المكان ، ولما يتطلبه إمداده من أموال ضخمة فإن جزءاً من الدخل ينفق فى الصرف على مبنى فى القاهرة يعيش فيه بطرك الإسكندرية الذى يقوم بتجهيز كل شىء لقاء دفع الدخول له ، كما أنه هو الذى ينتخب البطرك الذى يبعث به إلى الهند الكبرى حيث يوجد « برستر جون » ، وقد حدث زمن وجودى بالقاهرة أن مات البطرك السابق فاختار [بطرك الإسكندرية] خليفة له وبعثه إلى هناك .

. . .

بعد أن قضيت ثلاثة أيام بالدير حدثتني نفسي عما إذا كان في الإمكان الذهاب إلى شبه القارة الهندية وانتحيت بقيّم الدير جانباً حدثته فيه على انفراد بهذه المسألة ، فأنبأني أن إحدى القوافل — وهي وسيلة الاتصال بتلك النواحي — توشك على القدوم في مدى يومين أو ثلاثة أيام ، وإننا نستطيع أن نستمد الأخبار منها عن مدى إمكانية النهوض بهذه الرحلة ، وإن يكن هو نفسه معارضاً إياها كل المعارضة ، وقد وصلت القافلة المرجوة بعد أربعة أيام أو خمسة ، وجاءت بعدد كبير جداً من الجمال لا أستطيع أن أذكر شيئاً عنه لأنني لا أحب أن أظهر بمظهر المسرف في كلامه ، وكانت هذه القافلة تحمل من بلاد الهند جميع أنواع البهار واللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والعطور والنيل والببغاوات والقطط ، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة يوزعونها في كافة أرجاء الدنيا ، فيذهبون بنصفها إلى القاهرة حيث تحمل منها إلى الإسكندرية ، ويمضون بالنصف الآخر إلى دمشق ومنها إلى ميناء بيروت .

ذهبت إلى ساحل البحر الأحمر الذي يبعد مسافة فرسخ عن جبل سيناء لمشاهدة القافلة التي وجدت بصحبتها أحد البنادقة واسمه «نيكولودى كونتى»(٢١) ، وهو سيد عريق المولد ، وقد جاءت معه زوجته وابناه وابنته الذين ولدوا كلهم بالهند ، ويبدو أنه أسلم هو وإياهم بعد أن حملوا قسراً على جب دينهم في مكة المقدسة عند المسلمين ، ولم يكد « نيكولا » يرانى حتى قدم إلىّ سائلا إياى عن أكون؟ وماذا أفعل هنا؟ وما هى وظيفتى ؟ فأنبأته إننى جئت من إيطاليا ، وعشت فى بلاط ملك قبرص وإننى مبعوث من قبله إلى السلطان المملوكى الذى أذن لى بالمجىء إلى هنا ، وأخبرته أننى مجمع العزم على الذهاب إلى الهند ، فأفضى إلىّ فى الحال بوجوب التخلى عن تلك المحاولة التى لا يمكن إنجازها مهما صدقت النية منى ، ولما رأى عزمى وإصرارى على تنفيذ فكرتى فقد طلب

منى أن أفضى إليه بحقيقة أمرى،ذاكراً أنه يستطيع أداء خدمة كبرى لى بإنبائى
عما ينبغى علىّ عمله لإنجاز مرادى وتحقيق إربتى ، وأكد لى إننى أستطيع
الثقة به تمام الثقة إذ أنه مسيحى مثلى ، كما وعدنى أن يقص علىّ أحداث عمره
وكيف جاء إلى تلك النواحى ؛ فلما تبينت مكانة الصدق فى قوله وأدركت
فطنته وحصافته أنبأته أننى من أشراف أسبانيا ، وقد جئت منها إلى القبر
المقدس ، ومن هناك مضيت قُدما إلى القاهرة بغية رؤية جبل سيناء ثم
الشخوص إلى الهند،فلمّا وقف «نيكولودى كونتى»على ما كان من خبرى أظهر
السرور العظيم وقال لى :

« إعلم أنه فى الوقت الذى كان فيه تيمور بيك حاكما كنت بالإسكندرية
ومعى بعض أموال أبى ، فذهبت منها إلى القاهرة ، وكنت إذ ذاك فى الثامنة
عشرة من عمرى ، وقد أدى سوء إدارتى وقلة خبرتى — كشاب حدث —
إلى ضياع ما لدى من المال ، فاستبد بى اليأس ، وخجلت من العودة إلى
موطنى صفر اليدين متربا ، ومن ثم يممت وجهى شطر البلد الذى كان
تيمور بيك يحكمه وأقمت سنة فى بلاطه، ورحت ألتمس الوسائل التى تمكننى
من الذهاب إلى شبه القارة الهندية ، وعلمت أن كل شىء مأمون لامتداد
سلطان تيمور بك إذ ذاك من البحر الأحمر إلى الهند التى لم أكد أبلغها حتى
أخذونى لمشاهدة « بريسترجون »[٢٢] الذى هش كثيراً لمقابلتى ، وخلع على
كثيراً من عطفه ، وزوجنى المرأة التى هى معى الآن وأنجبت منها أطفالى
هؤلاء ، ولقد عشت فى الهند أربعين سنة كنت أتحرق شوقاً خلالها للعودة
إلى وطنى وأصبت حظاً كبيراً من الثروة ، فلما مات تيمور بك وقسمت
مملكته وتمزقت شذراً رتّبْتُ الرحلة إلى البحر الأحمر ، وأعددت العدة
للذهاب إلى مكة وإلى البقعة التى أنا فيها الآن ، وحصلت من أجل هذا

العرض على كتاب أمان من السلطان ، وقد أمضيت عامين فى الحصول عليه حتى بعث به إلىّ أخيراً ، فلما وصلت أنا وزوجتى وأطفالى إلى مكة خيّرونا بين الردّة عن ديننا أو القتل ، وكنت أنا نفسى مستعداً للاستشهاد ، ولكننى كنت أعرف أن زوجتى وأبنائى يؤثرون الردة على الموت ، ومن ثم رأيت قبول هذا العرض مؤملا أن يخلصنا الله فى الوقت المناسب ، لكن لا بد من أن السلطان كان ضالعاً فى كل ما جرى لكى ينال نصيبه فيما سلبوه منى .

هذه هى قصة حياتى وخبر أمسى ، وإننى لأستحلفك بالله وبالحب الذى تكنه له ، وألتمس منك باعتبارك مسيحياً من أهل وطنى أن لا تركب هذا المركب الجنونىّ ، نظراً لبعد الشقة ، وجسامة المشقة ، وفداحة الخطر ، فالإقليم تسكنه أجناس غريبة ليس لهم ملك يطيعونه ، ولا قوانين يخضعون لها ، ولا حكام يأتمرون بأمرهم ، فكيف تتوقع أن ترحل بلا عهد أمان ؟ وإذا اعتزم أحد قتلك فمن يخاف إن نفذه ؟ أضف إلى ذلك فساد الهواء واختلاف المطعم والمشرب عما ألفته فى بلدك ، وستلتقى بأقوام غلاظ لا يستطيعون ضبط أنفسهم ، وعلى الرغم من وجود أشياء نادرة يمكن رؤيتها هناك إلا أنها لن ترضيك الرضاء التام ، فسترى هناك أكواماً من الذهب واللآلىء والأحجار الكريمة ، ولكن ما جدواك وانتفاعك بها إن تكن على حيوانات ضارية ؟ » .

* * *

أخبرنى « نيكولا دى كونتى » بهذه الأمور وغيرها ، وانتهيت أخيراً ألا جدوى من التفكير فى هذه الرحلة ، وأدركت إدراكا جلياً أن عطفه الشديد علىّ وما انطوت عليه نفسه من رحمة حملاه على إسداء تلك النصيحة إلىّ ،

كما ظهر لى بوضوح أنه التزم جادة الحق فى كل ما رواه لى ، ومن ثم كففت عن مشروعى ، وعدنا إلى الدير وبقينا به ثلاثة أيام ، واستمد صحابى للسفر ما بين قاصد القاهرة وميمّم وجهه شطر دمشق ، ولم أفعل شيئاً خلال تلك الأيام الثلاثة سوى زيارة الأماكن المختلفة والذهاب إلى البحر الأحمر والبقعة التى دخل منها أبناء إسرائيل البحر حين كان فرعون فى أعقابهم حيث جف البحر وأضحى أرضاً يابسة وانشطر الماء شطرين ، ورأينا هناك جزيرة تسمى ششونة يقال إنه جاء منها اليهود الذين يُسمُّون فى قشتالة بأبناء ششونة Abens-susenes.[٢٣] .

الفصل العاشر

العودة من سيناء . نيكولا يتابع قصته
القديس جوث

سافرنا من جبل سيناء واستأذنت قيّم الدير ورهبانه فى الرحيل ، فمنحونى شعار القديسة كاترين ، وهو عبارة عن عجلة ذات أسنان ذهبية ، فأعطيته — لفقرى — نقوداً وتركت أسلحتى ، واتخذت طريق صحبة أفراد القافلة ونيكولا دى كونتى ، وقلّ ما فعلته خلال هذه الرحلة سوى الإنصات لأعماله فى الهند وأمدّنى بكثير من الأنباء التى دوّنها بخط يده ، فاستفسرت منه عن خبر « بريسترجون »[٧٤] ومدى سلطانه ، فأفضى إلىّ بأنه كان حاكماً عظيماً يقوم على خدمته خمسة وعشرون ملكا وإن لم يبلغوا شأو الولاة الكبار ، كما يدين له الكثيرون ممن لا يخضعون لشريعة ما ، ولكنهم يتبعون الطقوس الوثنية .

ويقال إن فى الهند جبلا شاهق[٧٥] العلو يعتبر تسلقه أمراً بالغ الصعوبة ، حتى لقد غُمّ على من عاشوا فى سفحه — فى الأزمنة القديمة — معرفة شىء ما عمن يقطنون فى ذراه ، كما أن هؤلاء الأخيرين كانوا لا يدرون شيئاً من أمر ساكنى سفحه ، إلى أن شُقّ طريق ومُدّت سلسلة تربط بين القمة والسفح يتعلق بها من يريدون الصعود أو النزول ، ويوجد على قمة الجبل سهل كبير يزرع القوم به القمح ويحصدونه ، ويربون فيه الماشية ، ويحفظون به الحبوب ؛ كما تكثر به البساتين

المكتظة بالفواكه والمياه الوفيرة ، وقصارى القول إنه حافل بكل ما هو ضرورى للانسان فى حياته . ويوجد على أحد جانبيه دير شهير جداً جرت العادة أن يبعث إليه من هم أهل ليكونوا قسساً باثنى عشر رجلا عجوزاً ، مِمَّنْ عرفوا بعراقة الأصل والتمسك بالفضيلة لينتخبوا «بريسترجون» جديداً إذا خلى مكانه ، ويقومون بهذا العمل على الصورة التالية ، ذلك أن القوم يرسلون أكبر أبنائهم وبناتهم للخدمة به ، ويزوجونهم بعضهم من بعض ، وينجبون أبناء يزوّدونهم بكل ما تتطلبه حياتهم ويمدونهم بالجياد والأسلحة والأقواس والسهام ، ويثقفونهم فى فنون الحرب والحكم ، ويعقد الناخبون مجالسهم هناك يومياً ، وهم يرقبون الشخص الذى يتخيلون فيه من النجابة ما يؤهله أكثر من سواه لتولى الحكم حينما يخلو من « بريسترجون » ، ثم يتفقون فيما بينهم على الشخص الذى سوف يختارونه مكانه ، حتى إذا مات الحاكم فى النهاية عمد فرسانه إليه فوسدوه النعش وحملوه إلى الجبل جرياً على عادتهم وجللوه بثياب الحداد ، فيراهم الناخبون وهم مقيمون فى أماكنهم العالية ، وإذ ذاك يأخذون الشخص الذى وقع عليه الاختيار ويُسلمونه إلى الفرسان بديلاً من السلطان الراحل الذى يرفعون جثمانه ويدفنونه فى الجبل بما يليق به من الاحترام ، بينما يمضى الآخرون بمولاهم الجديد وهم يعلنون خضوعهم له وسط الاحتفالات الفخمة والأفراح العظيمة ، وحينذاك يأتى الناس على شتى طبقاتهم واختلاف فئاتهم حاملين الهدايا ، فيحضر البعض اللآلىء ، والبعض الآخر الأحجار الكريمة الغالية القيمة أو الصولجانات الذهبية ، كل حسب المنطقة التى يقيم فيها أو التى ولد بها .

* * *

ولقد أخبرنى نيكولا دى كونتى أيضاً أن أحسن أنواع القرفة تنمو فى جبل سيلان هذا ، وأضاف إلى ذلك أن به نوعاً من الفاكهة أشبه بالقرع الكبير المستدير ، بداخله ثلاثة فواكه منفصل كل منها عن الآخر ، ولكل منها مذاقها الذى يميزها عن سواها .

كذلك أنبأنى نيكولا عن شاطىء بحرى لا يكاد سلطمونه يصل إلى الأرض ويتعرض للهواء حتى يستحيل إلى حجر ، وأشار أيضاً إلى إقليم من أقاليم الجماعات الوثنية به مكان شهير للحج ، وقد حدث أن وضعت عنده إمرأة توأمين ما كادا يخرجان من بطن أمهما حتى حجبا عيونهما بأيديهما قائلين إنهما يكرهان العيش فى عالم شرير كهذا العالم ، وانطلقا إلى جبل عاشا به حتى وافتهما منيتهما ، فظهرت فى الموضع الذى مات به أحدهما بحيرة كبيرة ، وفى مكان موت الآخر بحيرة طين ضخمة ، يلقى الناس فيهما بأنفسهم ، ويموتون بهما قائلين إنهم ماضون للخلود .

وهناك أناس آخرون يرغبون فى أن يخلفوا بعدهم ذكرى بأسهم حتى يُعرف أولادهم بأبناء الرجال الصالحين ، فيعمدون إلى صنع جهاز أشبه بالمقص الكبير ، ثم يضعون رءوسهم بين شقيه ويطبقونهما بالأقدام فتجز رقابهم (٧٦) .

كذلك أنبأنى نيكولا دى كونتى أنه رأى قوماً يأكلون لحوم البشر ، فكان هذا أغرب ما طالعته عيناه ، وليكن مفهوماً أن هذا تقليد وثنى ، تَبيد أنه شاهد نصارى يأكلون لحوم الحيوانات نيئة دون طهى ، فإذا فرغوا منها تحتم عليهم أكل نوع معين من العشب ذى رائحة عطرية نفاذة وذلك فى مدى خمسة عشر أو عشرين يوماً ، فإن تأخروا عن تلك المدة ابتلوا بالجذام .

* * *

وعلمت أيضاً أن « بريسترجون » أراد أن يعرف أين منابع النيل ، فأعدّ السفن وأنفذ الرجال ، وجهزهم بالطعام الوفير ، وأمرهم أن يعودوا إليه بخبر منبعه ، فسافروا وشاهدوا كثيراً من البلاد والشعوب الغريبة والحيوانات غير المألوفة ، مما يعد أعجوبة من الأعاجيب الكبرى ، فلما استنفذ هؤلاء الرجال كل ما معهم من المئونة انكفئوا عائدين دون الوقوف على ما جاءوا من أجله ، وأصبح « بريسترجون » منكسر الخاطر كل الانكسار ، ثم راح بعدئذ يستشير من حوله عما إذا كان فى إمكانه إرسال رجال لا يهلكون إن عدم الطعام ، فأمر قومه بأن يأخذوا أطفالا صغاراً منعهم من شرب اللبن ونشأهم على السمك النيء (وهو أمر ليس بالمستغرب إذ يروى أولئك الذين يذهبون إلى غينيا أن الوثنيين فى هذه الجهات لا يأكلون سوى السمك النيء) ، فلما اشتد عودهم وبلغوا مبلغ الرجال جهزهم بالقوارب والشباك ، ونهاهم أن يعودوا إليه — مهما كانت الظروف — دون الخبر اليقين عما خرجوا من أجله ، فانطلقوا لطيتهم مصعدين فى النهر ، مارين بأقطار شتى ، وجهدو ألاّ يتصلوا بأحدٍ مخافة أن يحال بينهم وبين وجهتهم ، حتى بلغوا بحيرة أشبه ما تكون بالبحر فى اتساعها ، فصاقبوا الشاطىء وداروا حوله كله عساهم يجدون منبع الماء الذى تخرج منه هذه البحيرة ، فجاءوا فى النهاية إلى فتحةٍ تدخلها المياه ، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى سلسلة جبلية كبيرة شاهقة الارتفاع شديدة الانحدار ، تبدو وكأنها قد نحتت من الصخر ويعجز الطرف عن إدراك قمتها ، وبها فتحة واسعة يتدفق منها الماء .

وإلى جوار هذا الجبل وعلى اتصال به سلسلة أخرى تطاوله ارتفاعاً ، ويسير على العين رؤية الماء وهو منحدر منها ؛ فاعتزم الرحالة أن يرسلوا أحدهم لتقرير

الخبر ، غير أن الذى صعد الجبل رفض – كما يقولون – العودة أو حتى الرد على الأسئلة بعد أن شاهد مايداخله ، وإذ ذاك بعثوا بآخر سواه فكان شأنه شأن سابقه ، فلما رأى الآخرون ذلك ، وأنه من المستحيل عليهم أن يصيبوا من الخبر فوق مالديهم خلفوا هذين الاثنين وراءهم على الجبل بعد أن عجزوا عن ردهما، وانكفؤوا عائدين سالكين الطريق الذى قدموا منه ، وقصوا على ملكهم كل ماجرى لهم ، وأنبأوه أنه ليس وراء ما وصلوا اليه من كشف ، بعد أن اتضح لهم أن الله لايريد أن يعرف الآدميون أكثر مما يعرفون ، وأنه – سبحانه – أغلق دونهم السر على هذه الصورة .

* * *

كذلك ذكر « نيكولادى كونتى » أنه شاهد قوماً على الفطرة لم تجر عادتهم على أخذ مهر من زوجاتهم حين اقترانهم بهن ، لكن إذا حانت منية الرجل قبل زوجته صار لزاماً عليها حرق نفسها على الهيئة التى يحرق بها الوثنيون جثث موتاهم ، أما إذا جاء الزوجة أجلها أولا فلا إثم على الزوج ولا جناح عليه إن لم يحرق نفسه ، وحجتهم فى ذلك أن المرأة خلقت لخدمة الرجل ولم يخلق الرجل لخدمتها ، وإن هلك الرأس فلا قيمة للتابع الذى لايستحق أن يذكر حتى باللسان .

وإذا مات الرجل وضعوا جثمانه فى المكان الذى أعد لحرقه ، ثم تبرز المرأة فى أبهى زينتها قائلة إن ذلك لزفاف أحسن من الأول ، وأنها ستصحب زوجها إلى الأبدية فى البقعة التى يكون بها ، وتعم الفرحة الناس ويقبلون على الفنساء ، وتشاركهم هى وأهلوها هذا السرور ، ويتساءلون عما إذا كان هناك من يريد أن يبعث معها رسالة لمن فى العالم الآخر وهى موشكة على المضى

إليه فى رفقة بعلها ، ثم يجردونها من ثيابها ويلبسونها ثوباً قاتماً أشبه بالكفن ، وينشدون فى أثناء ذلك المراثى والأغانى الحزينة ، بينما تطوف هى عليهم جميعاً مودعة إياهم ، وترقد إلى جوار رجلها موسدة رأسها ذراعه اليمنى ، ويقولون هم فى الختام أشياء كثيرة أهمها أن الزوجة يحق لها أن تعيش طالما تكرمها هذه الذراع وتدافع عنها ، ثم يضرمون النار فى كليهما فتمضى إلى هلاكها قريرة العين مطمئنة النفس .

وثم مكان آخر يمارس القوم فيه نفس العادة ولكن مع شىء من الاختلاف ، وذلك أنهم يسألون المرأة حين عقد الزواج عما إذا كانت تريد أن تحرق أم لا ، فإن قبلته كانت عليها طاعة التقليد المذكور آنفاً ، أما إن رفضته كان عليها أن تقدم مهراً ، فإذا مات بعلها أقيمت نفس الحفلة ، حتى إذا جاء وقت الحرق وضعوا مكانها غطاء رأسها ، وتنازلت عن مهرها لورثة زوجها .

وينظر القوم إلى من يرفضن الحرق على أنهن زوجات شريرات غير شرعيات ، ويقال إن أمثال هؤلاء قليلات جداً ، حتى إن واحدة رفضت أن تحرق فغادرت البلد خجلا ، وجاءت لتعيش فى القاهرة حيث رآها نيكولادى كونتى بها .

* * *

وأخبرنى نيكولادى كونتى أنه مازال معه أشياء كثيرة ومقادير ضخمة من اللآلىء والأحجار الكريمة رغم امتداد يد النهب والسرقة إليه ، ولكنه كان أشد حرصاً على كميات العقاقير الطبية التى كانت معه بكثرة لاتقدر قيمتها ولقد أرانى ياقوتة عظيمة القدر ، وكذلك قطعة مستديرة من الخوص بلغت من الرقة حداً يضارع أرق أنواع الحرير ، وقد سألنى أن أدله ــ إن رده الله سالماً إلى بلاد النصرانية ــ عن أحسن الأسواق إقبالا على تجارته ، فأخبرته أن

الإمبراطور كان فى حرب ضد ملك بولندة ولم يعد إلى بلاده إلا منذ أمد قريب خالى الوفاض إلا من ثروة تافهـة ، وأن فرنسا أفقر من هذا من جراء حروبها الدائمة ، وأن القوم فى إيطاليا ــ وهو أدرى منى بذلك ــ لا يشترون شيئاً قط إلا ليعيدوا بيعه ، وزدت على ذلك بأنه يبدو لي أنه واجد فى إسبانيا خير سوق تنفق فيه تجارته ، لاسيما من جراء ثروة مليكنا العظيمة ، ولأننا نخرج على الدوام من جميع حروبنا منتصرين ولم نعرف الهزيمة قط ، وذكرت له أن أهلها موفورو الثراء ، وأنهم أكثر من غيرهم تقديراً لهذه الأشياء . ومن ثم عقد عزمه على الذهاب إلى إسبانيا .

وسألته عما إذا كان قد تأتى له أن يرى وحوشاً على هيئة آدمية كالتى يروى البعض أخبارها ، فيذكرون أن هناك رجالا ذوى ساق واحدة وعين واحدة ، أو أقواماً لا يزيدون عن ذراع طولا ، أو طوالا كالرمح ، فأجابنى بأنه لم يصادف قط شيئاً من ذلك ، ولـكنه رأى وحوشاً على هيئة موغلة فى الغرابة ، فقد شاهد فى إحدى البلاد الوثنية فيلا كبير الحجم أبيض كالثلج فى لونه وهو أمر جد عجيب ، لأن الفيلة غالبا ما تـكون سوداء ، وهم يشدونه بسلاسل من الذهب إلى عمود ، وينزلونه منزلة الأرباب والآلهة ، كذلك رأى حماراً جاءوا به إلى بريسترجون لا يزيد عن كلب السباق حجما ولـكنه متعدد الألوان ، وكذلك كثيراً من الحـصـن المقرّنة وغيرها من الحيوانات التى يستغرق وصفها أمداً طويلا ، كما أنبأنى أنهم يقيمون أبراجاً على الفيلة التى يستعملونها عند خروجهم للقتال .

* * *

أما « بريسترجون » وقومه فـكاثوليك صالحون ومسيحيون طيبون كما فى كل ناحية أخرى ، ولـكنهم لا يعرفون شيئاً عن كنيستنا الرومانية ولا يخضعون لحـكمها ، ويقال إن هذا الملك موفر جداً ، حتى لو أن أعظم

رعاياه ارتكب عملا يستحق عليه الموت فإنه يبعث إليه خادماً برسالة يأمره فيها بالاستسلام للقتل على يد هذا الخادم ، وإذ ذاك يستجيب هذا المظلوم لذلك الخطاب ، وسرعان ما يخفض هامته ويستقبل الموت .

وأخبرنى نيكولادى كونتى أيضاً أنه رأى سيداً جليلا جاء بهدية كبيرة من الذهب إلى بريسترجون وكان فخوراً كل الفخر بما أحضره إليه ، وأسرف فى الكلام متباهياً أن لم يسبقه أحدما للقيام بمثل هذا العمل ، مما حمل بريسترجون على أن يصدر أمره فى الحال بقتله ، قائلا إن هذا القتل هو أجلُّ ما يستطيع أن يكافئه به ، وأن للموت ليس بالقليل لهذا السيد .

* * *

وعرفت أيضاً أن الناس فى تلك النواحى بارعون كل البراعة فى فنون السحر ، وقد رآهم دى كونتى وهم مبحرون فى البحر الأحمر يتشاورون مع الشياطين ، وأنبأنى أنه شاهد عن بعدٍ شبحاً أسود مبهماً يتحرك على طول الصارى الأكبر لإحدى السفن ، وإذا ذاك ناشد البحارة الشبح السكون وسألوه « ماذا ترى من أمر رحلتنا ؟ » فأجابهم الشبح « ستلقون ستة أيام هادئة هدوء الموت ، يكون الجو خلالها أشبه ببحيرة من الزيت ، ولكن يجب أن تهيئوا أنفسكم لأيام تبلغ فيها العواصف ذروتها » .

وقد وصف دى كونتى سفنهم بأنها أشبه بالبيوت الكبيرة ولكنها ليست مجهزة أبداً كسفننا ، فهى ذات قلاع تتراوح مابين عشرة واثنى عشر قلعاً وبداخلها صهاريج كبيرة من الماء لأن الرياح ليست قوية جداً ، وإذا كانوا فى البحر لم يخشوا شيئاً من الجزر أو الصخور ، وتحمل هذه السفن شتى أنواع

المتاجر التى تتسلمها القوافل منهم من جـدة حيث يتخذونها ميناء يفرغون به شحناتهم.

وأخبرنى دى كونتى أن مكة أضخم من أشبيلية مساحة ، ولا تخضع لأى حاكم إلا لصاحب شرعهم الذى يعتبرونه بابام ، كما أنهم ينظرون إلى السلطان كأنه إمبراطور ، وبالمدينة مسجد من أعظم المساجد فيه جسد محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وقال بعض الهنود الذين جاءوا إلى هناك من أثيوبيا أيضاً أنهم استطاعوا سد مياه النيل الذى يجرى من الهند إلى الحبشة ثم ينساب فى جميع أرجاء مصر حتى يبلغ البحر الأبيض المتوسط ، والذى ينقسم إلى فرعين يبلغ أحدهما البحر قرب الإسكندرية ويصل الآخر إلى دمياط ، فإذا توقفت هذه المياه عن الجريان أجدب القطر وهلك سكانه أجمعين .

* * *

وعلمت من نيكولا دى كونتى أن بريستر جون كان يستبقيه على الدوام ببلاطه ، مستفسراً منه عن العالم المسيحى ، والأمراء وأقطارهم ، وما يشنونه من الحروب ، وقد أتيح لنيكولا أثناء إقامته هناك أن يرى بريستر جون ينفذ مرتين سفراء من قبله إلى الأمراء المسيحيين ، وإن لم يسمع عما إذا كان « بريستر جون » قد تلقى أية أنباء منهم ، إلا أنه رأى الاستعدادات التى اتخذها بريستر جون للوصول بجيشه إلى بيت المقدس ، والرحلة إليها أبعد كثيراً من الرحلة إلى أوربة .

* * *

وقد رأى دى كونتى الكنيسة التى يرقد بها جثمان توما الذى بشر بين الهنود وهداهم للنصرانية ، كما أشار أيضاً إلى ما يحدث إبان ارتفاع النيل من تساقط البرد الوارد من الجنة الأرضية والذى يسمونه بمطر الصبار ،

وحدث فى زمن القديس توماس ـ حين راح يبشر بالنصرانية ـ والناس منصرفون عن دعوته أن نزلت بالنيل شجرة ضخمة جرفتها المياه إلى هذا المكان ، فمضى الناس إلى حاكمهم والتمسوا منه أن يقوم بنفسه ويشاهد أعظم معجزة فى الدنيا وهى أكبر شجرة صبار رأتها العين ، فنهض الملك فى الحال ، فلما أبصرها أمرهم بحملها على الثيران ولكنهم عجزوا عن تحريكها ، وإذ ذاك أشار بقطعها ولكن الآلات لم تعمل فى خشبها ، وكان القديس توماس الرسول موجوداً هناك حينذاك ، فأخبرهم أنهم إذا تعمدوا وآمنوا بالرب — مُبْدِع هذه المعجزات وصانعها — فإنه وحده سوف يرفعها بنفسه ويحملها إلى حيث شاءوا ، فأجابه الحاكم أنهم سوف يؤمنون جميعاً بالله إن فعل ذلك ، وإذ ذاك رسم القديس توماس الصليب ، وأمسك بالشجرة وحملها إلى الناحية التى أشاروا عليه بها ، فلما رأى القوم هذه المعجزة تعمدوا عن آخرهم وتنصروا ، وحينئذ أخذ القديس الشجرة ونشرها ، وأقام كنيسة اتخذ سقفها منها ولا يزال جثمانه بها حتى الآن ، كما لا يزال الهنود حتى اليوم يقدسون الرسول توماس تقديساً عظيما ، حتى أنهم يأخذون تراب الناحية المدفون بها ويصنعون منه كرات صغيرة يحملونها على الدوام فوق صدورهم ، قائلين إن فى تناول حبة واحدة من هذا التراب غنية عن تناول القربان إذا لم يستطيعوه لحظة موتهم ، وقد أعطانى نيكولادى كونتى خمس حبات أو ستا ، أعتقد أننى لا زلت محتفظاً بها إلى اليوم .

وأهل القارة الهندية أشد سمرة منا ، ولكن الأحباش أكثر منهم اسمراراً ، وتظل هذه السمرة فى الازدياد حتى نبلغ الزنوج السود الذين يعيشون عند خط الاستواء الذى يسمونه بالمنطقة الحارة .

الفصل الحادي عشر

الوصول إلى القاهرة. قصة بطرس الرندى .
الجلوس للحكم بين الناس . الحياة
فى شوارع القاهرة

. . .

استغرقت رحلتنا خمسة عشر يوماً نظراً للمشقة الكبرى التى صادفتنا فى القيام بها ، بيد أن النشوة التى أحسستها وأنا أنصت إلى ما أفضى به إلىّ نيكولودى كونتى من الأخبار الشائقة أذهَبَتْ عن نفسى كل إحساس بالجهد الذى عانيته فى السفرة ، حتى إذا تهيأ لنا الدخول إلى القاهرة اتفق الرأى بيننا على أن نلتقى كل يوم فى كنيسة «سانت مارتا» مثوى جثمان الطوبارى القشتالى المعروف باسم بطرس الرّندى الذى سأشير إليه فيما بعد .

ألحت الضرورة علينا تنسيق هذا الترتيب بيننا لأننى كنت ماضياً للإقامة مع كبير مترجمى السلطان ، على حين أنه كان على نيكولودى كونتى أن يُفتش له عن سكن بين المسلمين ، ولما بلغت دار مضيفى هشّ لى وتلقانى بفرح شديد ، كما لو كنت ابناً له خرج من صلبه وقد آب إليه بعد طول غياب .

وفى اليوم التالى مضى « نيكولودى كونتى » لمقابلة السلطان وشكى إليه عدم اكتراث الأهالى بعهد أمانه ، كما شكى إليه الأسلوب الذى اصطنعوه لإرغامه على الإسلام ، وذكر له أنهم سلبوه ما معه ، فاستمع السلطان إلى ذلك كله وقد استبد به الضيق ، وبذل جهده فى استرضاء خاطر دى كونتى بما أولاه إياه من عطف كثير حتى لقد جعله كبير مترجميه ، منزلا إياه نفس منزلة كبير المترجمين الآخر ، ومنحه داراً يقيم بها وأقطعه أملاكا بالقاهرة .

فلما كان اليوم التالى قدم دى كونتى إلى الكنيسة التى اتفقنا على التلاقى بها ، وأفضى إلىّ بجميع ما جرى بينه وبين السلطان وما فعلوه له ، وأنه — وقد أصبح يشغل وظيفة تابعة للسلطان — أضحى قادراً على التجوّل فى البلد كيفما شاء وعلى زيارة الموانئ البحرية ، ومن ثم فأمله كبير أن تُبلغه معونة الرب هو ورفقته البلاد المسيحية سالمين ، وإذ عرف أننى ماض إلى البندقية سألنى أن أحمل بضع رسائل معينة إلى من هناك ، ورغب فى الوقوف على اليوم الذى أعتزم فيه الرحيل ، فأنبأته أننى شفقت على نفسى بكثرة السفر ، ولا بد لى من اللبث حيث أنا مدة تقرب من عشرين يوماً أو ثلاثين ، وهذا هو ما فعلته ، ولم أشغل نفسى خلال هذه الفترة — إلا قليلا — بغير مشاهدة مناظر القاهرة فى رفقة نيكولودى كونتى وكبير المترجمين ، وأعنى به مضيفى القشتالى .

. . .

وقص علىّ مضيفى ذات يوم ما كان قد جرى بين مولاه السلطان الراحل وبين قشتالى يدعى بطرس الرندى كان فى أصله قرصاناً يتجرّم فى البحر ، فكثر التفتيش عنه فى تلك المياه ، غير أنه هُزم فى أحد الأيام وأسرته سفينة إسلامية ، فلما أصبح فى يد المسلمين عارضهم فى بعض الطريق قرصان قشتالى آخر وكسرهم ، واستولى على المركب وفيه بطرس الرندى الذى عرفه القرصان [القشتالى] ، وإذ كان يعلم ما لبطرس من ذيوع الشهرة وعظيمها فقد رأى فك قيده وتزويده بسفينة ومبلغ من المال لقاء قطعه العهد على نفسه بملازمته إياه على الدوام ومرافقته الجماعة أنى سارت ومحافظته على وعده هذا . فأجابه بطرس الرندى بما لقيَته تلك الفكرة فى نفسه من استجابة وترحيب ،

غير أنه اشترط عليه ألاّ يرفعا سيفاً فى غير وجه المسلمين ، وألا يهاجما النصارى قط برًّا بقسم أقسمه من قبل على ذلك ، فرضى الكتلانى بما أراده بطرس ، واتفق معه على هذا المسلك ، ثم قدما إلى جزيرة رودس ، حتى إذا أعدّا بها كل ما يلزمهما فى مخاطرتهما ركبا البحر مستهدفين قتال المسلمين، وأسرا كثيراً من شوانيهم ، واشتدّ الخوف بالمسلمين حتى لقد كفّوا عن مهاجمة المسيحيين ، ودوت شهرتهما بصورة أفزعت منهما المسلمين حتى لكأنهما كانا أميرين من أكبر أمراء النصارى يتحرّمان فى البحر .

واستمرت الحرب وسارا على نهج اختطاه من أنهما إذا عدما أحداً يسلبانه فى البحر ألقى أحدهما مراسيه براً وطرق البلاد بينما أخذ الثانى فى حراسة السفن ، وفى ذات يوم من الأيام أرسى الكتلانى فى دمياط بغية الهجوم عليها ، بيد أن جموعاً كثيفة من المسلمين نهضت لقتاله ودَفْعه ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت وسُدّت أمامه السبل وأحيط به من كل جانب ، فلما شاهد بطرس الرندى من سفينته ما حاق بالكتلانى بادر لساعته ميمّما شطر الساحل قاصداً نجدته ، لكنّ المسلمين كروا عليهما بجموعهم الكثيفة كرة عنيفة فوقعا فى أيديهم وحملوهما إلى السلطان الذى ما كاد يعلم أنهم قد جاءوه بهذا القرصان الشهير الذى أنزل الخراب الكثير بالمسلمين حتى فرح فرحاً شديداً ، وراح يسأل بطرس الرندى عما إذا كان هو نفس الرجل الذى طالما أضرّ بالمسلمين ، فلم ينكر بطرس ذلك ، فعاد يستفسره عن السبب الذى من أجله سلك هذا السمت ، فأجابه بطرس بأن الذى حمله على ذلك هو أن المسلمين أعداء الدين ، وهل كان يدور بخلد السلطان أن يدع بطرس المسلمين فى راحة وينهب المسيحيين ؟

وحينذاك رسم السلطان بمجازاة بطرس بما فعل ، وإظهارا للعدل الإلهى رسم بأن يجب بطرس الرندى عقيدته ، وأن يعترف بخطاياه ، وأن يعتنق الإسلام وبذلك يعفو عنه السلطان ويهبه عطفه ، بيد أن بطرس الرندى أجاب بأن كل غُنم قد يصله به السلطان لا يعوضه — مهما ضخم — عن خسران روحه ، فلما رأى السلطان ذلك الإصرار منه أمر بقطع رأسه هو وصاحبه، فلما رأى الكتلانى الموت دانياً منه بادر إلى إعلان إسلامه ، ومن ثم جاء بطرس الرندى إلى السلطان سراً وقال له « مولاى : سأسلم إن مكنتنى من الثأر لنفسى بقتل رفيق هذا » فاستجاب له الملك مسروراً ، فانتحى بطرس الرندى جانباً بالكتلانى وقال له « يا صديق نحن لا نستطيع الآن تخليص نفسينا لأن السلطان قد أجمع العزم على قتلنا حتى ولو نبذنا ديننا ، فإن كان الأمر كذلك خدعنا نتلق الشهادة من الله غفراناً لخطايانا وجباً لآثامنا » ، فرأى الكتلانى الصواب فى ما قاله بطرس ، وعلته الفرحة ، وسرعان ما استسلم للموت على يد بطرس الرندى الذى قال له السلطان حينئذ : « لقد أوفيتَ بعهدى ذلك فأوف بعهدك لى » فأجابه « أيها السلطان لم أفعل ذلك إلا إنقاذاً لروح زميلى إذ بلغ الضعف بجنانه حداً حمله على قبول الإسلام ، أما الآن فافعل بى ما بدا لك » ، فأجابه السلطان « أخلص فى خدمتى ، وافعل ما آمرك به ، وصاحبنى فى القتال ، وعلىّ أن أهبك حياتك » ، فأجابه بطرس الرندى « على ألا تحارب النصارى » ، فرضى السلطان وقال له « أعدك ألا أضمك موضعاً تحارب فيه المسيحيين ، ولكننى موليك أمر جميع من فى خدمتى من النصارى ، وخالع عليك من الخلع كثيراً إن أنت أخلصت الخدمة لى » ومن ثم قيد نفسه بعهده .

وأمر السلطان بإعداد بيت له وأنفذ إليه من يقومون بخدمته وأجرى

عليه راتباً ، واستدعى أيضاً أحد كبار أمرائه وعهد إليه بالمحافظة على بطرس الرندى ، ويقولون أيضاً — أكثر من ذلك — ، إنه بينما كان السلطان يعد العدة للرجوع إلى المدينة بعث فى طلب هذا الأمير ، حتى إذا صار فى حضرته قال له « صِلْ هذا النصرانى بما يكفيه هو ومن معه من الخمر ، ولا تقصر فيما يطلبه منها حتى لا يستشعر الحنين إلى وطنه » .

هذا ما رواه لى المترجم الذى كنت أسكن معه هادفاً من وراء ذلك إلى تعظيم مولاه السلطان ، وإلى إدخال السرور على نفسى بطيب الأحدوثة عن قشتالى من أبناء جلدتى وجلدته .

ولما مات هذا السلطان بادر خلفه إلى الأمير المسئول برعاية بطرس الرندى ، وأمر بأخذه معتزماً قتله ، غير أن ذلك الأمير فرّ مع بطرس واستخفيا عن الأعين ، فأمر بالتفتيش عليهما ، فلما جىء بهما إليه أمر بطرس الرندى بترك دينه واعتناق الإسلام ، فما استجاب له الرندى ولا سمع قالته فقطع رأسه ، وحمل المسيحيون جسده ودفنوه فى كنيسة فى القاهرة تدعى كنيسة سانت مارتا ، وأظهر كثيراً من المعجزات .

• • •

أعد يوم للفصل فى القضايا فكان كما يلى :

جىء بثلاثة رجال للقتل فسألت عما اقترفوه ، فأفضى إلىّ المترجم بأن اللصوص سرقوا فى الليلة الماضية أحد الصيارفة ، ولما كان هؤلاء الثلاثة جيرانه ولم ينتبهوا للصوص ولم يعنوا برعاية بضائع جارهم عنايتهم ببضاعتهم الخاصة فقد حكم عليهم بالموت ، فقلت له « إن يكن الأمر كذلك فإنه يبدو لى أنكم تدينون من لا ذنب له ولا جريرة ، وتأخذون البرىء بخطيئة الآثم ، وذلك

قضاء يتطوى على القسوة » .

فأجابنى المترجم « مهلا يا صاحبى ، فإننا شعب كبير العدد جداً هذا إلى أن الرب يزيدنا فى كل يوم ، فإذا لم نوقع العقوبات على كل من الجانى نفسه والنظارة لم يتأت لنا العيش ، ونحن لا نقيم العدالة فحسب ، بل نجد من الضرورى أن ننفذها بطريقة فظة لا تعرف الرحمة إليها سبيلا » .

• • •

إن أحسن وأبهى وأروع شىء يراه المرء فى القاهرة هو سوقها الذى تعرض للبيع فيه أكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند ، لاسيما اللآلىء والأحجار الكريمة والتوابل والعطور والحرائر والبضائع التيلية ، وكل مشموم طيب الرائحة ، وليس فى القدرة تعداد جميع السلع التى يؤتى بها إلى هنا من الهند ثم توزع فى مختلف أنحاء العالم ، وهنا السوق الرئيسى لجميع تلك الأنواع التى وصفتها .

* * *

وهناك طائفة معينة من الرجال يذرعون شوارع القاهرة جيئة وذهاباً وقد ثبتوا المرايا إلى صدورهم ، وهؤلاء هم الحلاقون الذين يحلقون رؤوس المسلمين ويزينون وجوههم ، وهم يمرون فى الشوارع منادين على صناعتهم ، وكذلك بعض السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة وهم يصيحون : « من يريد الزيانة ؟ » وهؤلاء هم الذين يقومون بخدمة النساء اللائى يردن النظافة سراً فى الحمامات .

ولكل حاجة تجارها فى الشوارع يسألون عما إذا كان ثمة من يحتاج إليهم ، حتى إن الطباخين ليغدون جيئة وذهاباً حاملين المواقد والنيران وأطباق المحشى المعدة للبيع ، على حين ترى سواهم حاملين صحاف الفاكهة ،

وعدداً كبيراً من السقائين يروحون ويجيئون لبيع المياه التى يحملونها على ظهور الجمال والحمير أو فى القرب على ظهورهم ، وذلك لكثرة عدد الناس ولا سبيل إلى الماء إلا من النهر .

وفواكه الصيف ناضجة أشد النضج ، ولقوة حرارة هذا الفصل البالغة فإن الله قد منح الناس كل ما هو ضرورى ، فحين يشتد القيظ وتستعر الحرارة تهب فى أوقات معينة نسائم قوية جداً حتى لتؤثر فى العيون ، ويبدو كثير من الناس كأنهم سكارى ، ويجدون فى هذه الفواكه خير وقاية وعلاج ، أما فيما سوى ذلك فالقطر صحى جداً ، وكل ما فيه من هواء وماء ولحوم : طيب كريم ، والإبل فى هذه النواحى شديدة الضخامة وجميلة وإن لم تكن سريعة الحركة ، أما الحمير فأكثر المطايا لطفاً وأحسنها منظراً وأسرعها فى المشى ، ويعنى القوم بتجهيزها باللجم والبراذع .

الفصل الثانى عشر

« الإسكندرية . نيقوسيا . الرحيل إلى قبرص . »

« موت رئيس الاسبتارية »

« انتخاب خليفته »

. . .

مكثت فى القاهرة ثلاثين يوما ثم غادرتها بعد أن استأذنت السلطان « ونيكولودى كونتى » الذى سألنى أن أوصل إلى البندقية بضع رسائل حملنى إياها ، كما استأذنت مضيفى كبير المترجمين وزوجته وأطفاله الذين عاملونى كما لو كنت واحدا منهم ، ووصلونى بكثير من الهدايا التى أخذتها معى لاسيما قطتين هنديتين و ببغاوين وبعض العطور وأشياء أخرى ، من بينها فيروزج لا أزال محتفظا به ، كما زودونى أيضاً بأنواع من الزاد للاستعانة بها فى رحلتى.

غادرت القاهرة وركبت النيل، حتى إذا بلغت المكان الذى يتفرع عنده إلى فرعين تركت الفرع الأيمن الذى يؤدى إلى دمياط التى كنت بها من قبل ، ونزلت فى الفرع الآخر، حتى أدركت مكانا قريباً من الإسكندرية اسمه «رشيد»، ومنه وصلت إلى الإسكندرية ، وهى مدينة رائعة جداً فبقيت فيها ثلاثة أيام أتملى من المكانين المقدسين اللذين ولدت و بأحدهما سانت كاترين واستشهدت فى الآخر الذى رأيت فيه سردابا سدّ القوم بابه ، ويقال إن به العجلة التى شدّوها إليهـــا .

والمدينة ميناء بحرى عظيم ، ومكان كبير لاستقبال النصارى القادمين والراحلين على السواء ، ولما شاهدتها مليا سافرت برا إلى دمياط ، لكنى لم

قف على أثر السفينة التى أعطانيها ملك قبرص ، مما اضطرنى للبقاء ثمانية أيام فى انتظار وصولها لأنها كانت قد أبحرت مصاقبـة للشاطىء حتى بلغت بيت المقدس .

أو إذ أنفذت إلى والى دمياط ماحملته إليـه من رسائل السلطان وكبير للترجمين فقد تلقانى بالاحترام العظيم ، كما بعثت أسأله عما اذا كان لديه جلد تمساح لأرسله إلى ملك قبرص استجابة لسؤاله ، فقدم إلىّ جلد تمساح اصطاده حديثاً ، غير أن رائحته كانت شديدة الـكراهية ، ولم يكن أحبّ الى نفسى من أن آخذ معى ابنة الوالى اللطيفة بدلا من حمل جلد هذا التمساح ، وعلى أية حال فقد ركبت السفينة التى اتخذت باسم الله فى البحر مجراها حتى وصلت بعد سبعة أيام مدينة « ألباف » فأرسيت بها ، وكانت مكاناً أبعد مايكون عن الصحة ، ووافق يوم وصولى بالذات موت أحد الأساقفة واثنين من رجاله ، وحمدت الرب على أننى لم أكد أضع قدمى على الأرض حتى كان فى استطاعتى الرحيل على مطايا الأسقف ومعاونيه ، ومضيت قدما إلى بلاط ملك قبرص فى نيقوسيا ، وقد سبقنى المترجم الذى أمدنى به الملك ليعلن مقدمى الى الملك وكبير أساقفته ، فبعثا إلىّ يطلبان منى البقاء تلك الليلة فى أحد الفنادق ، حتى إذا انبلج صباح اليوم التالى لقيانى لقاء يتمثل فيه التشريف ، وكان الأمر كما قالا .

وصادفت فى الصباح — وأنا فى طريقى إلى القصر — كثيرين من كبار رجال البلاط الملكى الذين خفّوا لاستقبالى وصحبونى إلى حضرة الملك[٧٧] ، فلما وصلت إلى هنالك ألفيته هو والـكردينال ومعهم طائفة كبيرة من الأعيان ، فتلقونى أحسن لقاء وأحاطونى بالرعاية والمودة حتى لـكأننى قد ولدت بينهم ، وحمـدوا الله على سلامة عودتى بعد هذه

الرحلة الطويلة المدى ، وشكرونى نيابة عن الملك لما قمت به من الخدمة له ، وقدّموا لى كل ما طلبت ، ثم استأذنت الملك ، فاستصحبنى القائد الذى كان حاضراً المجلس وأخذنى إلى محل إقامته كما حدث فى المرة السابقة ، حيث أكرمت وفادتى إكراماً عظيماً .

وفى صباح اليوم التالى حدثت ضجة كبيرة بين الناس ، وهرع كل واحد إلى حمل السلاح حتى الكاردينال نفسه وأخته السيدة إينيس وكثيرون من كبار رجالات المملكة : ثورةً على الملك ، هادفين من وراء ذلك قتل أحد أصفيائه ، فإن لم يستطيعوه فأسره ، وكان اسمه « يعقوب جيرى » الذى كان يتولى منصب القضاء ، وإذ ذاك هرب الملك إلى حصن من الحصون الواقعة فى أحد أطراف المدينة يسمّونه « بالقلعة » ، بيد أن الثائرين حاصروها مطالبين الملك بعزل صفيّه من البلاط ومنعه مدى عام من العودة ، فأقسم الملك على ذلك وبرّ بما وعد ، فانفض الناس إلى بيوتهم .

فلما كان اليوم التالى بعث الملك فى طلبى وسألنى – فى حضرة الكردينال وجماعة من النبلاء – أن أتسلم منه كل مايرضينى ثمناً لرحلتى ، فأجبته بأننى لقيت من رعايته الكثير الذى يكفينى ، وأن عندى من المال مايسد نفقات عودتى ، والتمست منه أن يأمر القوم بمنحى ضمان مرور وتجهيزى بسفينة لحملى إلى رودس ، وأخذت أتهيأ للرحيل ، وأخذ هو من جانبه يعمل على تعويقى ، إذ رغب فى أن أبقى مدة ثمانية أيام على الأقل ، فلم أجد حيلة إلا الرضاء بما أراد ، بعد أن أدركت أن فى استجابة هذه الرغبة ما يسرّه ويرضيه ، وفى أثناء هذه الأيام الثمانية أخذت أعظم قسط من الراحة ، وجهز القوم مركبا لحملى ، ثم أذن لى الملك فى المغادرة (وإن كان ذلك الإذن فى

فى الحقيقة على كره منه) وزودنى بشماره الذى لازلت محتفظا به ، وأمدنى بعشر قطع من قماش وبر الجمال والتيل الجميل ، وأعطانى فهداً ومقادير ضخمة من الزاد تكفى مدة عام أستعين بها فى رحلتى إلى رودس .

وفى أثناء وجودى هناك وفد على الملك سفيران : أحدهما من ناحية دوق سافوى ، والآخر من قِبل أحد أدواق ألمانيا ؛ وكلاهما يعرض على الملك أن يزوجه ابنته إن رغب الملك فى ذلك ، ولم أسمع خاتمة هذين العرضين ، بيد أنه يقال إن زواجا آخر قد تم وقد تلهف على إتمامه كبير فرسان رودس نيابة عن إحدى بنات كونت أرجيل فى أراجونه ، وهى أخت زوجة الأمير دوق «بدرو» الوصى على عرش البرتغال ، وبدى لى أن المشروع الذى كان أدنى إلى نفوس أعضاء مجلس الملك هو الزواج بابنة دوق سافوى ، وأعتقد أن هذا هو المشروع الذى تهيأ له النجاح [٧٨] .

• • •

وملك قبرص ما زال شابا فى السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، ضخم البنيان ، غليظ الساقين غلظا حتى ليكاد سمنهما عند العقبين يبلغ محيطهما عند الفخذين ، ولكنه رقيق الحاشية ، على جانب كبير من الإدراك والفهم لايتكافأ مع صغر سنه ، كما أنه شديد المرح ، قوى البنية والتركيب الجثمانى ، وهو أبرع ما يكون فى ركوب الخيل ، ولو لم يكن بلده غير صحى لأسعدنى أن أعرض عليه نفسى للقيام بخدمته فترة من الزمن ، بيد أنه يكاد يكون من المستحيل على الغريب أن يعيش فى مثل هذا القطر المنكود ، فكانت هذه العوامل وغيرها تحتم علىّ العودة إلى قشتالة للمساهمة فى حربها ضد المسلمين ، ومن ثم اضطررت لمتابعة رحلتى بأسرع ماوسعنى الجهد .

غادرت مدينة نيقوسيا وبلغت « سيرينا » حيث كان فى انتظارى مركب أعد لنقلى إلى رودس .

وسيرينا مدينة قديمة أسسها أخيل وسميت باسمه ، وهى - رغم صغرها - منيعة الجانب محصنة الأسوار ، ولها مرفأ طيب وإن لم يكن بالكبير ، وأمامه سلسلة تغلقه وتمنع الدخول إليه ، وتقوم على هذا المأصر حراسة قوية ، وكان الملك قد هرب هو والكردينال وعمه والسيدة إنيس وكثيرون سواهم إلى هذا المكان حيث وقع الملك جانوس فى الأسر ، (٧٩) وهو أصح أصقاع جزيرة قبرص حين تهب عليها الرياح الغربية ، وقد وجدتُ فيه سفينة تجارية هى التى أمر الملك بإعدادها لنقلى إلى رودس ، وأخرى معها محملة بالمتاجر ، فغادرنا المرفأ ؛ حتى إذا كانت الظهيرة بلغنا طرف «رأس بيفانى» ، وإذ ذاك خرجنا إلى البحر عن طريق خليج « ساتاليا » المؤدى إلى تركيا ، غير أنه قبيل الساعة الثانية أبصرنا غرابًا تركيًا قادما تجاهنا وفى نيته الاستيلاء علينا وتحطيمنا ثأراً لإحدى سفنهم التى كان الكتلان قد أخذوها خارج ميناء قبرص ، فنشرنا الشرع وأعملنا بكل قوانا بالمجاديف ، وفعل الأتراك فعلنا ، ولم نتراخ فى خلال ذلك عن الدعاء والصلاة ، ولكن أيدينا كلت من التجديف ، وكان معى بحار من إحدى المراكب الكتلانية قتل ابن أخى الربان ، وقد حكم عليه بالشنق بصارية المركب ، إلا أن الحبل انقطع لثقل وزنه ، فالتمست من الربان أن يهبنى إياه سيما وأن الرب قد فعل الكثير له ، فقبل الربان طلبى ، وكان هذا وسيلة نجاتنا ، إذ كان هذا الكتلانى بحاراً ماهراً فأسرع بالقارب مخففا إياه مما عليه حتى استطاع الإقلاع قدما أحسن من الأول ، إلا أن المركب الآخر المحمل بالبضائع لم تطرح شحنتها فأبطأت

وراءنا ، حتى إذا كان وقت الغروب وقعت فى قبضة الأتراك وأغرقوها هى وجميع بحارتها .

وفى أثناء الاضطراب الذى أعقب هـــذا الحادث توفر لدينا الوقت لنزيد قليلا من المسافة التى تفصلنا عن العدو ، فلما شرع الظلام يمد طنبه على الأفق أشرعنا أكثر ما يستطاع إشراعه من الشرع ، وأخذنا أماكننا إلى جانب المجاديف ، وعملنا ماوسعنا الجهد ثم طوينا القلاع حين أرخى الليل سدوله ، واستدرنا يمينا فى هدوء حتى لا يسمع صوت المجاديف ، وإذ ذاك مر الغراب التركى دون أن يرانا رغم أنه كان على مقربة كبيرة منا ، وقال البحار إنه ينبغى علينا أن نغير وجهة سيرنا لأن الغراب لابد وأن يرسو فى انتظارنا ، واعتقدنا صحة قوله لأن مركبنا كان صغيراً جداً ،وأننا فى أيديهم ، ومن ثم انطلقنا إلى عرض البحر ورأينا الغراب يدنو من الساحل ، وإذ انتصف الليل هبت الريح الجنوبية ، وأخذت الأمواج تدفعنا إلى الأمام تارة وإلى الوراء أخرى ؛ ولكم كنت أوثر أن أقع فى أيدى الأتراك من أن أغوص فى أعماق البحر ، وأرادوا منى أن أقذف بواحد من رجالى من على ظهر المركب بيد أننا دافعنا عن أنفسنا دفاعا قويا ، وإذ اندفعنا أمام العاصفة فقد اندفعنا إلى « قشطيل الروج » ووصلنا إلى هناك فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ووجدنا أن الغراب التركى قد غادره قبلنا بساعتين ، فأرسينا هناك بمرفأ صالح ، وتسلقنا القلعة ، وأخذنا فى الاستجمام بعد أن كتبت لنا النجاة من خطر كبير .

وقلعة قشطيل الروج هذه فى أيدى فرسان رودس ، وهى جزء من ولاية أرمينيا رغم أنها جزيرة صخرية شديدة الوعورة ولا يستطيع أى حيوان تسلقها ، أما عند السفح ـــ عند المدخل إلى الميناء ـــ فتوجد بعض مناجم الملح التى تغل دخلا كبيراً لفرسان رودس .

غادرنا جزيرة قشطيل الروج وأخذنا سمتنا إلى رودس ونحن مازلنا فى

خوف مقيم من هذا الغراب التركى، كما صادفنا جوا قلبا ، بيد أننا بلغناها فى مدى يومين ودخلنا الميناء ، وذهبت أنا للإقامة مع الأخ « نينودى كابريرا » وهو فارس عظيم قشتالى المولد ، كما أنه أحد فرسان القديس يوحنا وإن يكن أكثرهم جميعاً ثراء وأعظمهم شهرة ، فتلقانى بسرور زائد ومودة كبرى ، وعاملنى أندى معاملة ، وأحسب أنه لولا الرقة التى أمدنى بها لمتُّ بعد ماتكبدته من المشاق ، بل إننى ما كنت لأجد فى بيتى الخاص أكثر تقوى أو أحسن خدمة مما وجدت عنده .

وفى غداة وصولى ذهبت لرؤية السيد الأكبر أنطونيو[81] فلوفيان كبير فرسان الاسبتارية لأناوله الرسائل التى حملنى إياها ملك قبرص إليه عن شئونه ، وصحبنى الأخ « نينودى كابريرا » وغيره من الفرسان القشتاليين والفرسان التابعين لأمم أخرى ، لاسيما الفرنسيون الذين هم كثيرو التعلق بشعبنا ، فلما وصلت إلى هناك وجدت السيد الأعظم وقد اشتدت به العلة شدة تدنيه من الخطر ، وكان يشكو من آلام فى الكبد ، ولكنه سرعان ما أنفذ ردوده إلى ملك قبرص ، فاستأذنته وعدت إلى حيث أقيم ، وقد مات السيد فى تلك الليلة من علته ، وبينما كان يعالج سكرات الموت جاءه ــ كما هى العادة ــ القادة والمعترفون وفئة معينة من فرسان المجلس وسألوه بحق قسمه وبضميره أن يسمى لهم الشخص الذى يريد استخلافه من بعده رئيساً أعظم للفرسان ، وأن يكتب اسمه ويختمه بخاتمه حتى يبقى سرا ؛ ثم أخذوا خطه ووضعوه فى مكان أمين حتى لايعرف أحد مضمونه سوى المعترف ، وجرت عادتهم أنه إذا مات السيد عمدوا إلى فض الورقة المختومة ، فإذا جاء وقت انتخاب خليفته عدَّ صوت السيد المتوفى ــ كما يقال ــ بصوتين .

دفن هذا السيد يوم وفاته فى ساعة القداس ، وكانت المراسيم الجنائزية تتفق وشخصه ، وحمل نعشه كبار الفرسان على أكتافهم وهو مجلل ببساط الرحمة الأسود ، وسار أمامه وخلفه ركب طويل ، أما الذين لم يتسن لهم الوصول إلى النعش فقد ضمّوا أيديهم إلى بعضها ، وكان السيد الأعظم مرتديا ملابسه كعادته متقلداً سيفه ، ومهمازاه على قدميه ومسبحته فى يده ، ودفنوه على هذه الهيئة ، ثم أمروا بعدئذ بغلق جميع الأبواب وأجلسونى فى حجرة أو صدوها من الخارج ، وأعطونى طعاماً للأكل ، أما رجالى الذين معى فقد أرسلوهم إلى المدينة مدثّرين كمألوف عادتهم وقد تمنطقوا بسيوفهم جرياً على سُنّتهم ، ودخلو الكنيسة لانتخاب الرئيس الجديد الذى يتم — كما يقولون — على هذه الطريقة .

وأخذوا من كل أمة من الأمم التى يتألف منها الفرسان ثلاثة أشخاص هم فارس وقسيس ورجل علمانى أو أخ خادم ، ويوكل أمر اختيار هؤلاء الثلاثة إلى جميع الحاضرين الذين يبدأ كل منهم فى الاعتراف وتناول القربان ثم القسم على الآثار المقدسة التى عندهم بأنه سوف يقيم اختياره على أساس من الطيبة والصدق ، كما يقسم المختارون أيضاً بأنهم سينهجون نهجاً رائده الخير والحق فى من يقع عليه اختيارهم ، ثم ينتخبون ثلاثة عشر فرداً من الذين يقومون بدورهم — باختيار سبعة يقسم كل منهم باتباع الحق ، ثم يسجل اسمه — دون أن يكلم زملاءه — فى ورقة مطوية ويضعها على مائدة أمام هذا المعترف الذى — كما قلت — يمسك بصوت السيد الراحل . ويتم هذا فى حضور جميع الفرسان ، وحينذاك يقوم المعترف فيتلو الأسماء التى آثرها السبعة

واسم من رشحه السيد الأعظم ، ويعتبر صوت السيد - كما قلت - بصوتين ، فمن نال الأغلبية أصبح الفارس الأعظم .

بقى الجمع ملتئما طوال ذلك اليوم وكذلك الليلة التالية حتى الفجر ، وقد اعتقدوا جميعاً - بل وقالوا - إن قائداً أعظم كان حاضراً هناك لابد وأن يصبح السيد ، وأنه لم يكن ثمت داع لإجراء إنتخابات ، وبهذا كان من المؤكد اختياره ، وحدث قبل أن يطلع الفجر بساعة أن سمعت ضجة كبرى دوت بها الكنيسة والمدينة معاً وصحبها دق الأجراس ونفخ الأبواق ، فجاءوا إلىّ فى حجرتى التى أغلقوها علىّ وحملونى إلى الكنيسة ، وقد انتظم الكل فى الموكب فجعلونى أحمل « ريشة » الجماعة إلى المذبح الكبير ، وصاح الشخص الذى يحمل أسماء المنتخبين : « أدوا الشكر لله ، فإن سيدكم هو من أهل أوفرن[٨١] » ، وعلى الرغم من أن الظلام كان لايزال سائداً إلا أنه أمكن رؤية كثيرين وقد اصفرت وجوههم حسد وغيرة .

فلما تم ذلك غادر الجميع الكنيسة ، وكان النهار قد تبلج نوره ، فذهبنا بعدئذ إلى مقر الجمعية وفتحوا الأبواب ، وانطلقنا إلى المدينة مع جميع الناس ووضعنا الريشة على برج البناء ، وكان السيد الجديد فارساً قديماً قد أخلص فى خدمة نظامه وعلى جانب كبير من الفضيلة ، فلما كان اليوم التالى تشاوروا فيما بينهم وأمروا أن يبحثوا عنه ، وسلحوا أربعة مراكب رحلت ميمة فى الحال شطر « أوفرن » حيث كان موجوداً ذلك السيد الذى اختير كبيراً لفرسان الاسبتارية .

والواقع أن وقوع أى خطأ أو عيب فى هذا الانتخاب يكون مدعاة

للدهشة ، ذلك لأنهم يقيمونه على أساس بعيد كل البعد عن التحيز أو الصداقة أو الكراهية ، هذا إلى أن الجمعية موقرة جداً وجليلة القدر ، وهناك كثيرون من أعاظم الرجال الذين يكونون على الدوام مستعدين للدفاع عنها وحمايتها وذلك أمر لامناص منه لمجاورة القوم للترك من ناحية ولسلطان مصر من ناحية أخرى ، ومن ثم كانت سلامة النظام وأمن الطائفة تتوقف على شجاعة المدافعين عنه .

الفصل الثالث عشر

« السفر إلى القسطنطينية . غرق السفينة . القتال بين الكتلان »

« والجنوية ، وصول سفارتين من بيزنطة »

« بعض الجزر والمدن »

. . .

كانت هناك سفينة راسية فى ميناء « إيقونا » برودس تعاقدت مع ربانها على نقلى إلى القسطنطينية ، ومن ثم أبحرنا ووصلنا إلى جزيرة «ساموس» الواقعة فى بحر الأرخبيل، تاركين على يميننا قلعة « سنت بدرو » الموجودة فى الأرض التركية الأصلية ، وعلى يسارنا جزيرة « كوس » التابعة لفرسان «القديس يوحنا» برودس، ثم ركبنا سفينة تابعنا بها سفرتنا إلى جزيرة خيوس، فلما بلغناها أخبرونا بأن السفن والأغربة التى جاءت من « المجمع » لحمل إمبراطور اليونان إلى أوروبة قد ألقت مراسيها فى ميناء خيوس ، فقردنا شرعنا وأبحرنا والجزيرة على يسارنا ، غير أن الريح لم تجر بما نشتهى مما أرغمنا على إلقاء مراسينا بجانب الجزيرة ولبثنا هناك تلك الليلة، حتى إذا كان الصباح أبصرنا غرابين كبيرين يقتربان منا وبصحبتهما قاربان خفيفان ، فلما حاذونا أمرونا بالعودة إلى خيوس وإلا قاتلونا ، وما كان لنا إلا أن نستجيب لهم ولم نعص لهم أمرا أو نقاومهم، وقد فعلوا هذا حتى لا نقف على سر ما يفعلون،ذلك لأن الجنويين قد أخذوا هذه الأغربة وسلحوها قاصدين الذهاب إلى الإسكندرية لأخذ غرابين كتلانيين بها هما« كازاساجس» و«سوفينت» ، ومن ثم يكن لنا من حيلة إلا العودة بالسفن والرسو بالميناء ، وبقينا به طول اليوم ، فلما انتصف

الليل هبت عاصفة هوجاء ، وبينما كنا نكافح بلا أمل انفلت مركبنا من الحبل وعلق بسفينة كبرى كانت النار قد التهمتها من قبل وغرقت منذ وقت بعيد خلال الحرب التي كانت مشبوبة الأوار بين البنادقة والجنوية ، وبقيت بعض أجزائها ظاهرة للعيان فوق سطح الماء ، فاصطدمت بها سفينتنا وتحطمت وسقطنا في اليم ، وكان الوقت إذا ذاك نهاراً ، على أن البحارة الذين استبد بهم الفزع من شدة هيجان البحر استطاعوا الوصول إلى الشاطيء بعد لأى مشقة ، أما أنا فقد بقيت — أثناء غرق السفينة — في الماء متشبثا برمث طاف على سطحه ، وإذا ذاك أصدر بعض السادة الذين كانوا هناك (وهم نيكولادى مينون والربان وبعض الأساقفة والسادة الفرنسيون) أمرهم بإنقاذى ، لكن لم يجرؤ أحد على الأقدام على هذه المخاطرة ، غير أن بعض البشكنس تناولوا قاربا صغيراً من أحد الأغربة وقدموا نحوى ثم عادو إلى اليابسة ، وكانت الروح قد بلغت التراق من الماء والبرد إذ كان الوقت عيد الميلاد ، وقد وجدت أسقف « فيزوا » بالبرتغال[٨٢] فأخذنى معه وقام بتجدنى ، وهنا سمع السادة الفرنسيون منى نبأ موت كبير فرسان رودس ، ثم جاءت ثلة من فرسان النظام ومعهم قائد الأخ الأعظم « بولاك » ، ولما هدأت العاصفة وسكن البحر أخذوا هذا القائد إلى رودس في أحد الأغربة وأصبح مارشالها ، وكان هو نفس الشخص الذى جاء برسالة[٨٣] البابا إلى قشتالة ثم فقد فيا بعد إحدى عينيه ، ولم يكن فقده إياها حين قابلته ، وكان فارساً رائعاً جداً ورجلاً خفاق الشهرة .

بقينا في خيوص حتى نهضت الأغربة لقتال الكتلان حيث أبحرت إلى ميناء الإسكندرية فلما بلغته وجدتهم هناك ، وقد التحم الجمعان ، وتمكن الكتلان من إغراق إحدى السفن ، وأما الغراب الآخر — وهو أكبر من الغريق

وأشدّ قوة منه ـ فقد كان للأسرى، وظل الفريقان يحارب أحدهما الآخر طول النهار والليل، والمسلمون يشاهدون القتال، فلما كان الفجر هبت من ناحية البر ريح طيبة فركب الكتلانيون البحر وانطلقوا، ولم يجرؤ الجنوية على متابعتهم لما أدركوه مقدماً من المضرّة اللاحقة بهم إن اشتبكوا وإياهم في قتال على أديم الماء، وحينذاك مضى الكتلانيون إلى رودس وعاد الجنويون إلى خيوس حيث كنا لانزال موجودين، ولما سحبنا سفينتنا إلى الشاطئ أعدنا ترميمها وإن فقدنا ما أوسقناها به من البضائع، كما ضاعت مني أشياء كثيرة جلبتها معي من الشرق، وأخذ السفراء سمتهم وغادروا الميناء ومضوا إلى «المجمع» الذي كان منعقداً إذ ذاك وأرسوا في «نيس» عقاطعة بروفانس، وكانت هذه السفارة إحدى ثنتين جاءتا لنقل إمبراطور اليونان للحصول على تفاقه مع «المجلس الكنسي»، وكانت سفارة بالغة الزينة والروعة مؤلفة من رجال أحسن القوم اختيارهم، غير أن خبر مقدمها ما كاد يترامى إلى سمع البنادقة ويروا التحامل الكبير الذي أثير ضد البابا أيوجين ـ الذي هو في الأصل من أبناء تلك المدينة ـ حتى بعثوا بسفارة ثانية إلى الإمبراطور، والتقت السفارتان في القسطنطينية وأشرعتا السلاح تأهباً لقتال كل منهما الآخر، وحينذاك أعلن الإمبراطور أنه لن يمضي مع أي واحدة منهما اعتزاماً منه الرحيل على ظهر سفنه الخاصة، وسألها مغادرة بلده وعدم اعتراض سبيله وإلا أضرب عن الرحلة وكفّ عن السفر، فاستجابا له، ومضى مندوبو سفارة المجمع الكنسي إلى خيوس، بينما اتجه البنادقة اتجاهاً خيل للناس معه أنهم يريدون المضيّ إلى البحر الأسود، ومع ذلك فقد تم الاتفاق بينهم وبين الإمبراطور، إذ ما كاد الأولون يرحلون حتى قدموا هم وأخذوا الإمبراطور في مدى أيام قلائل وحملوه إلى ميناء البندقية(٨٤) بإيطاليا .

أقمت في جزيرة خيوس هذه عشرين يوماً عاطلاً بلا عمل أقوم به ، ثم شددت الرحال إلى تركيا مبتعداً كثيراً عن تلك الجزيرة حيث بلغت مكاناً يسمى « فوجافكيا » الذى يقولون إنه أحد موانى تركيا حيث توجد به جالية جنوية ، وقابلت في هذا الميناء صديقاً لى كنت قد عرفته في إشبيلية ، وإذ كان يتمتع بشيء من النفوذ بين الأتراك فقد سألته أن يرسل معى أحد رجالاته إلى طروادة وأن يستأجر لى جياداً ، فلبى طلبتى ، وسافرت عن طريق البر مدة يومين وصلت بعدهما إلى مكان يزعمون أنه طروادة ، بيد أننى لم أجد أحداً ما تمكن من إمدادى بأية معلومات عنها ، ثم جئنا إلى « ايليام » كما يسمونها وهى بقعة بحرية مواجهة لميناء « تنيدُوس » ، ويزدحم هذا القطر بأجمعه بالقرى التى يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، ويعتبر الأتراك المبانى القديمة آثاراً لا يصح أن تمتد إليها يد الهدم ، ولكنهم يقيمون منازلهم بجوارها ، وكان الذى جعلنى أعرف أن هذا المكان هو فى الواقع طروادة القديمة هو منظر مثل هذه المبانى العظيمة الدائرة وكثرة الرخام والأحجار ، وكذلك هذا الشاطىء وقد أطلّت عليه من الجهة المقابلة ميناء « تينيدوس » وقيام تل كبير كأنما هو أثر لصرح مشمخر قد هوى ، ولم أستطع معرفة شيء أكثر من ذلك فعدت الى خيوس حيث ألفيت سفينتى قد أعيد ترميمها بصورة مكنتنا من الإبحار فى مدى يومين .

وتغل جزيرة خيوس هذه كميات كبيرة من الصمغ ، وقد سكنها الجنويون الذين سلبوها من الفرسان ويسمى حكامها أنفسهم بالمايونيز[٨٥] ، ولما كان هؤلاء الفرسان عاجزين عن الدفاع عن ذلك المكان فقد ارتضوا دفع الجزية للجنوية الذين يرفعون علمهم هناك والذين هم فى حاجة إلى هذه الجزيرة فى رحلاتهم إلى سواحل الشام وإلى الدردنيل .

* * *

غادرنا المكان وركبنا البحر، فأخذتنا من كل جانب عاصفة هوجاء أصابت المركب بعطب كبير ما لبث الملاحون أن تداركوه — وهم بارعون كل البراعة فى هذا الفن — فبذلوا جهدهم حتى أصلحوه على خير وجه ممكن، ومن ثم سافرنا تاركين على يسارنا جزيرة « ميتلين » وهى فى حوزة الجنويين أيضاً ، وثنينا برأس «سنت ماريا» وبلغنا جزيرة «تينيدوس» فألقت السفينة مرساها وغادرناها إلى البر .

وفى أثناء إصلاح العطب الذى ألمّ بالسفينة مضينا قدما لمشاهدة الجزيرة التى كانت تبلغ مساحتها قرابة ثمانية أميال أو تسعة، وهى مليئة بالأرانب البرية ، وتزخر بساحات الكرم ولكنها جميعها قد فسدت ، وتبدو ميناء تينيدوس حديثة البناء حتى لكأنما قد شيدها اليوم حذاق، وقد رصفت بالأحجار الكبيرة وقامت بها الأعمدة الضخمة، وهنا تجد السفن خير مرفأ لها، ورغم توفر أمكنة أخرى صالحة لرسوّ السفن إلاّ أن هذا الميناء هذا هو أصلحها كلها لوقوعه تجاه مدخل مضيق الدردنيل .

ويطل على الميناء تل كبير قد علته قلعة شديدة الحصانة كانت فيما مضى سبب كثير من النزاع الناشب بين البنادقة والجنويين ، مما حمل البابا على الأمر بهدمها حتى لا تكون فى يد أحد الفريقين ، غير أن هذا العمل كان بلا شك أبعدما يكون عن محجة الصواب لأن الميناء من أحسن مرافىء العالم ، إذ لا يتأتىّ لسفينة ما أن تدخل المضيق دون أن تلقى مراسيها أولا هناك لتتلمس المدخل لشدّة ضيقه ، ومن ثم فإن الترك الذين يعرفون كثرة عدد السفن التى تصل إلى هناك يسلحون أنفسهم ويتربصون ثمت بالمسيحيين ثم يثبون عليهم فيقتلونهم. ومن هنا يستطيع المرء مشاهدة كثير من مبانى طروادة ، كما أن جماعة معينة من الإغريق الذين يعيشون هناك يقومون بنقل الأخبار عمّا يجرى فى ذلك المكان.

رحلنا فى اليوم الثانى، ووصلنا المضايق الشديدة الضيق، وتتسم المياه فى الجانب التركى بشدة الضحولة، وتسمى هذه المضايق بالدردنيل، وهنا يوجد باب طروادة وميناؤها ، أما مياه الشاطىء اليونانى فشديدة العمق ، ويقوم به برج « فيتبريو » حيث وجد أخيل مع « باتروكولس » أو كما يقولون هكذا كان يراد . والمضايق فى هذا المكان ضيقة جداً مما ييسّر على المرء فى اليوم الصفو أن يشاهد راية منصوبة على الجانب الآخر ، وهكذا تابعنا السير عبر هذه البرازخ وخلّفنا بعض المدن على الجانبين التركى واليونانى، ووصلنا إلى مدينة جاليبولى، وهى مكان بديع ومرفأ جيد ذو قلعة رائعة ، وكان هذا أول ناحية استولى عليها الترك حينما اكتسحوا اليونان ولم يهدموا الحائط والقلعة بل تركوهما قائمين ـ وهو أمر لم يفعلوه فى أية بقعة أخرى ـ حتى إذا حدث ودارت عليهم الدائرة استطاعوا النجاة .

. . .

غادرنا جاليبولى وجئنا إلى بحر « مرمرة » وهو عبارة عن بحر دائرى داخل الأرض يبلغ عرضه قرابة ثمانية فراسخ، ويسمونه « مرمره » لأنهم يجلبون منه إلى القسطنطينية كل المرمر الذى تحتاجه هى وأسوارها ، وهذا البحر فى يد الإغريق ، ومن هنا وصلنا الى بلد يدعى « اريجلى » وأخرى يسمونها « سلمبريا » وهما المكانان اللذان سمح الترك للإمبراطور أن يبقيهما فى يده فى الأزمنة السالفة عطفاً عليه ولمعاونته لهم .

وفى رحيلنا فى فجر اليوم التالى رأينا جبلا شاهق الارتفاع يبعد عنا أكثر من مائة ميل ، وأخبرونا أنه جبل القديسة صوفيا بالقسطنطينية ، وجئنا إلى مكان يبعد قرابة ميلين عن المدينة حيث قضينا به ليلتنا تلك، وفى الصباح التالى أرسلت

القارب إلى مدينة بيريه لأفضى بنبأ مقدمى إلى ربان إحدى السفن واسمه «جوان كارو» وهو من أهل أشبيلية ومن أصدقائى الخلص وأعرف أنه موجود هناك فى بيريه، فقدم هو وأصحابه فى زوارقهم لتحيتى، وأردت أن أتوجه فى الحال لأقدم احتراماتى للإمبراطور، غير أنهم ألحوا على كثيراً قائلين إننى أجللهم بالعار إذا لم أذهب أولا إلى بيريه حيث توجد دورهم، وأنه هذا واجب يتحتم على أداؤه، فنزلت أنا ورفاقى فى قوارب القشتاليين، وجاءت سفينتنا معنا ودخلنا ميناء القسطنطينية وغادرناه، ومضينا فى سبيلنا ثم أرسينا عند رصيف «بيريه»[٨٦] وهو من أحسن الأرصفة فى العالم، وتستطيع أية سفينة ـ مهما كانت ضخامتها ـ أن ترسو هناك فى مياه عميقة صافية، وأن تلقى بسلالمها على اليابسة، فأرسيت فى صحبة القشتاليين وكذلك مع أصدقاء آخرين من أمم مختلفة وذهبنا لأداء الصلاة بالكنيسة، ووجدت الوالى البيزنطى الذى يحكم المكان فاستقبلنى استقبالا طيباً، مستفسراً إياى عن أخبار الغرب، وقرر أن كل ما أحتاج إليه لابد وأن يجاب فى الحال، ومن ثم رحلنا، وأقمت مع الربان القشتالى حيث لقيت استقبالا فخما فى الواقع، وحين وصلت إلى هناك ألقيت هدية ضخمة من النبيذ والطيور أرسلها إلى الوالى.

وفى اليوم التالى قدم لرؤيتى القشتاليون المقيمون فى القسطنطينية وبيريه، وتذكرت منهم جماعة رأيتهم فى قشتالة ومن بينهم «ألفون دى ماتا» وصيف مولانا «دون جوان» حفظه الله، فالتمس منى أن أقدمه إلى إمبراطور طرابيزون لأنه كان قد قدم مع سفراء المجمع الكنسى وإن كان قد غدى الآن فى مؤخرة القوم، ثم تحادثت مع الإمبراطور[٨٧] رغم أنه هو الآخر قد أصبح غير ذى موضوع، فقد نفى من وطنه مع أخته إمبراطورة القسطنطينية فقبل رجائى واتخذه من رجال حاشيته، وأعطانى فى نفس اليوم قوساً وسهماً لازلت محتفظاً بهما.

الفصل الرابع عشر

القسطنطينية . الإمبراطور يوحنا باليولوجس . أسرة طافور .
قصة الحرب الصليبية الرابعة . استقبال طافور
فى البلاط . مغادرة الإمبراطور إلى أوربة .

. . .

بعد أن أقمت مدة يومين مستجما ذهبت لأداء مراسيم الاحترام لإمبراطور القسطنطينية وبصحبتي جميع القشتاليين ، وارتديت أحسن مالدى ، وازَّيَّنْتُ بشعار فرسان « إسكاما »(٨٨) وهو رنك الملك جوان ، وأرسلت فى طلب أحد مترجمى الإمبراطور ويسمى « جوان الأنيلى» القشتالى المولد ، ويقال إن الإمبراطور قد اختاره مترجماً لأنه كان ينشد له على الأرغن أغنيات قشتالية .

صحبنى المترجم إلى القصر الإمبراطورى ، وذهب ليعلن إلى الإمبراطور خبر قدومى لرفع فرض الاحترام الواجبة له ، وأبقونى فى الانتظار مدة ساعة بعث الإمبراطور خلالها فى استقدام بعض الفرسان واستعد لمقابلتى، ثم دخلت القصر وبلغت ردهةً أبصرته فيها جالساً على عرش وقد بسط تحت قدميه جلد أسد(٨٩) ، وهناك أديت فروض الاحترام للإمبراطور وأنبأته أن مجيئى إنما كان بقصد رؤيته ومشاهدة مملكته وللتعرف على بلاده وكبار رجالاته؛ وإن كانت علة حضورى الأولى رغبتى فى اسكتناه حقيقة نسبى الذى أنبئت عنه أنه نبع فى الأصل من هذا المكان، وأن لى عرقا يمتّ لعرقه الإمبراطورى بوشيجة القربى، وشرعت فى إخباره عن الطريقة التى قيل إنها سارت عليها ، فأجابنى فى الحال بأنى واجد كل ترحيب، وأنه مسرور جداً لرؤيتى، أما ما حدثته عنه بشأن أصلى فقد أمر

بإحضار السجلات القديمة حتى يتضح الحق الصراح عن كل شيء ، وسألنى عن أخبار البلاد المسيحية وأمرائها لاسيما فيما يتعلق بمولاى ملك أسبانيا وعن دولته وحربه ضد المغاربة ، فأفضيت إليه بكل مالدىّ من المعلومات ، ثم استأذنت منه فى الانصراف ودلفت إلى حيث أقيم .

وفى اليوم التالى بعث فى طلبى سائلا إياى أن أمضى للصيد، وأرسل الجياد لى ولمن معى ، فمضيت فى صحبته ومعنا شريكته الإمبراطورة التى كانت موجودة إذ ذاك ، وأخبرنى يومئذ أنه وقف على الأمور التى أردت الاستفسار عنها، وأنه سيأمر حين عودتنا من الصيد بأن يخبرونى عن كل مايتعلق بها فشكرته، فلما كان المساء أبنا من صيدنا وترجلنا عن جيادنا، وأرسل هو يطلب أن يمثل فى حضرته أولئك الذين كلفهم بالبحث عن استفساراتى ، فلما جاءوه قالوا إنه حدث فى القديم (ولا أذكر الوقت بالضبط) أن أحد أباطرة القسطنطينية بعث فى أنحاء بلاده أمراً يقضى بأن يدفع النبلاء الضرائب ، وأن يؤدوا ماعليهم من الالتزامات والخدمات، وأن يقوموا بإنجاز ذلك كله شأنهم فى هذا شأن العامة ، ونظراً لأن هذا العمل قد عدّه النبلاء إساءة لهم وافتآتا على حقوقهم فقد بحثوا الأمر مع ابنه الأكبر ووريثه ، وأغروه بالوقوف فى صفهم والتحدث إلى أبيه الإمبراطور فى وجوب تجنّب كل مامن شأنه أن يترك وراءه ذكرى كريهة واسماً بغيضاً ، ذلك لأن اقتراحاته فى هذا الصدد كانت ضد النظام والعدالة ولن تؤدى بالنبلاء إلا إلى إرغامهم على حمل السلاح ضده، وهو سبيل لا مناص لهم من السير فيه إذا ما أصرّ على تنفيذ أغراضه السيئة ، فاستمع الأمير إلى شكوى النبلاء ووعد أن يبذل كل ماوسعه جهده، ومضى إلى أبيه الإمبراطور متحدثاً ومتوسلا إليه أن يمنعه كرمه من عمل هذا الفعل ضد نبلاء

البلد الذين يعدونه الحاكم، لاسيما وأنهم هم الذين يعينونه فى مهامه ويجلونه ، هذا بالإضافة إلى أنه بمعارضته إياهم يدفع ببلاده إلى خطر جسيم ومشقة كبرى ، ثم حذّره من أنه سيجد نفسه فى النهاية عاجزاً عن فرض إرادته عليهم، فلما صكّ هذا الكلام سمع الإمبراطور تأجج غيظاً واستشاط غضباً على ولده الأمير، وطرده من قصره ، ورحل بنفسه — كما يقولون — إلى مدينة أدريانوبل التى هى اليوم مقر جيوش سلطان الترك وبلاطه ، فلما وصل إلى هناك كان نبأ هذا الأمر قد تردد فى شتّى نواحى الإمبراطورية، وسرعان ماشبت ثورة عارمة حمل لواءها جميع النبلاء وأتباعهم، وتكاتفوا فيما بينهم فصاروا كلهم يداً واحدة وجعلوا الأمير على رأسهم ، ثم قدموا بجيش ضخم إلى القسطنطينية حيث كان الإمبراطور ، واستغرقت هذه الرحلة خمسة أيام تقريباً ، فلما علم الإمبراطور بذلك خرج وعسكر بجميع رجاله ورتبت الصفوف الواحد تلو الآخر ، فأرسل الأمير مرة أخرى يلتمس من أبيه ألا يكون سبباً فى مثل هذا الجرح الدامى والخراب الكبير وإلا فلا سبيل أمامه إلا محاربته إياه ، فازداد غضب الإمبراطور عن ذى قبل قائلا إن الأمور يجب أن تسير الآن كما هى ، وأنه مصمم على ما اعتزم، وجاعلٌ الأمير ومن معه يدفعون حياتهم ثمناً لذلك العمل ؛ فلما رأى الأمير إصراره ، وأن الحرب موشكة على الاندلاع ، إتفق مع أبيه على أن يمضى الإمبراطور إلى القسطنطينية وأن يرجع هو نفسه « إلى أدرينوبل » وأنهما حينذاك لابد أن يصلا إلى شروط ، وفعل الأمير ذلك تحدوه الرغبة فى تجنّب محاربة أبيه وقتاله ، واتفق الجانبان على ذلك، وعاد كلٌ إلى مكانه .

والآن وقد رأى الأمير أن لاسبيل سوى الحرب لفض المشكلة فقد اتصل بأحد الأمراء وهو أخوه ، وحبّب إليه الوقوف إلى جانب الشعب قائلا له إن

الرب لن يمسه بأذى لمحاربته أباه ، وإلا فالأجدى له ألا يقيم ببلد يقع فيه مثل هذا الأمر ، ومن ثم غادره إلى إسبانيا ، وبلغ قشتالة فى الوقت الذى كان الحكم فيه بيد دوق ألفونسو الذى غزا طليطلة ، والذى يسميه البعض بألفونسو ذى اليد المدببة ، وفى هذا المكان الجديد عُرف الأمير باسم « كونت بدرو »، وأنجب إبناً سماه دوق « إستيفان إلان ، فلما رأى النبلاء اليونان أنفسهم وقد حرموا من قائد كهذا القائد — لأنه كان فارساً عظيما — ولأنه أثبت براعته بكثير من الأعمال الدالة على الروعة فى السلاح سواء فى أسبانيا أو قبل رحيله إليها فقد أخذوا أخاه الأصغر — رغم أنه كان لا يزال شابا — وقبّلوا يده، ونادوا به إمبراطوراً على بلاد اليونان، ثم ورحلوا به من مدينة أدريا نوبل بجميع رجالهم المسلحين ، وزحفوا على القسطنطينية قصد إجلاس هذا الشاب على العرش الإمبراطورى ، فلما أنبىء الإمبراطور بذلك فعل مافعله من قبل، فخرج من المدينة لصدّهم ولم يكن ثمت مندوحة عن القتال، غير أنه غُلب على أمره وحاقت به الهزيمة ووقع فى الأسر، وقُتل كثيرون من رجاله وأخذ البعض الآخر، ودخل النبلاء المدينة دخول الظافرين ، وأجلسوا على العرش الإمبراطورى مولاهم الأمير الصغير الذى استقدموه معهم ، وأقاموا حرساً قويا على أبيه الذى مالبث أن مات بعد أيام قلائل من مرضه ، وبقى الأمير يحكم الإمبراطورية فى هدوء ، وجَبَّ القوانين التى فرضها أبوه ، وسنّ أخرى منح بها النبلاء حقوقا أكثر من تلك التى كانوا يتمتعون بها من قبل ، ومن ثم يقال إنه لا يوجد فى أى بلد من بلاد العالم مثيل للحرية التى ينعم بها النبلاء فى اليونان ، وأنه ليس هناك من رعية أكثر خضوعاً من اليونان الذين هم فى الواقع رقيق لطبقة الأشراف ، غير أن خطايا المسيحين أدّت إلى إصابة الرعايا

والنبلاء على السواء بالعبودية المؤلمة نظراً لأن ساداتهم أصبحوا من الترك أعداء الإيمان.

* * *

أما الأمير الآخر فإنه لما جاء إلى قشتالة احتفى به القوم احتفاء كريماً، وتلقاه الملك بالتشريف العظيم، ويقال إن الملك كان يتأهب فى هذا الوقت لشن الحرب على المسلمين، فزوّج الأميرَ من إحدى إخواته الشرعيات، وألقى إليه بمقاليد حكم المملكةَ أثناء خروجه للحرب، ويقال إنه كان فارساً شريفاً، شديدالبأس، بالغ الصراحة، غايةً فى الفطنة، وسموه « دون بريلان »، ويقولون إنه دخل طليطلة وأقام الملك بها، وزيادة على ذلك فإنه هو الذى استرد المدينة وردّها إلى الطاعة حين جاهرت بالعصيان وثارت، فحارب العصاة وقهرهم، ويقولون أيضاً إن هذا هو السبب الذى كافأه من أجله أهل طليطلة بكل هـــذه الامتيازات التى لازال مواطنو طليطلة يتمتعون بها حتى يومنا هذا، ولما مات دفنه القوم فى كنيسة الملوك القدماء فى طليطلة، وحلّوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته، وهى ذات الأسلحة التى يحملها أقوى الفرسان وأجودهم « دون فرنانت الفارس » الطليطلى كونت «أليا» لأنه منحدر مباشرة من صلب هذا الأمير اليونانى الذى جاء إلى قشتالة، كما أننى أيضاً أحمل نفس هذه الأسلحة لأننى أمتّ بعِرْق إلى هذه الأسرة، وأن « دون بيرو روز طافور » الذى دوّى اسمه فى الاستيلاء على قرطبة كان حفيد كونت « دون إستيفان إلآن » الذى هو ابن حفيد الأمير «دون بريلان» الذى أتكلم عنه، وربما كان من الملائم — أن أروى — نقلا عن تاريخ قشتالة — كيف أن الكثيرين منهم — ابناً عن أب — قد تسلسلوا

من هذا النسب حتى الآن ، وإذا كنت أحمل التاريس رَنْكاً على شعارى فقد جاء ذلك عن طريق الزواج ، وقد اختلطت الدرارى فاختلطت الأسلحة بعضها ببعض .

ولما وقفت على كل هذه البيانات سألتُ الإمبراطور عمّا يحول بينه وبين حمل هذه الرنوك التى جرت عادة الأباطرة فيا مضى على حملها ، وأعنى بها أسلحة أسرتى ، فأخبرونى بأنه حدث منذ قرن أو قرن ونصف من الزمان ـ وربما كان أكثر من ذلك ـ أن جهّز البنادقة أسطولا[٩٠] ضخما زعموه قادما لمساعدة الإمبراطور ضد الترك ، حتى إذا قاموا به إلى القسطنطينية أحسن الإمبراطور وجميع اليونان لقاءهم ، فراح البنادقة يقيمون فى شتى رحاب المدينة ، لكن يظهر أنهم كانوا قد دبروا خطة أخذوا فى تنفيذها لأنهم انضموا إلى الأهلين فى ثورتهم ضد الإمبراطور وحاربوه معهم ، وتمت الهزيمة على الإمبراطور لعدم توقعه هذه الخيانة ، ونجحوا فى إخراجه من المدينة وقتل الكثيرون ، فهرب الإمبراطور إلى «للورة» التى كانت تسمى قديماً «أخايا» ، وهى إمارة من إمارات ورثة الإمبراطورية ، واحتل البنادقة المدينة وظلوا بها سبعين عاماً كاملا ، ونهبوا كثيراً من الآثار المقدسة التى حملوها معهم إلى البندقية والموجودة بها حالياً ، ومنها جثمان القديسة هيلينا والقديسة مارينا وغير ذلك كثير ، كما أفسدوا عدداً كبيراً من المبانى الرائعة ، وحملوا معهم عمودين كبيرين كبيرين أقاموا عليهما تمثال حاميهم القديس على شاطىء البحر ، وهما باسقان كالبرجين ومحفوظان حفظاً جيداً حتى ليصعب التصديق أنهما قد نُقلا من قبل[٩١] ، ويوجد فوق باب كنيسة « القديس مرقص » أربعة جياد نحاسية ضخمة قد غشيت بطبقة كثيفة من الذهب ، ويوجد أيضاً حجر الشب والرخام ،

وهذه كلها مما أخذوه من القسطنطينية أثناء احتلالهم إياها ، بل لقد كانوا على وشك نقل الحكومة من البندقية إلى القسطنطينية ، ولم يُقْعِدْهم عن تنفيذ هذه النية سوى نصيحة شيخ طاعن فى السن نهاهم فيها نهياً مطلقاً عن مغادرة المدينة التى وثبوا منها على جميع المدن الأخرى .

وفى أثناء احتلال البنادقة للقسطنطينية (٩٢) مات الإمبراطور وكذلك ولده ، ولم يبق سوى حفيده الذى تزوج إحدى بنات ملك المجر وأصبح فارساً قديراً ، فواعدَ أهلَ القسطنطينية والإقليم المحيط بها على يوم يثورون فيه جميعاً، وأنه سيكون متأهباً بكل ما يستطيع جمعه من قوة لإنقاذ المدينة، فإذا أخذ المدينة آل إليه كل شىء ؛ فكان ما تم الإتفاق عليه .

فلما كان اليوم الموعود ثار الناس ضد البنادقة وحصروهم فى مكان واحد فى المدينة حتى لا يستطيعوا بلوغ سفنهم، وأنفذوا فى طلب الأمير الذى دخل المدينة وأعمل القتل والأسر فى جميع البنادقة وتربع على العرش الإمبراطورى، ودخل الناس عليه أفواجاً مقبلين يده ومنادين به حاكما عليهم ، وأصابوا غنيمة كبير من البنادقة ، كما تسلموا فدية مالية ضخمة منهم ، أما هو فقد ساد حكمه الهدوء، ويقال الآن إن هذا الإمبراطور الذى استرد الإمبراطورية وتولى مقاليدها لم يستطع أحد ما أن يحمله على التخلى عن الأسلحة التى كان يحملها سابقاً، التى كانت ولا تزال على شكل حلقتين متصلتين بعضهما ببعض، وعجز الكل عن إرغامه على حمل الأسلحة الإمبراطورية الخاصة بالعرش ، وكانت حجته على الدوام أنه كسب الإمبراطورية وهو يحمل هذه الرنوك ، ولا يوجد شىء مطلقاً يستطيع حمله على التخلى عنها، ومن ثم بقيت حتى اليوم على ما هى عليه ، ومع ذلك فلا يزال فى الإمكان حتى اليوم رؤية الأسلحة القديمة على

أبراج المدينة ومبانيها وكنائسها ، ولا يزال الأهالى — حين إقامتهم عمائرهم الخاصة — يضعونها عليها .

فلما سمعت ذلك أصررت على أنه يتحتم على الأباطرة حمل هذه الأسلحة طالما هى أسلحة الإمبراطور الحقيقية ، زد على ذلك أنها هى الرمز الذى يؤيد السلطة وليس الأشخاص الذين استردوها، لاسيما منذ أن استعاد الأهلون المدينة ونصبوه حاكما عليهم ، فأجاب الإمبراطور على ذلك بأن المسألة لاتزال موضع أخذ ورد بينه وبين شعبه، فلما وقفت على خبر ذلك كله أفضيت إلى الإمبراطور بما حدث فى إسبانيا، وأخبرنى هو بما حدث هناك .

هذا كل ما استطعت الوقوف عليه عن خبر هذه الأسلحة وما آل إليها أمرها .

ومنذ ذلك الحين أخذ الإمبراطور فى معاملتى بود عظيم كشخص تجرى فى عروقه نفس الدماء التى تجرى فى عروقه هو أيضاً ، وتمنى صادقاً لو بقيت فى بلده وتزوجت واستقر بى المقام حيث أنا ، والحق أنى فكرت فى مثل هذا العمل نظراً لما رويته من قلة سكان المدينة وحاجتها إلى الجنود الأقوياء، ذلك لأن البيزنطيين يقاتلون أمماً بالغة القوة ، وقد وجدت بالمدينة فى خدمة الإمبراطور كثيراً من القشتاليين وجماعات من الأمم اللاتينية الأخرى ، وقد أبدوا لى — طيلة وجودى هناك — كثيراً من التبجيل والتقدير .

وفى ذلك النهار تقدم أحـــد فرسان الأسرة ممن كانوا يوجدون هناك ودعانى لتناول الغذاء فى اليوم التالى فوعدته بإجابة سؤاله ، فلما انقضى القداس يممت شطر بيته حيث ألفيته فى انتظارى وتناولت طعامى معه وقدمنى لزوجته وأبنائه ، وعاملونى معاملة تنطوى على الصداقة الخالصة ، فلما انقضى الغذاء صرف كل من كان حاضراً وذهب إلى حجرته ولبس قميص « إسكاما » وهو شعار مولانا الملك، ثم دخل على وحادثنى بالقشتالية ،

قائلا : « أيها السيد الفارس ، مرحباً بك ، هاهو ذا بيتى بكل مافيه رهن إشارتك كما لو كنت أخى ، فلقد حبانى ملكك بالشرف السامى والمنافع الجة ، كما لقيت كرم الوفادة من فرسان بلدك ، وإذا كنتُ قد أمسكتُ حتى اللحظة عن محادثتك بلسانك بين الناس فمردّه إلى أننا نرى العيب فى التخلى عن لغتنا واصطناع لغة غريبة عنا ، ومع ذلك فنظراً للحب العظيم الذى أكنّه لشعبك والك فقد آليت على نفسى — حين نكون على انفراد — أن أجعل نفسى مثلك قشتالياً فى كل شىء » . ومنذ تلك الساعة عاملنى هذا الفارس بمنتهى الاحترام ، واستقدم إحدى إخواته إلىّ — وكانت إمرأة بارعة الجمال — قائلا إنه يتحتم علىّ — طول إقامتى هناك — أن أعاملها كصديق أحترمه ثم زكّانى لديها ، والواقع أننى أعتقد أنه كان يرغب فى أن أتزوجها ، ولقد منحتنى هذه السيدة أشياء كثيرة ، منها حيوانان أخذتهما معى إلى قشتالة ، أعطيت أحدهما إلى الملك واستبقيت الآخر عندى .

* * *

وفى هذا اليوم بعث الإمبراطور إلىّ داعياً إيّاى للخروج للصيد ، وعدنا بكثير من الأرانب والحجلات والدراج وغيرها من الطيور التى تكثر هناك كثرة هائلة ، فلما رجعنا إلى القصر استأذنت فى الانصراف وذهبت إلى محل إقامتى حيث أمَرَ الإمبراطور بتزويدى بكل ما أناف حاجة إليه ، ولا شك فى أن رغبته قد انصرفت إلى إحاطتى بالشرف وإغداق المنح علىّ ، وراح هو وشريكته الإمبراطورة منذ ذلك اليوم — إذا أرادا منى مصاحبتهما هما وحاشيتهما فى الخروج للصيد — بعثا إلىّ الجياد ذكرين ماهم واجدوه من متعة كبرى فى مصاحبتى إياهم .

وبعد انقضاء خمسة عشر يوماً على زيارتى للقسطنطينية ، رحل الإمبراطور فى

الأغربة البندقية لمقابلة البابا ، وألحَّ علىَّ كثيراً أن أرافقه ، وكان يودّى لو فعلت ذلك لولا أنى كنت مضطراً لأن أرى أولا بلاد اليونان وتركيا وكذلك بلاد التتار ، فلما رأى عجزه عن إقناعى بما يريد أوصى بى زوجته الإمبراطورة وأخاه «دراجس»[٩٣] ـ وكان وريثه فى العرش الإمبراطورى، وقد قتله الأتراك بعدئذ ـ وسافر الإمبراطور فى أبهة عظيمة ، ورافقه فى سفرته هذه إثنان من إخوته وثمانى مائة رجل من الأشراف ذوى المكانة الرفيعة ، وأقيم احتفال عظيم يوم رحيله[٩٤] وانتظم كل واحد فى موكب من مواكب الجمعيات الدينية ، وتلاقى الجميع عند مكان ركوبه السفينة ، كما أن فئة كبيرة ركبت البحر مسيرة سفر يوم إلى جوار الأسطول وكذلك فعلتُ أنا فعلهم ، ثم استأذنت وعدتُ إلى القسطنطينية ، غير أن الإمبراطور أجازنى كارهاً وقال إنه لو كان معى رجالى لما أذن لى فى الرجوع ، ومن ثم تركته ، وسألنى أن أزوره قبل عودتى إلى وطنى ، فوعدته وأنجزت ذلك الوعد فيما بعد .

الفصل الخامس عشر

أدريانوبوليس . وصف السلطان العثمانى .
البحر الأسود . الوصول إلى
طرابزون

. . .

حين عدت إلى القسطنطينية استأذنت من الطاغية دراجس — ممثل الإمبراطور إذ ذاك — فى الذهاب إلى أدريانوبوليس التى هى أعظم مدن اليونان قاطبة باستثناء القسطنطينية حيث كان الترك قد حشدوا بها جيوشهم ، فبعث الطاغية فى طلب فئة معينة من التجار الجنوية الذين كانوا بها وأمرهم بأن يدبّروا لى إمكان رؤية السلطان التركى ودولته وشخصه وأن يضمنوا سلامة عودتى ، وحدث أن كان قد وصل أخو أحد هؤلاء التجار وكان أثيراً جداً لدى الطاغية كما كان فى الصميم من ثقته ، فقبل هذا التاجر — إستجابةً لخاطره — أن يحملنى معه ويطلعنى على كل شيء ، فرحلنا فى مدى ثلاثة أيام سالكين الطريق المؤدى إلى بلاد اليونان ، مارّين ببعض أماكن معينة صغيرة لا حاجة لوصفها هنا ، حتى بلغنا « أدريانوبوليس » بعد رحلة استغرقت تسعة أيام ، فأقمت مع الجنوىّ فى بيته الذى كان بالمدينة ، وبعث السلطان التركى فى طلبى مستفسراً منى عن وقت رحيل الإمبراطور وكيفية سفره وهيئته وفى سفن مَن ، وبينما أنا أفضى إليه بخبر هذه الأشياء تسنى لى رؤيته ورؤية حاشيته وشعبه ، وكان يبدو عليه أنه يناهز الخامسة والأربعين من عمره ، كما كان حسن البنية مليح

القاطيع ، تدل هيئته على الفطنة ، ذا نظرات صارمة ، وتحوطه حاشية رائعة لم يتأت لى قط أن أرى شبيها لها ، إذ كان معه جميع قواته التى تبلغ ستمائة ألف راكب ظهراً ، وإننى لمشير إلى أولئك الذين أمدونى بهذه المعلومات حتى لا أبدو مغالياً فى ما أروى ، والحق أنى أخشى أن أعيد كل ما أنبأونى به ، فلا يوجد قط أى ماش فى أرجاء بلده ، بل يمتطى الجميع صهوات جياد ضامرة بالغة الصغر .

ويقيم السلطان العثمانى وقومه على الدوام فى معسكرات بالميدان : سواء أكان الزمن صيفاً أم شتاء ، وعلى الرغم من شدة قرب المدينة منه إلا أنه لا يدخلها إلا إذا كان فى صحبة حريمه للاستحمام : الأمر الذى تهيأت لى رؤيته بفضل معونة الجنوى ، فقد ذهب السلطان للحمام ترافقه الطبول والموسيقى وبين يديه المنشدون يغنون ، وفى صحبته حشد كثيف من النساء اللاتى يقال إنهن جواريه وعددهن ثلاثمائة أو يزيد ، وكان لدخولهم المدينة ضوضاء شديدة وجلبة صاخبة ، وظلوا مقيمين بها حتى منتصف الليل حين آب السلطان التركى إلى معسكره .

فلما كان اليوم التالى خرج السلطان للصيد ، فرتب لى الجنوى أمر الذهاب كذلك ، فكان هناك أناس كثيرون على ظهور الجياد بزاتهم وصقورهم وكلاب الصيد المعلمة وكافة أدواته ، ومن عادة الترك أن يحملوا فى السرج خطافاً حديديا ، ومعهم طبول الصيد وفى جعابهم القسى ، ولما كان القطر بارداً وغالباً ما يعمه الجليد مما يسهل معه سقوط الجياد فإن الرجال يلبسون على الدوام أحذية قوية جداً من الجلد الدمشقى تصل إلى ركبهم ، وتثبت بها المهاميز ،

فإذا كبا الحصان استطاعوا تخليص أرجلهم دون أن تجرح وتبقى الأحذية في الركاب .

* * *

ويوجد هنا كثير من الطيوز والبزاة وشتى أنواع الطير الموجود مثلها في إسبانيا .

ويتدثر الرجال على أسلوب أهل الريف فيلبسون عباءات وجبباً طويلة من صنف واحد ، مشقوقة الإزار من الأمام ، وقد نسجت من الصوف الجميل والحرير الموشى المستوردين من إيطاليا ، بيد أن الشيء الذى أدهشنى أكثر من سواه هو كثرة أنواع الفراء : من القاقم والسمور وغيرها من جلود أقل منهما قيمة كجلد الثعلب الذى يبالغون فى ثمنه مبالغة قصوى لنوعه ورقة ملمسه وشدة دفئه وملاءمته لمثل هذا الجو البارد ، ويغطى الكثير منهم رءوسهم بقبعات من التيل ، على حين يضع البعض الآخر قبعات تشبه تلك التى ترتدى فى حفلات اللهو الريفية فى « بيرجوس » ، ويستعملون سروجاً كسروج الحير ولكنها كثيرة الزينة ومغطاة بالأقمشة الجميلة ، وركاباتهم أميل إلى القصر منها إلى الطول .

* * *

عدنا فى ذلك اليوم إلى المدينة فأخذنى رفيقى لمشاهدة المعسكر والأحياء التى يقيم فيها الفرسان وغيرهم من الكبار ، وهم يحتفظون هنا ـ شأنهم فى هذا شأنهم فى بيوتهم ـ بكل ما تتطلبه راحتهم من استبقاء نسائهم معهم وغير ذلك .

والمعسكرات رائعة مجهزة بكل ما تستلزمه المتعة الشخصية ، لكن الأهالى مع ذلك يقاسون كثيراً من شظف العيش الذى لم يعودوا ينكرونه لطول ألفتهم إياه ، وتبقى الجياد دائماً فى العراء دون حظائر ، وأعتقد أنها رغم نحافتها

وصغرها الطبيعى إلا أن الطريقة التى تترك عليها تجعلها أقل جهداً ، والواقع أنها تبدو فى بعض الأحيان وكأنها قلّ أن تستطيع لراكبيها احتمالا ، وعلى الرغم من صعوبة تصديق عدد جيادهم فاننى أحسب أن ما فى بلدنا قشتالة من من الدواب وما فى غاليسيا وفى الجبال من خيول الجر والبغال والأفراس والحمير أكثر مما عندهم ، وإننى لأوثر امتطاء حمير من حميرنا على امتطاء جواد من جيادهم فى الحرب أو المباراة .

* * *

وللترك أملاك شاسعة ، ولكن الإقليم جبلى شديد الجدب قليل السكان ، على حين أن بلاد اليونان — التى يحتلونها — أرض منبسطة مثمرة رغم أن سكانها قد تضاءل عددهم الآن بسبب الحروب وانحمالهم عبء القتال بأكمله ، وللقسوة التى يلاقونها على يد الترك الغلاظ القلوب ، والواقع أنه من الصعب أن نتصور كيف يمكن تموين جيش ضخم كهذا الجيش .

والترك — والحق يقال — شعب نبيل ، فهم يعيشون فى قطرهم عيش السادة المترفين سواء أكان ذلك فى نفقاتهم أو فى أعمالهم أو طعامهم أو ألعابهم التى يغلب عليها اليسر ، وهم أهل مرح وطيبة ، وحديثهم عذب مستساغ ، وإذا ما تكلم أحد عن الفضيلة فى هذه النواحى إكتفى بتشبيهه بالتركى .

* * *

ولما فرغت من رؤية السلطان التركى وأهل بيته وبطانته وبلده أخبرت رفيقى أنه يحسن بى أن أعود إلى القسطنطينية ، لكننا اضطررنا للإقامة يومين آخرين لعمل كان لابد لنا من إنجازه مع جماعة من تجار حاشية السلطان الذى خرج فى أحد هذين اليومين للقنص ، فصحِبْتُه لأرى الاجتماع الذى كان أعظم

ما تسنى لى مشاهدته من ناحية العدد والجياد والعرض العام، فقد ارتدى الرجال أثمن ما لديهم من الملابس وأغلاها حسب مكانتهم ، لكننى لم أر قط فى حياتى مثل هذه البطانة فى كثرتها وثرائها .

فلما كان اليوم التالى رحلنا قاصدين القسطنطينية سالكين نفس الطريق الذى جئنا منه ، وأظهر الطاغية دراجاس سروراً كبيراً لرؤيته إياى ، وشكر الجنوىّ شكراً قلبياً للعناية التى أحاطنى بها ، فبقيت مستجما بالمدينة ثمانية أيام التمست فى أثنائها من الطاغية أن يتفضل بمخاطبة قائد سفينة هناك مخبرا إياه برغبتى فى عبور البحر الأسود للذهاب إلى مدينة « كيفا » التابعة للجنوية والقريبة من بحر أزوف ، فأرسل الطاغية فى الحال إلى الربان وسأله أن يحملنى معه وأن يكرمنى ، فوعد بذلك . كما تكلم صديقى الكابتن « جوان كارو » القشتالى مع أحد الجنوية وأوسق سفينته بعض تجارة له إلى « كيوس » و « رودس » كى يكون المتفضل عليه ، كذلك أعطانى هذا القشتالى مؤونة للرحلة ، فجهزنا أنفسنا بعدئذ وأبحرنا وجئنا إلى البسفور الذى يمتد مسافة ثمانية عشر ميلا من القسطنطينية حتى مدخل البحر الأسود ، فلما دخلناه سرنا يمينا شطر تركيا، ومررنا بأماكن كثيرة حتى بلغنا قلعة يسمونها « صنوب » فى تركيا ولكنها تابعة للجنوية فألقينا بها مراسينا ، وأقمنا يومين أفرغنا خلالها ما معنا من تجارة واستبضعنا بدلها أخرى ، ووجدنا الترك فى هذه الجهات يقطعون الخشب الذى يصنعون منه أقواسا قوية جداً ، ويدفنونها على شاطئ البحر خوفا من العقاب الشديد الذى يوقع بهم إذا ضُبطوا وهم يبيعونها للمسيحيين ، فإذا أبصروا السفن مارة بهم نبشوا عنها فأخرجوها وباعوها .

* * *

رحلنا من « صنوب » وظللنا مبحرين مصاقبين لشاطئ البحر الأسود

حتى بلغنا طرابيزون التي كانت تسمى فى القديم « ساموتراس»، وإمبراطورها يونانى نصرانى،ويقال إن أبا الإمبراطور الحالى رغب فى أن يحرم أخاه الأكبر من الإرث ، فاتصل بالسلطان التركى سائلا إياه معاونته فقتل أباه ، وكان له ولدان فقتل الأصغر منهما أباه ، وهكذا حقت كلمات الانجيل القائلة « بنفس الكيل يكال لكم » ، فكان الأخ الأكبر هو الذى رأيته فى القسطنطينية يعيش فى المنفى مع أخته الإمبراطورة اليونانية ، ويقال إن علاقاته بها آثمة .

الفصل السادس عشر

طرابيزون - المنتصب - كافا - سوق الرقيق -
شراء المؤلف لثلاثة من العبيد - تجارة
الكافيار - الخان العظيم - التتار -

. . .

تشتمل طرابيزون على قرابة أربعة آلاف نسمة ، وهي حسنة القسور، ويقال إن الأرض بها مثمرة وأنها تغل دخلا كبيراً ، ولما بلغناها نزلنا إلى اليابسة وذهبنا لرؤية الإمبراطور[٩٥] الذى استفسر منى عن إمبراطور القسطنطينية وكيف رحل إلى إيطاليا وعمن استصحبهم معه ، كما سألنى عن أخته الإمبراطورة وأخيه الذى كان قد نفاه ، وقد فعل ذلك كله لأنه أراد أن يعرف منى عما إذا كان صدقا ما قيل من أن أخاه خطب ابنة صاحب ملطية، وأن هذا السيد وجماعة الجنوية والإمبراطور قد أمدوه بأسطول ضخم لمحاربة طرابيزون ، فأكدت له صدق ما سمع . وإذ ذاك اكتأب خاطره أشد الاكتئاب ، وأجاب بأن لديه من القوة ما يكفى لمقاومتهم كلهم بل وأكثر منهم ، وراح يمطرنى بالأسئلة الجمة عساه أن يعرف من أنا وأين أذهب ، وحثنى على الإقامة هناك واعدا إياى — فى سبيل مرضاتى — بإرسالى على ظهر إحدى سفنه لمشاهدة ما أتطلع لمشاهدته ، فأجبته شاكراً إياه رغبته فى بقائى معه وإن أفهمته أنى لا أستطيع إجابة سؤاله مادام لا بد لى من إنجاز رحلتى والعودة إلى وطنى فى أمد ليس لى أن أتجاوزه ، لأن مولاى الملك كان

ماضيا إلى محاربة المسلمين ، وزيادة على ذلك فلو أن الظروف كانت غير هذه فإنني لا أستطيع الإقامة عنده لأنه متزوج من ابنة رجل تركى ولا بد من أن يحدث له سوء مّا من جراء هذا الزواج ، فأجاب بأن الرب غافر له هـذا العمل لأنه اقترن بها بنية تحويلها إلى النصرانية، لـكننى قلت له : « بل إنهم يقولون يامولاى إنهم زوجوها لك كى تحولك أنت إلى الإسـلام بـسبب ما تطمع أنت فيه منها ولقلة ما بيدك » فأمر بأن يجهزونى بما أحتاجه من الطعام، وسألنى العودة مرة أخرى .

حينذاك سافرت مبحرا إلى « كافا »[٩٦] وهى جزء من إمبراطورية التتار ، وإن كانت المدينة ذاتها فى يد الجنوية الذين أذن لهم بالسكن فيها ، ولم يكن يدور بخلد التتار أن الجنوية سيستقرون هنالك بمثل هذه الأعداد الضخمة، فألقينا مراسينا فى الميناء وجئنا إلى الخان الذى يتخذه قائد السفينة سكناً له وبقينا به ، حتى إذا كان اليوم التـالى ذهبت لرؤية دير القديس فرنسيس البالغ الحسن وحضرت القداس ، ثم مضيت بعدئذ لمشاهدة الحاكم الذى تلقانى لقاء طيبا ليس بعده غاية لمستزيد ، وسألنى عما أحتاجه وأريده ، وأنبأنى بسروره فى أن يمدنى بكل لوازمى لشعوره بالحب الكبير لأمتى وحقها عليه، فقد عاملته أحسن معاملة حينما كان فى أشبيلية ، فشكرته من قلبى ، ثم أخذت أتجول فى المدينة قبل أن يسدل الليل ستره ، وقد ملأ العجب نفسى لرؤية كثير من الأشياء الغريبة علىّ .

والمدينة كبيرة جدا تضاهى أشبيلية فى حجمها أو لعلها أضخم منها ، كما أن سكانها ضعف سكان أشبيلية ، وهم خليط من المسيحيين والكاثوليك واليونان وجميع شعوب الدنيا ، ويقال إن إمبراطور التتار كان قد استولى عليها

وخرّبها مرات عــدة لولا أن الأثرياء وأهالى الأقطار المحيطة بها لم يقبلوا ذلك لا تخاذهم إياها مكاناً يمارسون فيه أعمالهم الشريرة وسرقاتهم وجرائرهم كبيع الأب أطفاله والأخ أخاه ، وتقوم جميــع شعوب فارس بهذه الأمور وما هو أسوأ منها، فحينما يغادرون المدينة ييممون وجوههم شطرها ويسحبون قوسا ويرمون حائطها بسهم منه قائلين إنهم يتخلصون من الخطايا التى اقترفوها ، ويزعمون أكثر من ذلك أن بيع الأطفال ليس خطيئة لأنهم عطية أعطاهم الله إياها للمنفعة ، وأن الله سيرعى الأطفال حيثما ذهبوا أكثر مما يرعاهم لو كانوا مع آبائهم ولعل ما يباع هنا من الرقيق ــ ذكوراً وإناثاًــ أكثر مما يباع فى أى مكان آخر من العالم ، ويوجد بهذه المدينة وكلاء سلطان مصر الذين يشترون العبيد ويرسلونهم إلى القاهرة حيث يسمون بالمماليك .

ويبد المسيحيين مرسوم بابوى يخوّل لهم شراء العبيد النصارى من الأمم الأخرى والاحتفاظ بهم منعاً لهم من الوقوع فى أيدى المسلمين حتى لا يحولوهم عن دينهم ، وهؤلاء الرقيق من الروس والقوقاز والجراكسة والبلغار والأرمن وسواهم من شعوب العالم المسيحى ، ولقد اشتريت بكافا جاريتين وعبدا لا زلت أحتفظ بهم جميعا عندى فى قرطبة مع أولادهم . أما البيع فيتم على الصورة التالية ، هى أن يجرد العبيد ــ ذكورا كانوا أم إناثا ــ من كل ما عليهم من الثياب ، ثم يطرحون عليهم عباءة من اللباد ويعلنون عن الثمن ، وبعدئذ يخلعون الغطاء عنهم ويدعونهم يسيرون جيئة وذهابا ليرى الناس إن يكن ثم عيب جُسمانى ، ويقطع البائع على نفسه عهداً بردّ ثمن العبد لشاريه إن مات العبد بالطاعون فى مدى ستين يوما ، وإذا تنوعت جنسيات الرقيق وكان من بينها تتارى أو تتارية زيد الثمن بقدر الثلث ، اذ من الثابت المقرر أن لم يحدث أن خان تتارىّ مولاه .

ومدينة كافا غير حسنة التسوير وحولها خندق صغير جداً ، ولكنها مجهزة تجهيزاً كاملا بالسهام والمدافع الكبيرة والصغيرة والبنادق والمدافع القديمة الطراز وشتى ضروب آلات الدفاع التى قد يوجهونها أحياناً ضدّ العزّل من السلاح رغم عدم رغبتهم فى إصابتهم بأى أذى لما يجنونه منهم من أرباح طائلة ، وقد حدث قبل أيام قلائل أن زحف أهل المدينة بقواتهم وآلاتهم الحربية للاستيلاء على مدينة « كوركان » كبرى مدن إقليم التتار ، غير أن التتار علموا بخبرهم وتغلبوا على الجنوية واستولوا على مدفعيتهم وأعلامهم، ثم أعملوا القتل والأسر فى الكثيرين منهم حتى لقد فكر التتار يومذاك فى الاستيلاء على كافا ذاتها ، فزحفوا حتى صاروا على مقربة من أسوارها وحاولوا تسلقها ، لكن الكثيرين منهم لاقوا مصرعهم ، وإذا ذاك أيقن الجنوية أن رجالهم أقدر فى البحر منهم فى البر .

وتحدّ الأرضُ كافا من الناحية المواجهة لفارس والهند، أما بقية النواحى فيحدها بحر « تانا » وبحر أزوف وبحر باكوه [٩٧] (أى بحر قزوين) ، ويجلب إليها القوم كثيراً من أصناف التجارة كالتوابل والذهب واللآلئ والأحجار الكريمة، يضاف إلى هذا كله ما يجلبونه من الأقطار المحيطة بها ومن كافة أرجاء الدنيا من الفراء الذى يباع بأرخص الأسعار، ولا شك فى أنه لو لم يكن الجنوية هناك لما كان لأهل تلك الناحية اتصال ما بنا نظراً لكثرة وجود شعوب مختلفة بها ، مما تتنوع معه أنماط الثياب وضروب الطعام كما تنوعت أصناف النساء ، ولقد جاءوا لنا فى الخان الذى نزلناه بعذارى صغيرات لقاء كأس من الخمر الذى يندر وجوده بها ندرة بالغة ، وشأن الخمر فى ذلك شأن جميع أنواع الفاكهة والخبز ، إذ لا يتيسر الحصول على كل

هذه الأشياء إلا فى المدينة . ولـكن يمارس بيعها هنا جماعة التجار ويشتطون فى ثمنها ، ولهذا السبب كانت السرقات شائعة .

والتتار قوم محاربون كثيرو العمل هم وجيادهم ولا يحتاجون إلا للقليل مما يقيم أودهم ، وهم يقولون إنهم فى انتقالاتهم وحروبهم يحملون نصيبهم من اللحم فيما بين جانب الحصان ومقعد السرج[٩٨]، وهم لا يطهونه بل يكتفون بهذه العملية ، كما أنهم يشنون الحرب على جيرانهم المسيحيين ويأسرونهم ويبيعونهم فى كافا لا سيما منذ موت « ڤيتولدو » الذى كان يبسط حكمه على ليتوانيا وروسيا ، وهو أخو ملك بولندا وقد مات دون وريث له ، فلما تولى ملك بولنده حُكم النواحى التى مات عنها أخوه - وهى جد قاصية عن بولندة - كره الناس حكومته وتجزأت البلاد مما أدّى إلى ضياعها ، وإذا كان بعض التتار رقيقاً لنا فمرجع ذلك إلى ما يقع عليهم من السرقة كما أن آباء البعض منهم يبيعونهم حسبما أشرت إلى ذلك آنفاً ، ومن ثم فإن « كافا » زاخرة بأناس من شتى الشعوب ومختلف الأجناس ، ومن العجب أنها خالية مع هذه الكثرة من الطاعون .

وقد ذهبت — أثناء وجودى بها — لمشاهدة نهر الدون[٩٩] العظيم الذى يزعم الناس أنه النهر الثانى الذى ينبع من الجنة الأرضية ، ويستمد نهرا أروف وقزوين مياههما من مياه « تانيه » الذى يجرى عبر فارس وشبه القارة الهندية ، ويشبه نهر النيل فى أنه تنقل به كثير من أنواع التجارة الواصلة إلى البحر الأسود قرب كافا ، ويوجد على هذا الشاطىء حصنان أحدهما تابع للجنوية وثانيهما للبنادقة حيث يخزنون بهما كثيرا من البضائع .

ويكثر فى هذا النهر السمك الذى يحملونه فى السفن ، كما توجد به كميات ضخمة من السمك الذى نسميه نحن هنا « بالسولو » وهو من أطيب الأنواع: طازجاً كان أو مالحاً ، ويمكن العثور عليه فى قشتالة بل وفى هولندة أيضاً حيث يحمل إليها ، ولقد سلك هذا الطريق سفراء الملك هنرى حينما ذهبوا إلى بلاط تيمورلنك[100] ، كما أنبأنى الدون « ألفونسو فرناند دى ميا» أن المسافة التى قطعوها من هناك إلى أقصى ناحية بلغوها تقرب من المسافة من كافا إلى قشتالة ، ولكنهم ذهبوا إلى هناك مباشرة وعادوا ورأوا فى طريقهم وفى بلاط تيمورلنك - كما يؤكدون - كثيراً من الأشياء الغريبة .

ونهر الدون نفسه ذو منظر غريب وكذلك الحال إزاء من يعيشون على ضفتيه إذ يصطادون نوعاً معيناً من السمك يسمونه « ميرونا » يقال إنه شديد الضخامة ، وهم يضعون بيضه فى براميل خشبية ويحملونه إلى شتى أرجاء العالم لا سيما إلى اليونان وتركيا ويسمون ذلك بالكافيار ، وتبدو البيضة أول ما تبدو أشبه بفقاعات الصابون الأسود ، وهم يأخذون هذا البيض وهو لا يزال رطبا ويضغطونه بالمدى كما نصنع نحن الصابون فى بلدنا ، ثم يضعون ذلك فى مواقد تكسبه الصلابة ويبدو كبيض السمك ، وهذا الكافيار شديد الملوحة .

* * *

ويلبس النساء وأغلب الرجال الحرير الناتج فى تلك النواحى ويتفننون فى تطريزه تفنناً يشبه تفنن الأندلسيين هنا ، ويرتدى الرجال عباءات اللباد

الرقيق الذى يضغط بعضه إلى بعض وليس به أثر اللالتحام ، أما أسلحتهم فهى السيوف القصيرة والقسى والسهام والهراوات.

* * *

ولقد بذلت كل الوسائل التى فى مكنتى للذهاب إلى بلاد التتار ، لكن أجمع القوم كلهم على نصحى بالإقلاع عن ذلك ، إذ ليست المخاطرة مأمونة العواقب إن أنا مضيت إلى مثل هؤلاء القوم الذين لا يقر لهم قرار ، وليس لهم راع من حاكم يدينون له بالطاعة ، ومع ذلك فقد ذهبت لمشاهدة مدينة «كوركان»، وأردت أن أطالع من هناك سوق الإيلخان المسمى «لوردو باسار» Lordo Basar أى ميدان الوالى ، والذى يسمونه بيلاطه ، وشاهدته بنفسى . وصفته أنه يوجد مكان أشبه بالمدينة الكبيرة يعقدون فيه سوقهم - كما يسمونه - ويجلس به قاضيهم الأكبر الذى يوكل إليه الفصل بين الناس فيما هم فيه يختصمون ، وعلى الجانب الآخر - وهو الأيسر - يوجد مكان آخر لنفس الغرض يقف به قاض آخر مثله لحكم الجماعة .

أما بيوتهم فهى مما تحمل معهم ، إذ أن بعضها مصنوع من التيل والبعض الآخر من العصى ، وقد يحدث فى بعض الأحيان - حين لا تغل الأراضى شيئاً - أن ينتقلوا إلى سواها ، فإذا ما قاموا بذلك عمدوا إلى جميع حاجاتهم فوضعوها فى العربات ورتبوها على نمط يبدو أنهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، وهم لا يأكلون الخبز حيث لا يوجد عندهم منه شىء ، بل يقتصرون فى طعامهم على خليط من الأرز ولبن الجمال ولحم الخيل ، ولا يقربون أى نوع من الخمور لاتباعهم الإسلام ، ويمتد سلطان الإيلخان الأعظم على قطر فسيح الأرجاء ، وإن تكن المدن والبلدان غير معروفة لديهم ، ويعيش التتار دائماً فى العراء .

وإذا لم يجدوا قوماً من النصارى يقاتلونهم حارب بعضهم بعضاً ، ولا يتورعون عن السرقة كلما وجدوا إليها سبيلا دون خوف من إقامة الحد عليهم ولأنهم لا يعدون السرقة جرماً ، وهم ذوو بنية صغيرة فى العادة وإن كانوا مبسوطى الأكتاف ، أما جباههم فعريضة وأما عيونهم فصغيرة ، ويقال إن أشدهم تشويهاً فى الخلقة هم أنبلهم مولداً ، كما يقال أيضاً إنهم إذا اصطدموا بالترك كانت لهم الغلبة عليهم ومن ثم فالترك يهزمون الإغريق ، ويهزم الإغريق التتار .

. . .

ولكن البيزنطيين الآن بأجمعهم لم يعودوا شيئاً يذكر ، لأن القسطنطينية كانت فى ذلك الوقت المكان الوحيد المحصن الذى تركوه والبعض لا زالوا يسمونهم بالسادة ، رغم أن كافة الأمم النصرانية المتناثرة فى أرجاء الدنيا أصبحت فى رق المسلمين وقد أخذ الترك بثأر تروادة ، وكان اليونان خاضعين لهم حتى قبل وصولى وحتى قبل الاستيلاء على القسطنطينية ، وإذا كان الترك لم يستولوا عليها حتى الآن فما ذلك إلا خوفهم من أن تهب شعوب الغرب النصرانية فتمتشق الحسام ضدهم ، لكن يبدو جلياً من إهمال الأمراء والشعوب المسيحية العظيم أن القسطنطينية موشكة على الزوال مما يدل على عبث هذا الخوف ، ولو كان الترك أكثر جرأة مما هم عليه الآن ، ولو أراد الرب — لنجحوا فى كل محاولاتهم بعد أن رأوا تقاعد النصرانية عن بذل أية محاولة للثأر وإصلاح الخطأ ، ومن الواضح فعلا أن المدن تكون أحسن دفاعاً عن نفسها بقوة الرب المعجزة أكثر من الصناعة والقوة المادية .

وكنت شديد الرغبة فى البقاء بهذا الأقليم ولكن صرفنى عن تحقيقها ما طبع عليه أهله من همجية وعدم استساغتى ما كلهم، ومعظم بلادهم صعبة

الارتياد كما هو الشأن فى بلاد الهند حيث يستحيل السير ، وليس هناك إلا القليل مما يمكن رؤيته فى بقية ربوع الإقليم باستثناء أولئك النصارى الذين قلت عنهم إنهم أشد ما يكونون تعاسة وقد حطمتهم قوة جيرانهم التتار السكريهين ، كما ينقصهم الحاكم الذى يدبر شئونهم ويرعى أمورهم ، مما سوف يجعلهم يستمرون على معاناة هذه الشدة حتى يرق الله عليهم .

ومدينة كافا شديدة البرودة شتاء شدة تتجمد السفن منها فى الميناء ، وقد بلغ أهلها من الهمجية والعيب حداً أحسست معه بالسرور حين انصرفت عن الرغبة فى رؤية شيء أكثر من هذا والعودة إلى بلاد اليونان ، لذلك جمعت حاجاتى ورحلت عن كافا

. . .

الفصل السابع عشر

العودة للقسطنطينية . أيا صوفيا . الحلقات المقدسة
تمثال جستنيان . الهبدروم . تمثال العدالة .
القصر . المكتبة . سور حال
المدينة

. . .

أبحرنا فى نفس السفينة وتابعنا مسيرنا حتى عدنا إلى طرابيزون التى قلت سابقاً إن إمبراطورها بذل قصارى جهده لاستبقائى لكنه لم ينجح فى مسعاه، ومن ثم سافرنا وأدركنا القسطنطينية التى كانت الأوامر قد صدرت بها بعدم السماح للسفن القادمة من البحر الأبيض بالدخول فى مينائها سواء أكانت قاصدة القسطنطينية أم بيريه مخافة أن تنقل معها الطاعون، ومن ثم بنوا ملجأ على بعد مرحلتين من القسطنطينية تفرغ فيه السفن حمولاتها وتظل باقية به مدى ستين يوماً إلا إذا كانت معدة للنزول للبحر ثانية، ولا شك أن الجماعات الأجنبية تجلب معها كثيراً من الأمراض، وقد رأيت بعين رأسى فى الخان الذى كنت أنزله رجالا هلكوا بالطاعون، لذلك أرسلت واحداً من رجالاتى إلى الطاغية دراجس أستأذنه فى دخول المدينة مُعلماً إياه أننى غادرت السفينة أنا وجماعتى، وأننى لم أقم مع الآخرين بل بقيت يومين فى العراء، وإذ ذاك أنفذ أمره بإرسال قارب إلى أحسن القوم تجهيزه وإعداده، وجاء عليه نفر من أصدقائى الذين خفوا لاستقبالى، فبعثت رجالى إلى المكان المخصص

لإقامتهم ، وأما أنا فقد مضيت لتقديم احترامي للطاغية الذى لقيني لقاء كريماً وكذلك الإمبراطورة وحاشيتها ، واستفسرتْ مني الإمبراطورة عن شأن رحلتي فى البحر الأسود ، وسألت على وجه الخصوص عما إذا كنت قد رأيت أخاها إمبراطور طرابيزون — وكان معها إذ ذاك أخوها الآخر — ، فأنبأتها بما حدث أثناء رؤيتي الإمبراطور ، فشكرني الاثنان شكراً عميقاً وقالت لى الإمبراطورة : « ما كنتَ بفاعل أكثر من هذا لو كنت أحد أبناء بلدتنا » ، فأجبتها : « سيدتى ، لقد أديت ما ينبغى على المسيحى الكريم أداؤه » . ثم استأذنت وانصرفت منكفئاً إلى خانى بحوطنى أشراف المدينة .

* * *

فلما كان اليوم التالى ذهبت إلى الطاغية وسألته إن كان يأذن بإصدار أمره بالسماح لى برؤية كنيسة القديسة صوفيا ومخلفاتها الدينية المقدسة، فأجابنى أنه سيفعل ذلك راضياً مغتبطاً ، كما أنبأنى أنه راغب هو ذاته فى الذهاب إليها لسماع القداس ، وفعلت فعله الإمبراطورة وأخوها إمبراطور طرابيزون الشرعى ، ومن ثم ذهبنا إلى الكنيسة لحضور القداس ، فلما فرغنا منه صدرت الأوامر بالسماح لنا بمشاهدة البيعة البالغة الضخامة ، ويقول الناس فيما يقولون إنها كانت تحتوى أيام ازدهار القسطنطينية على ستة آلاف رجل من رجال الدين ، أما فناؤها الداخلى فغير معتنى به العناية الكافية ، وإن تكن الكنيسة ذاتها فى حال جيدة حتى ليخيل لرائيها أن يد الصناع قد فرغت منها الآن فقط ، وهى مبنية على الطراز الإغريقى ومُلحق بها كثير من الكنائس الصغرى ، وسقفها مصنوع من الرصاص ، أما داخلها فحلىّ بكثير

من الفسيفساء الذى يرتفع من الأرض مسافة رمح طولاً ، وقد بلغت هذه الفسيفساء من الدقة حداً لا تستطيع فرشاة الرسام أن تأتى بأحسن منه منظراً ، وأما أسفلها فأحجار جميلة بلغت الغاية من دقة الصنعة ، وقد خلطت بأنواع الرخام والسماق وحجر اليصب ، وأما أرضها فمن الأحجار الضخمة التى أبدع القوم فى تنسيقها وتجميلها ، وتقوم فى وسط هذه الكنائس الصغرى المصلى الرئيسية العظيمة الاتساع ، وتبلغ من الارتفاع قدراً يصعب معه الاعتقاد باستطاعة البناء التماسك ، وفى هذه المصلى الكبرى صورة من الفسيفساء تمثل الآب فى الوسط ، وتبدو هذه الصورة من أسفل فى حجم الإنسان العادى ، لكن القوم يقولون إن طول القدم وحده يبلغ طول الرمح ، كما تقدر المسافة بين العينين بعدة أشبار كثيرة .

ويوجد بها المذبح الأعظم حيث يستطيع الإنسان أن يتبين كل فنون الهندسة وإبداعها ، كما يقوم أسفل هذه الكنيسة[١٠١] صهريج كبير يقال إنه يسع سفينة ذات ثلاثة آلاف مجداف تسير به ، ويسع ما تحتاجه من ارتفاع الماء وعمقه ، ولست أدرى عما إذا كان مثل هذا القول فى حاجة إلى ما يدعمه وإن كنت لم أر قط فى حياتى صهريجاً أكبر منه ، ولا أعتقد بوجود مثل هذا الصهريج فى مكان آخر .

* * *

واقد أصدر الطاغية أمره هو ومن معه إلى رجال الدين بإحضار المخلفات الدينية المقدسة ، ولها ثلاثة مفاتيح يحتفظ الطاغية بأحدها ، وأما الثانى فمع بطرك القسطنطينية الذى كان موجوداً حينذاك ، وأما الثالث فمع سادن الكنيسة ، واقد جاء القسس بملابسهم الدينية فأخرجوا المخلفات المقدسة

وساروا بها فى موكب عظيم ، ومما أخرجوه منها الحربة التى طعن بها جانب سيدنا وهى فى موكب من الآثار الرائعة ، والعباءة التى ليست بها ندبة والتى لا بد أنها كانت بنفسجية فى وقت من الأوقات ثم حال لونها وبهت مع مرور الأيام ، وكذلك أحد المسامير وبعض الشوك الذى كان فى تاج سيدنا، وأشياء أخرى جمة غير هذه مثل خشبة الصليب والعامود الذى رفعوا عليه السيد المسيح، كذلك كانت هناك أشياء عدة من مخلفات سيدتنا العذراء الطوبانية والسّفود الذى شوى عليه القديس لورنس ، كما رأيت كثيراً من الآثار المقدسة التى حملتها القديسة هيلانة حين كانت ببيت المقدس ثم عادت بها إلى هنا ، وكلها مخلفات جد موقرة، كما يقوم القوم على حراستها حسن قيام ، وقد مَنّ الله فلم تقع هذه الأشياء — حين اندحار اليونان — فى أيدى أعداء الرب و إلاّ لأساءوا استعمالها ولتناولوها بغير تبجيل .

ولما غادرنا المكان أبصرنا عند باب الكنيسة عمودا حجريا ضخما أطول من الكنيسة الكبرى ذاتها ، على قمته حصان كبير من النحاس المطلى بالذهب، يعلوه فارس قد دفع أحد ذراعيه وهو يشير بأصبعه إلى تركيا ويمسك باليد الأخرى كرة : رمزاً منه إلى أن الدنيا بأجمعها(١٠٢) فى يده ، وقد حدث ذات يوم أن هبت عاصفة هوجاء أسقطته فتدحرجت الكرة، فكان حجمها — كما يقولون — حجم قِدْرٍ يسع خمسة عشر جالونا، وإن بدت للواقف أسفل التمثال فى قدر البرتقالة ، ومن ثم يمكن للمرء تقدير ارتفاع هذا التمثال ، ويقال أيضاً إن القوم صرفوا ثمانية آلاف دوكات لحفظ الكرة وتثبيت الحصان بالسلاسل حتى لا يسقط إن هبت الريح وكانت عاتية ، أما الفارس فيزعمون أنه يمثل قسطنطين، وأنه كان يشير إلى أن دمار الإغريق سيأتى من تلك الناحية التى دلّ عليها بإصبعه ، وكان الأمر كما أشار .

ولقد أمضينا ذلك اليوم حتى وقت الظهيرة ونحن نتأمل فى إعجاب تلك الكنيسة وفناءها ، ويوجد خارجها ميادين كبيرة حافلة بالدور التى اعتادوا أن يبيعوا فيها الخمر والخبز والسمك لاسيما الأسماك الصدفية التى يُقبل اليونان عليها أكثر من سواها لاعتيادهم أكلها ، كما أنهم يقتصرون فى بعض أوقات صيامهم السنوى على الأسماك الخالية من الدماء وأعنى بها الصدفية ، وقد أقاموا فى هذه النواحى موائد كبيرة من الحجر يجلسون إليها لتناول الطعام ، يستوى فى ذلك الحكام والشعب حيث يجلسون معا جنبا إلى جنب .

* * *

عاد الإمبراطور بعدئذ هو والإمبراطورة وأخوها إلى القصر ، وانصرفت أنا إلى الخان الذى أنزله ، فلما كان اليوم التالى مضيت إلى كنيسة القديسة مريم[١٠٣] المدفون بها جثمان قسطنطين ، ويوجد بهذه الكنيسة صورة سيدتنا العذراء التى رسمها لها القديس لوقا ، كما يوجد على الجانب الآخر صورة السيد المسيح مرفوعا على الصليب وهى محفورة على الحجر ، ويقال إنها تزن بإطارها وقاعدتها عدة قناطير ، وتبلغ من الثقل حدا يعجز معه ستة رجال عن رفعها ، فإذا كان يوم الثلاثاء من كل أسبوع جاء قرابة عشرين رجلا يسدلون ثيابا طويلة من التيل الأحمر تغطى الرأس فتبدو أشبه ما تكون بالعباءات ، وهؤلاء الرجال من أسرات معينة ولا يشغل وظيفتهم سواهم ، ويسير موكب كبير فيمضى الرجال الحمر الثياب واحدا بعد واحد إلى التمثال الذى إذا رضى عن واحد دفعه فى يسر كأنما هو لا يزن أكثر من أوقية ، ثم يضمه حامله على كتفه ويمضى الباقون من الكنيسة وهم يرتلون الأناشيد، ويذهبون إلى أحد الميادين الكبرى حيث يسير حامل الصورة بها من جانب إلى آخر فاعلاً ذلك خمسين

مرة يدور فيها حول الميدان ، فإذا ثبت المرء عينه على الصورة بدت له كأنها مرتفعة عن الأرض وقد تجسدت تماما ، حتى إذا أنزلها إلى الأرض جاء غيره ورفعها ووضعها على كتفه ، ثم يأتى بعده غيره وهكذا ينقضى اليوم وقد رفعها أربعة منهم أو خمسة .

ويعقد فى ذلك اليوم سوق بالميدان وتحتشد زمر كثيفة من الناس، ويمسك رجال الدين قطعا من القطن المندوف ويمسون بها الصورة ثم يوزعون تلك الخرق على من هناك من القوم ، وبعدئذ يعودون بالصورة فى نفس الموكب ويضعونها فى مكانها ، ولم يفتنى يوم من أيام إقامتى بالقسطنطينية حضور هذا العرض لأنه من غير شك إحدى العجائب الكبرى .

* * *

ولقد كانت بالقسطنطينية كنيسة[104] ليست فى كبر كنيسة أيا صوفيا ولكنها — كما يقول القوم — كانت أكثر منها غناء ، وقد شيدتها القديسة هيلانة رغبة منها فى إظهار بأسها وسلطانها ، وعند مدخلها بعض أقواس كانت شديدة السواد ، ويقال إن الناس الذين وجدوا عندها كانوا يرتكبون جريمة اللواط ، وقد حدث فى ذات يوم أن سقطت صاعقة من السماء أحرقت الكنيسة ولم ينج قط أحد من أولئك الخاطئين الذين دهمتهم تلك الصاعقة ، وكانت هذه الكنيسة تسمى كنيسة « ڤالايرنا » ، ويقال اليوم إنها دمرت تدميراً لا يرجى معه ترميمها .

ويوجد هناك دير اسمه دير « بنتيكاتروا »[105] وهو تابع لرهبان إخوان القديس باسيل ، ولا يوجد نظام من الإخوان فى هذه النواحى سوى هذا النظام ، وهذا الدير محلى هو الآخر بالفسيفساء المذهبة ، وبه أوعية الشراب التى ملئت

بالخمر فى عرس قانا الجليل ، كما يوجد به كثير من المخلفات المقدسة الأخرى ، وهو مدفن الأباطرة .

ويوجد على الجانب الآخر من المدينة قبالة البحر وتركيا دير للنساء ذو جدار شاهق الارتفاع ويعرف بدير « القديس ديمترى » ، ويستطيع المرء أن يطالع منه تركيا عبر أضيق أجزاء المضيق ، ويقسوم تجاهه على الساحل التركى برج تربط بين جانبيه سلسلة إذا ماشُدّت بينهما حالت دون دخول السفن ، وكان الغرض من وضعها أن تكون موضعا للفرجة ولعدم ضياع المكوس التى تجمع فى تلك الناحية ، ويسمون ذلك بمضيق البسفور الذى يضيق ضيقا شديداً عند أحد جوانبه حتى ليستطيع المرء أن يرى السائر على الشاطئ الآخر ، وزيادة على ذلك فالبحر شديد الضحالة عند الجانب التركى ، لكنه شديد العمق عند الساحل اليونانى بدرجة تتمكن معها السفن — أيا كان حجمها ومهما بلغت ضخامتها — من السير فيه حتى تلامس أسوارا القسطنطينية ملامسة يخيّل معها أن فى قدرة الإنسان أن يقفز من الأسوار إلى السفينة .

* * *

وبالقسطنطينية مكان كبير قد أبدعته يد الإنسان وهو كثير الأروقة والبوابات ، ومن تحته الأقواس التى كان الناس قديماً يستعملونها لمشاهدة الألعاب أيام احتفالاتهم(١٠٦) بعطلاتهم ، ويتوسط هذا المكان ثعبانان قد التف كل منهما على الآخر وهما مصنوعان من النحاس المكفت ، ويقال إن الخمر كانت تنصب من فم أحدهما والحليب من فم الآخر لكن لا يستطيع أحد ما تذكر هــذا الأمر ، ويبدو لى أنه لا ينبغى الاهتمام الكثير بهذه القصة ، على أنه يوجد فى وسط هذا الميدان تمثال رجل مصنوع هو الآخر

من النحاس المكفت ، ويقال إنه إذا لم يتفق التجار فيما بينهم على ثمن مايتبايعونه ذهبوا إلى هذا التمثال الذى يسمونه بتمثال العدالة ، فإذا قبض التمثال يده عند مبلغ ما كان هذا هو الثمن الحقيقى للبضاعة الذى ينبغى أن يرتضيه الطرفان المتقاضيان ، وحدث أن كان لأحد النبلاء جواد يقدر بثلثمائة دوكات وأراد أحد أغنياء تلك الناحية شراءه لكن لم يستطع الإثنان الاتفاق على ثمنه ، ومن ثم رتبا أمرهما بالشخوص إلى ذلك التمثال للبت فى هذه المسألة ، فلما ذهبا إليه أخرج المشترى بضع دوكات ووضعها فى يد التمثال المبسوطة فقبضها عليها إشارة منه إلى أن الحصان لايساوى أكثر من هذا القدر ، وحينذاك أخذ المشترى الجواد وتسلم البائع الدوكات ، إلا أن الأخير كان يتسعر حنقا فاستل سيفه الأحدب وضرب به يد التمثال ضربة قطعتها، ومن ثم لم يعد يحكم فى شىء أبداً ، لكن ما كاد البائع يبلغ داره حتى نفق الجواد وبيع جلده ببضع دوكات ، ولست أثق فى هذا الكلام ولكن ثقتى الكبرى بما جاء به الرسل فى الإنجيل .

وفى الناحية الأخرى من هذا الميدان حمام له أبواب يواجه بعضها البعض فإذا رُميت محصنه بتهمة الزنا أمر القضاة بإحضارها إلى ذلك الحمام وحملوها على الدخول من باب والخروج من الباب الآخر ، فإذا كانت بريئة مما ألصق بها مرّت خلال الأبواب دون أن يصيبها ما يخدش الحياء ، أما إن كانت مخطئة ارتفع ثوبها وقميصها إلى أعلى دون أن ترى هى ذلك وأصبح مكشوفا للعين ما بين وسطها وقدميها .

وفى وسط هذا الميدان[١٠٩] مسلة مصنوعة من حجر واحد على نمط تلك المسلة القائمة فى رومة حيث يوجد رماد جثة يوليوس قيصر ،

وإن لم يسكن في الواقع برماده ، فليس هو بالناعم ولا بالقـديم ، ويقال إنها صنعت لجثة قسطنطين .

وحول هذا الميدان وبداخله كثير من المباني ، ويطلق القوم عليها اسم « المبدروم » .

. . .

ومدينة القسطنطينية مبنية على شكل مثلث : ثلثاها في البحر والباقي في اليابسة ، وهي مسوّرة تسويراً حصيناً جداً بصورة عجيبة تدعو لمشاهدتها ، ويقال إن الترك جاءوا إليها وضيّقوا الخناق عليها ، واستبدت الدهشة بالقائم على المجانيق والرمي به فقال لعظيم الترك : « مولاي إنه لا يمكن الاستيلاء على هذه المدينة بالألغام لأن أسوارها قُدّت من الصلب ، ولن تقع » ، وكان قوله هذا لشدة ارتفاع الأسوار ، ولأنها صنعت من كتل ضخمة من الرخام قد التصق بعضها بالآخر ، إلا أن السلطان التركي ظل دائباً على محاولته هذه ، وإذ ذاك أخبره رجاله أنهم رأوا رجلا ممتطياً جواداً على السور ، فاستقدم إليه يونانياً وقع في أسره وسأله عن سر تلك المعجزة التي يرونها كل ليلة ، وأعني بها ذاك الفارس الذي يدور حول الاستحكامات على حصانه وهو في كامل سلاحه ، فأجابه اليوناني : « مولاي ، يقول الروم إن قسطنطين استعمل في بنائه هذه الكنيسة كثيراً من الرجال ، وفي ذات يوم بينما كان الجميع منصرفين لتناول غذائهم أمر كبير الفعلة أحد الأطفال بالوقوف هناك وحراسة الآلات ، فأطاعه الطفل ، وإذ ذاك ظهر رجل شديد الجمال على ظهر حصان وقال للطفل لِمَ لا تذهب وتأكل مع الآخرين ؟ فأجابه الصغير « لقد أمروني يا سيدي بالبقاء هنا لحراسة الآلات » ، إلا أن الفارس أمره بالانصراف

وتناول الطعام ، فأجابه الطفل إنه لا يجرؤ على الانصياع لأمره ، فقال له الفارس « انصرف ولا تخف ، وأنى لأعدك بأنى سأحرس الكنيسة والمدينة حتى تعود » ، فانصرف الطفل ، إلا أن خوفه مما سيحيق به من العقاب حمله على ألا يعود ومن ثم بقى الفارس وفاء بوعده ، ويقول الناس ما كان هذا الفارس إلا ملاكا » .

لكن قد يقال الآن إن الطفل عاد وكفّ الفارس عن الحراسة لأن المدينة قد سقطت واحتُلت ، إلا أن الترك حينذاك انكفأوا راجعين عنها .

ولا بد أن قصر الإمبراطور كان رائعا جدا[110] ، أما الآن فهو والمدينة فى وضع يشير إلى الأهوال التى كابدها الأهلون ولازالوا يكابدونها ، ويوجد عند مدخل القصر حنيّة رخامية مفتوحة ، حولها مقاعد من الحجر وكذلك أحجار أشبه بالموائد رفعت على أعمدة أمامها وممتدة على طول الجانبين ، ويوجد هنا كثير من الكتب والمؤلفات والتواريخ القديمة ، وعلى أحد الجانبين أدوات اللهو واللعب لإمداد قصر الإمبراطور بها على الدوام ، أما البيت — من الداخل — فسيء الترتيب غير بعض نواح ضيقة يعيش فيها الإمبراطور والإمبراطورة وحاشيتهما .

* * *

أما حالة الإمبراطورية فهى من الأبهة بالصورة التى كانت عليها من قبل فما زالت الحفلات القديمة على ما كانت عليه وإن أصبح الإمبراطور أشبه ما يكون بأسقف من غير أسقفية ، وإذا ما خرج للنزهة روعيت جميع التقاليد الملوكية ، وتركب الإمبراطورة على ركاب من السرج فإذا أرادت اعتلاء الجواد أمسك سيدان لها قطعة من القماش الفاخر ورفعا أيديهما وأدارا

لها ظهرها ، حتى إذا ألقت برجليها عبر السرج لم تمس اليد قط أى جزء من جسمها .

* * *

واليونان صيادون مهرة بالبزاة والصقور والكلاب ، والقطر ملىء بألعاب الصـــيد والقنص ، وتكثر به أنواع الطيور والدراج والحجال والأرانب ، وأرضه منبسطة وصالحة للركوب .

ويتناثر سكان المدينة فى جميع أرجائها ، وهى مقسمة إلى أحياء أكثرها اكتظاظا بالسكان ما كان واقعاً على شاطىء البحر ، وليس ثم أثر للجدة على ملابس الأهالى ، بل إنها أدلّ ما تكون على التعاسة والفقر، وأفصح ما تترجم عن شظف الحياة التى يحيونها، وإن لم يكونوا قد بلغوا من الشقاء ما يستحقونه لأنهم قوم أشرار غارقون فى الخطيئة إلى . الأذقان .

ومن عاداتهم — إذا مات لهم ميت — ألا يفتحوا باب دارهم طوال تلك السنة إلا للضرورة القصوى ، ثم يتجولون على الدوام فى المدينة مولولين كما لو كانوا يندبون ، وبذلك تفاءلوا منذ زمن بعيد بالشر الذى حاق بهم .

وتوجد الترسانة على أحد جانبي المدينـــــة قرب البحر ولابد أنها كانت من قبل رائعة جداً بل لا تزال حتى الآن كافية لاستيعاب السفن ، أما فى الناحية التى تطل على بيريه فقد أقاموا رصيفاً تشدّ إليه السفن ، وتبلغه المياه الملحة حيث تلتقى بنهر يصب فى البحر فى هذا المكان ، وتقدر المســـافة الفاصلة بين هذه البقعة وبيريه بضعف رمية حجر ، فإذا جاءت السفن إلى بيريه للمتاجرة مع الجنوية كان عليها أن تبدأ بتحية القسطنطينية ودفع الضريبة لها ، وتعقد بالقسطنطينية المحاكم الجنائية الخاصة ببيريه وجميع القطر ، ويزدحم

هـــذان الميناءان على الدوام بالسفن التي تحمل البضائع الكثيرة ما بين صادرة وواردة .

وقد حدث في أحد الأيام أن بعث القبطان القشتالي في طلبي إذ لاقى أحد بحارته القتل على يد يوناني أراد سرقة السفينة ، فتوجهت إليه وأخذنا الجاني وبحارته إلى الإمبراطور حتى يقيم الحد على القاتل ، وعلى الرغم من كراهية اليونان لإنزال العقاب بهذا المجرم إلا أن الإمبراطور راعى خاطري، وقد حذرته من أن يعمد رجالنا للثأر لصاحبهم فتقع جريرته على الأبرياء ، ومن ثم أرسل في الحال في طلب الجلاد وأمر بقطع يد الجاني أمام القصر وسمل عينيه ، فسألت عما يحول بينهم وبين قتله فأجابوني بأن ليس في قدرة الإمبراطور الحكم بالإعدام ، وأنبأوني أيضاً أنه لما استولى شرلمان على بيت المقدس عمد كثير من رجالاته — في طريق عودتهم — إلى السفر عبر بلاد اليونان ففتك أهلها بطائفة كبيرة منهم ، فلما علم البقية بما جرى مضوا عبر بلاد التتار وروسيا حيث توجد جماعات مسيحية ومضوا من هناك إلى المجر وألمانيا ، ويقال إن شدة جمال روس هذه النواحي يرجع إلى استقرار كثير من الفرنسيين بها وتزاوجهم مع أهلها ، ثم زحف الإمبراطور شرلمان على القسطنطينية وشن حرباً ضروساً على إمبراطور اليونان ، وانتهى الأمر أخيراً بالصلح بينهما ، وآلى الإمبراطور على نفسه — تكفيراً عن قتل هؤلاء الرجال — أن يظل صائماً طول أيام الصوم الكبير الذي يقال إنهم يخالفوننا في مراعاته (لأن اليونان لا يستطيعون التوفيق بينه وبين ضمائرهم في أكل اللحم بالدم بل يقتصرون على الأسماك الصدفية) ، وزيادة على ذلك فإنه لا يمكن الحكم بالإعدام على كائن من كان مهما عظمت جريمته ، بل يكتفى في العقاب

بقطع الأيدى وسمل العيون ، ومن ثم تحفل بلاد اليونان بالكثيرين من مبتورى الأيدى والعميان .

وهكذا كانت الطريقة التى أقرّ بها الطاغية العدالة ورضينا نحن بما فعل .

وحدث فى أثناء إقامتى بالمدينة أن زحف السلطان التركى إلى مكان على البحر الأسود حتى أصبح على مقربة من القسطنطينية ، فصوّر الخيال للطاغية ولأهل بيزنطة أن الأتراك قادمون لاحتلال البلد فتهيئوا لقتالهم وأعدوا سلاحهم(١١١) ، لكن السلطان التركى مرّ مصاقباً للأسوار ، وجرت فى ذلك اليوم بعض مناوشات ، ثم اجتاز الناحية وفى صحبته جمع كثيف من الناس ، ولقد كان من حظى الطيب أن رأيته فى الميدان وشاهدت أسلوبه فى الخروج إلى القتال كما شاهدت سلاحه وكراعه وجياده وعتاده ، ومن رأيى أن الترك لا يستطيعون التغلب على جيوش الغرب إن هم التحموا بها ، وليس ذلك لضعف قوتهم بل لما ينقصهم من كثير من ضروريات الحرب .

وحدث فى هذا اليوم أن حمل القوم هدية كبيرة من القسطنطينية إلى الأتراك حيث يقيمون ، وكنت أظن أنهم سوف يبقون حيث هم ويحاصرون المدينة ولكنهم تابعوا زحفهم إلى البحر الأسود لقتال الجماعة التى كانت قد ثارت ضدهم وتمردت عليهم ، وكان ما تمنيته إذ لم يكن لدينا إلا القليل من الرجال ، والمقاومة أمراً بالغ الصعوبة والمشقة ، ومن ثم كان من أحسن الأمور وقعا على النفس وإدخال المسرة عليها رؤية مثل هذا الجيش العرمرم وهو يرحل دون أن ينزل ضرراً ما بالبلد أو يرهقه من أمره نصبا ، وكان فضل الله عظيما أن لم يكن أبناء وطنى قريبين من مسرح هذه الأحداث ، إذ لا توجد هنا قلاع ولا سفن تحميهم ، وما من سبيل للحماية سوى القتال .

الفصل الثامن عشر

بروسة . بيريه . الرحيل عن القسطنطينية . نافور ينقذ
بعض الرقيق النصارى . ميتلين . سالونيكا .
العاصمة . راجوزا . أنكونا . سبالاتو .
الوحش البحرى

. . .

وفى اليوم التالى سألت جنويا من أصدقائى له دار فى إحدى المدن التركية التى يسمونها بروسة[١١٢] الواقعة عند الطرف الأقصى من خليج نيقوميديا[١١٣] أن يأخذنى معه فاستجاب لسؤالى وأخذنى فى صحبته حيث أبحرنا ، ورأيت المدينة وهى غير مسورة وإن بزّت جميع مدن تركيا من حيث الضخامة والجمال، ويبلغ سكانها قرابة أربع آلاف نسمة ، ولولا الخليج الذى يسلكه التجار فى اتصالهم بالمدينة ويجلبون إليها برّا كثيرا من الأنباء من فارس لما بلغت هذه الدرجة من الأهمية ، وهى واقعة قرب اليونان ، وقد عنى الترك بها منذ تملكهم إياها لأنها أحد معابرهم من اليونان إلى بلادهم ، وقد أقاموا بها مخازن كبيرة لأنهم يستعملون المدينة كمحطة بحرية فى الطريق ، ولا أعتقد أنه يوجد فى تركيا بأجمعها اليوم مثل هذا المكان فى كبره وازدحامه بالسكان وثرائه ، وقد عدت منها إلى القسطنطينية وبيريه التى خرجت منها أولا .

وسكان بيريه[١١٤] يقربون من ألفى نسمة ، وهى حصينة التسوير متينة الاستحكامات ، وخندقها قوى ، أما كنائسها وأديرتها فرائعة ، كما يوجد بها

دار للتبادل النقدى جميلة حسنة البناء جيدة التسوير ، ومبانيها شاهقة فاتنة كمبانى جنوه ، وجمهور عامتها من اليونان وإن كانوا تحت حكم الجنوية الذين يتولون جميع الوظائف ، كما أنها مركز النشاط التجارى للبضائع الواردة من البحر الأسود وكذلك من الغرب ومن سوريا ومصر ، ويمتاز جميع تجارها بالثراء الفاحش ، وكانت بيرا تسمى من قبل بغلطه .

* * *

بقيت بعد عودتى من البحر الأسود مدة شهرين فى القسطنطينية وبيريه ، ثم أبحرت فى مركب من مراكب « أنكونا » مستصحبا معى عبيدى والحوائج الأخرى التى اشتريتها فى كافا ، وركبنا البحر سالكين الطريق الذى جئنا منه مخلفين القسطنطينية وراءنا ، واجتزنا « أرجلى » و « سيسلمبريا » و «مرمرة» و «غاليبولى» ، وفى أثناء عبورنا مضيق البسفور قرب الدردنيل ـ الذى هو مدخل ميناء طروادة ـ أبصرنا جماعة من الناس يشيرون إلينا إشارات خاصة يدعوننا بها للقدوم إلى الشاطىء ، فقال الربان إنه عرف فيهم الأسرى النصارى الذين يشتهون الهروب فى سفينتنا وأنه لا ينبغى علينا الاكتراث بهم ، إلا أننى توسلت إليه أن يُنزل قاربا إلى البحر ليمضى لإنقاذهم ، ذاكراً له أننا إذا تركناهم لما هم فيه فلا عجب إن رمانا الله بنكد الطالع ، وسرعان ما استجاب لى الربان وأنزل زورقا ركبته أنا وأربعة آخرون ورحنا نجدف ميممين الشاطىء ، فلما أخذنا فى الاقتراب منه ظهر جماعة من الترك ، وإذ رأوا أننا قدمنا لأخذ الأسرى شرعوا فى الهجوم علينا ، ولما كان ربان السفينة على استعداد لكل شىء فقد أنفذ قاربا آخر به عشرون رجلا مزودين بالسهام والأسلحة النارية ، فجاء القارب إلى الشاطىء وتمت لنا الغلبة على الترك وانكفأنا سالمين بإخواننا

النصارى ، ولقد أصبت بجروح فى قدمى من سهم رميت به، إلا أنه سرعان ما اندمل ونجحنا فى مهمتنا إذا لم نفقد شيئا لأننا كنا فى خدمة الرب .

* * *

بحرنا فى هذا اليوم تاركين مضيق رومانيا، وأرسينيا فى ميناء «تينيدوس» المواجهة لطروادة ، فلما كانت الغداة رحلنا من هناك واتنينا إلى رأس «سانت ماريا» ، فجئنا إلى جزيرة مالطة التابعة للجنوية حيث وجدت إمبراطور طرابيزون الذى كان قد فر من أخيه متزوجا ـ كما قلت ـ ابنة أحد الحكام بغية الحصول على مساعدته له ـ وكان الإمبراطور يجمع السفن لإرسالها إلى طرابيزون لقتال أخيه ، فراح القوم يستفسرون منى عن وضع الأمور فى طرابيزون كما رأيتها ، فأنبأتهم بالحقيقة ، وأن السلطان التركى لو وقف ضدهم لما استطاعوا القيام بعمل شىء ما يكون فى صالحهم وينزل الضرر بأعدائهم .

ويوجد بهذه الجزيرة كثير من حجر الشب فأوسقنا سفينتنا منه ، حتى إذا فرغنا من ذلك أبحرنا واتجهنا إلى بلاد اليونان سالكين طريق سالونيكا ، وتقوم فى هـذا البحر جزيرة عظيمة جداً يسمونها جزيرة « مونت سانتو » كان السلطان التركى ـ أبو السلطان الحالى ـ قد حاول الاستيلاء عليها لولا أن الطاعون نزل بجنده ففتك بهم فاضطر كارها لأن يصدر أمره بترميم جميع ما خربه وتزويد من يعيشون فيها بالمؤنة ، هـذا المكان مرتب على الصورة التالية ، ذلك أنه يوجد دير عند سفح الجبل وآخر فى منتصفه وثالث عند قمته ، ولا يسمح بالانخراط فيه إلا لمن كان شريف المولد أو فارساً أو أن يكون كهلا غير قادر أو ذا عاهة ،

فيأتى هؤلاء إلى تلك البقعة ويقيمون فى الدير الأول ، ويأخذ الرهبان فى مراقبتهم عن قرب ومطالعة أسلوب معيشتهم ، فإن سلكوا مسلكا كريما انتخبوا منهم من يبعثونهم إلى الدير الثانى الواقع فى الوسط حيث تطبق نفس القواعد ، فإذا أقرّ الرهبان تصرفاتهم بعثوا بهم مرة أخرى إلى الدير الثالث الأخير ، ويقولون إن من يعيشون هناك مشهورون بالقداسة ؛ كما أن المكان مزار كبير للحجاج ويتلقى كثيراً من الصدقات ، إلا أن زائرى هذا المكان لا يذهبون إلا للدير الأول ، وجميع الرهبان من اليونان من أتباع القديس باسيل ، وهم لا يقتصرون فى الامتناع عن اللحم فحسب بل لا يتناولون أيضاً كل سمك فيه دم .

رحلنا من هناك جاعلين خليج سالونيكا على يميننا ، وتوجد عند نهاية الخليج المدينة التى ضاعت من البنادقة منذ فترة قصيرة وكان ضياعها على الصورة التالية (١١٥)، ذلك أن الترك قدموا لمهاجمتها بالرجال براً وبالسفن بحراً ، فأعدّ البنادقة أسطولا ضخما ، إلا أنه يقال إنهم تشاوروا فيما بينهم وانعقد الإجماع على التخلّى عن سالونيكا لسببين أولهما : أنه لم يكن فى استطاعتهم مقاومة قوة الترك براً ، وثانيهما : ما يتكبدونه من تكاليف الدفاع عن هذا المكان ، أضف إلى هذا أن كسبهم منه ضئيل لعدم صلاحية الميناء صلاحية تامة للتجارة ، وهكذا آثر البنادقة وسواهم من الإيطاليين الكسب على الشرف ، غير أنهم خرجو بأسطولهم لصد الترك الذين حطموه ولم ينج منهم أحد ، وبذلك ضاعت مدينة سالونيكا .

ثم جئنا بعدئذ إلى جزيرة « نيجرو بونتو » ، الواقعة فى بحر الأرخبيل ويحكمها البنادقة ، ويقال إنه كان فى الأزمنة القديمة جسر يصل بينها وبين

البلاد الأصلية ، ويقطن اليونان الجزيرة التي تزخر بالبساتين الكثيرة والفاكهة ، ومن هناك أبحرنا في الأرخبيل مارين بكثير من الجزر الآهلة بالسكان وغيرها من المدن المقفرة منهم ، حتى إذا كان يوم عيد العنصرة استرحنا في جزيرة يدعونها « أوروس » .

أبحرنا في أيام العيد وكانت الريح رخاء في بحر الأرخبيل ، إلا أنه هبت عند منتصف الليل عاصفة هوجاء ثار لها البحر ثورة يئسنا فيها جميعاً من النجاة ، وكان هناك كثير من النذور التي راح ينذرها حجاج الشرق والغرب إن قُيِّضَتْ لهم النجاة ، وسرعان ما امتلأت سفينتنا بالطيور التي راحت تحط على أكتافنا ، وقد دفعتها العاصفة للطيران فراحت تنشد في السفينة ملجأ لها من الغرق ، وكان الهدهد أكثرها ، ويقال إنه قلما يحدث مثل هذا الأمر إلا في أثناء العواصف العاتية ، على أننا بلغنا جزيرة « كريت » عند صلاة الغروب بأشرعة ممزقة وقد دفعتنا الريح إلى ذلك القسم من الجزيرة المسمى « بكناى » ، ورحنا نسير أمام العاصفة حتى بلغنا الساحل فأرسينا عنده ، وبقينا يومنا وليلتنا هذه وكذلك اليوم التالي حتى العصر ، وكان هناك راهب رآنا في اليوم السابق ونحن نسير بصوار جرداء من الأشرعة ، وراقب السفينة وهي ترسو عند الشاطيء دون أن يلمح خيال أحد يبلغ الأرض ولم ير أية حركة في المركب ، ومن ثم ركب زورقه وجاء إلينا فوجدنا نائمين ، وكان العجب قد استبدّ به من قسوة العاصفة في جنح الليل وخشي أن تحمل الريح كوخه وتدمره ، فلما رآنا قادمين مع الفجر شكر الرب على نجاتنا ، أما الربان فقد بقي في السفينة يصلح أشرعتها ، على حين مضيت أنا ورجالي إلى الشاطيء في صحبة الناسك لرؤية قلايته ، وحملنا معنا ما كان لدينا من الطعام

بالسفينة لا سيما ذلك النوع من السمك الذى يأكله الرهبان اليونان ، ولبثنا فى صحبته ثلاثة أيام فى غاية الفرح ، وبعث هو بعضا مما عنده من القوت إلى ربان السفينة ، أما أنا فقد لقيت من الأهوال ما لو كنت صادفته وأنا فى البر لما فكرت قط فى أن أركب البحر ثانية .

بيد أننا أبحرنا مرة أخرى فى اليوم الرابع وجئنا إلى « مودون »، وبقينا خارجها فترة يومين نظرا لأنها غير صحية، ثم رحلنا مصاقبين لساحل بلاد المورة حتى أدركنا خليج « باتراس » مجتازين جزيرة « كورنو » التى وصفتها[116] من قبل ، ثم دخلنا خليج البندقية جاعلين إيطاليا على يسارنا وساحل ألبانيا على يميننا ، وأبصرنا كثيرا من المدن والقلاع القوية على ساحل البحر، وطالعتنا مدينة اسمها « فالونا » كان الترك قد استولوا عليها وأخضعوها لحكمهم .

وتتناثر الجزر فى شتى أرجاء البحر هنا ، وبعضها آهل بالسكان والبعض الآخر مقفر غير مسكون ، وحين بلغنا ساحل « إسكلافونيا » جئنا إلى مدينة اسمها « راجوزا » تابعة لإمبراطور ألمانيا ، ويسمى إقليم إسكلافونيا بأقليم « دلماشيا » ، وتكثر فى هذه النواحى أجمل أنواع الصقور وذلك لأن الأقليم جبلى مرتفع ، كما أن أهله أطول من كل قوم رأيتهم فى أى مكان آخر ، ويقال إن فى دلماشيا وألبانيا كثيراً من مناجم الفضة .

ومدينة « راجوزا » شديدة الحصانة ، وهى تقع على نجد مرتفع يشرف على البحر وحافلة جدا بشتى أنواع البضائع ، كما أنها تواجه إيطاليا ويستطيع المرء أن يرى من الجانب الآخر « أنكونا » وضواحيها ، وقد أقمنا هنا يوما رحلنا بعده إلى « أنكونا » لأن سفينتنا كانت مرتبطة بالمضى إلى هناك لتفريغ بعض حمولتها ثم الذهاب إلى البندقية ، وصادفنا فى هذه الليلة عاصفة

قوية، فلما كان وقت غروب اليوم التالى بلغنا أنكونا وأرسينا عندها ثم نزلنا إلى الشاطىء .

أقمنا بأنكونا أربعة أيام ، والمدينة بجميع نواحيها من أملاك الكنيسة ، وهى محكمة التحصين منيعة الأسوار ، وجميع دورها مخروطية البناء شاهقة الارتفاع على نمط دور جنوة ، ويزعم الناس فيما يزعمون أن بانى جنوة وأنكونا واحد ، ويتجلى بأوضح صورة من مبانيها أنها موغلة فى القدم ، وهى مركز حى للتجارة ، وتبنى بها كثير من السفن التى تشق البحار بما تحمله من البضائع ، كما أن أهلها يحترفون فى البر التجارة أكثر من سواها ، والأقليم زاخر بالحبوب والخمور والفاكهة وبكل ما تتطلبه الحياة ، وكان قد أشيع وقتذاك أن الكونت فرانشسكو ـ الذى كان قد غزا جزءا كبيرا من الناحية ـ راغب فى الاستيلاء على أنكونا ، فأخذ أهلها فى الاستعداد للدفاع عنها ، وعلمت بعدئذ أنه قام بهذه المحاولة لكنه عجز عن دخول المدينة .

أبحرنا بعد أربعة أيام واقتربنا من دلماشيا ، والساحل غاص جدا بالبحارة، ومرجع ذلك أنه مرفأ أمين رائع لا يوجد له أى ضريب على الجانب الإيطالى ، وإذ مررنا على طول ساحل دلماشيا ـ ومررنا بكثير من الجزائر المأهولة والمقفرة كما هو الحال فى جزء الأرخبيل رغم أنها فى حجمها وتعداد سكانها ليست كبيرة ـ أقول إذ سرنا على طول هذا الساحل بلغنا مدينة إسمها « سبالاتو » وتقع هى الأخرى فى دلماشيا ، وقد ولد فى هذه المدينة القديس « جيروم » والقديس « كريستوفر » . ويوجد هنا لسان من البحر يمر بقرية صغيرة يقال إن القديس كريستوفر حمل بها الفقراء الذين عجزوا عن دفع أجرة القوارب ، ولا تزال حتى اليوم آثار دارى هذين القديسين ماثلة .

وطالما حدث فى كثير من المرات أن اختفت النسوة اللآتى يغسلن ثيابهن دون أن يعرف أحد ما السبب،وكان اختفاؤهن فى الخليج الذى يمتد داخل الأرض، وقد حدث ذات يوم-والنساء كعادتهن فى الماء- أن ظهر وحش نصفه الأسفل على شكل سمكة ونصفه الأعلى آدمى وله أجنحة كالخفاش، وهاجم إحدى النساء وأمسكها ثم غاص بها تحت الماء ، فلما سمع النسوة الأخريات صراخها الذى ترامى أيضاً إلى سمع بعض الرجال الموجودين هناك هبوا إلى الناحية التى كان العراك ناشباً فيها بين الوحش والمرأة ، لكنه لم يدعها تفلت من بين يديه رغم مهاجمتهم إياه ، وقد أصابوه بجرح وسحبوه إلى الشاطىء حياً ، وبقى على هذه الحال ثلاث ساعات أو أكثر حتى مات ، ومن ثم لم يعد شك فى أن النسوة اللآتى اختفين من قبل قد وقعن فريسة لهذا الوحش الذى أخذه القوم وبقروا بطنه وحشوه ملحاً وبعثوا به إلى مجلس البندقية كى يرسلوه إلى البابا يوجين ، ورسمت له صورة حملت إلى قشتالة وإلى كافة أرجاء الدنيا ، ولم أر الوحش لكنهم أنبأونى بنبئه ولم يكن قد مضى وقت طويل على ذلك الامر .

وهـــــذا المكان أسقفية ، ولقد رأيت فى بلاط البابا أسقفها وهو من من أهل فرنسا .

الفصل التاسع عشر

البندقية . الحج الجديد . الاستيلاء على ضائع
طافور ثم ردها إليه . حفل عرس البحر .
كنز القديس مرقس . الإمبراطور
بربروسة والبابا .

. . .

غادرنا سبولاتو وبلغنا بلدة تدعى «بارنزو» التي تقع عند رأس دلماشيا قبالة البندقية ، ويحكمها سيد إقطاعى ، ويتحتم على السفن الراغبـة فى الوصول إلى البندقية أن تلقى مراسيها بها أولا فى انتظار الفرصة لدخول المضايق الواقعة بين القلعتين ، ويتوفر الملجأ الطيب والمرسى الواقع على طول ذلك الشاطىء ، فلما كان اليوم الثانى أبحرنا إلى ميناء البندقية وألفينا كثيراً من السفن الراسية خارجهـا فى انتظار الإقلاع ، ومن بينها غراب لبيت المقدس دلت عليـه بيارقه ، فلما سألنا القوم عن هذا الاستعداد فى كل شىء ذكروا لنا أن اليوم يوم الصعود وأنه مفروض على كل شخص ـ بعد سماع القداس وتناول البركة ـ أن يمضى إلى سفينته استعداداً للرحيل ، وكنت فى مثل هذا اليوم وفى مثل تلك الساعة منذ عامين قد أبحرت قاصداً بيت المقدس ، [١١٧] وسألت عما إذا كان هناك بين الحجاج قشتاليون ، فأنبأونى بأن « جوتيير كيسادا » و«بيرو بارقادى كامبوس » ذاهبان إلى بيت المقدس وأنهما الآن فى المدينـة لمشاهدة الاحتفالات التى كانت قائمة على قدم وساق ، فدخلنـا الميناء ونزلنا أمام كنيسة «سنت مارك» (القديس مرقص) ، واتجهنا فى الحال إليها لسماع

القداس حيث ألفينا حشداً كثيفاً من الناس احتفاءً بما أصابه البنادقة يوم الصعود من نصر عظيم على الإمبراطور بربروسة ، كما سأروى خبره فيما بعد .

وهنا وجدت « جوتيير كيسادا » و « بيرو بارقا » و « ولوس بانيجاس » و « خوان دى أنجلو » أخا « فرناندو دى أنجلو » وسواهم من القشتاليين الذين سررت بهم كثيراً، ولم يكونوا دونى سروراً بلاقاتهم إياى ، ولما كانوا ماضين إلى بيت المقدس فقد كانوا ملمّين بأحسن الوسائل فى الرحلة، وأنبأتهم أنا من جانبي بما يتحتم عليهم أن يفعلوه وكم تكلفهم هذه السفرة ، لكن يبدو لى أنهم انشقوا فيما بينهم على أنفسهم وسافروا فى مواكب متفرقة ، فبذلتُ غاية جهدى للتوفيق بينهم فلم أفلح فى مسعاى ، وهكذا غادر بعضهم المكان إلى المركب الشراعى ، ومضى الآخرون إلى المركب الذى خصص للفقراء ، وتغدينا معاً ذلك اليوم ، وبعد انقضاء الاحتفال وتناول الغفران التام ضد الخطيئة والعقاب وبعد البركة رافقتهم إلى البحر وشاهدتهم وهم يرحلون مبكرين .

ثم عدت مع بقية القشتاليين إلى المدينة فوجدت القوم قد استولوا على ما كنت قد جلبته فى السفينة من بضائع ومن بينها العبيد وغيرهم بحجة أنه لا يتأتى لأحد ما أن يجلب تجارة من البحر الأسود إلا إذا كان من أبناء البندقية، وأنى لم أنبىء السلطات الجمركية بما معى ؛ ولما كان هذا اليوم يوم عيد ضخم فقد احتشد الناس فى قصر القديس مرقص واصطفوا على أبدع صورة ؛ ثم دخل القصر سبعة فرسان أو ثمانية يرتدون شارة الإمبراطور « سجسمند » التى أحملها؛ فذهبت فى التو إليهم وشكوت لهم ما وقع لى؛ وإذ ذاك اصطحبونى إلى الدوج وهو حاكم البلد ؛ وذهب إلى هناك أيضاً القشتاليون

الذين كانوا موجودين ؛ وتحدثت إلى الدوج - وكان فى مجلسه - ورفعت إليه شكواى ، فسألنى أعضاء المجلس أن أتغيب برهة حتى يناقشوا الأمر فيما بينهم ، وسرعان ما نادونى قائلين :

« أيها السيد الفارس ؛ حقيقة أن عندنا قانونا يحرّم على أى شخص من غير أهل البندقية أن يجلب معه إلى هذه المدينة شيئاً ما من البحر الأسود أو ساحل الشام ؛ فإن فعل ذلك صودر كما صودرت بضاعتك وفق هذا القانون الذى يجب أن يطبق على التجار ؛ ومهمتك تحول بينك وبين المتاجرة ؛ أضف إلى هذا أن ما تحمله معك إنما هو لنفسك ومن ثم فإن القانون لا ينطبق عليك ، وسترد إليك بضاعتك ، وإذا كان فى القانون ما هو غير ذلك فإن المجلس سيتفضل بدفعه ؛ كذلك فإننا سنؤدى لك جميلا أكبر نظراً للأمة النبيلة التى تنتمى إليها ، ذلك أننا لن نكتفى برد مالك إليك بل سنمنحك اجازة لنقل بضاعتك أنّى شئت ، وهذا امتياز لم تجر العادة بمنحه لأى أحد ما إذ يستحيل إخراج شىء من البندقية يكون قد دخلها » .

فاستأذنت بعدئذ فى الانصراف من الدوج الذى قدم إلىّ أعطيات طيبة ، وانصرف معى أولئك السادة الذين صحبونى ولم يتركونى حتى بلغت مقامى ، كما بعثوا إلىّ فى ذات اليوم نبيذاً وحلوى ووسائل مسلية ، وكانوا كلما قابلونى بالغوا فى الترحاب بى كما لو كانوا من عشيرتى الأقربين .

وفى يوم الصعود أقاموا احتفالات كبرى وعرضوا جميع مدخراتهم ومن بينها كنوز القديس مرقص ، وعرضوا الجوهرات فى الشوارع عند أبواب المنازل ، وأخرج الصيارفة للفرجة ما لديهم من ذهب وفضة ، وطلع الرجال والنساء فى أبهى ما لديهم وتزينوا بغالى الجواهر .

ويذهب الدوج فى هذا اليوم فى أبهة بابوية وزينة إمبراطورية، وهذا حق له فى هذا اليوم كما يقولون ، وتجرى الاحتفالات الضخمة ، حتى إذا فرغ من سماع القداس ذهب مع جميع رجال الدين إلى البحر وركبوا السفن ؛ فيركب الدوج واللوردات فى سفينة تدعى « بوتشنتورو » ، وهى أكبر ثلاث مرات من الغراب وضعف حجم المركب ويجلس المجدفون فى قاعها لا يرام أحد ، وتغطى السفينة كلها بقماش من الذهب وسطحها بالسجاد الجميـــل ؛ فإذا وفـد أغراب أو رجال من علية القوم أخذوهم بها أيضاً وهم يحملون الصلبان والرايات الصغيرة المثلثة التى أسرف القوم فى تطعيمها بالذهب ؛ ويصبح البحر غاصاً بالسفن حتى قلّ أن ترى العين ماءه ، فيبحرون ويمضون إلى مدخل الميناء حيث تقوم القلعتان ، وهناك يقف القسيس يلقى خطبة خاصة ويمنح الناس البركة ويرشهم بالماء المقدس، ويسحب الدوج خاتماً من إصبعه ويقذف به إلى البحر ، وهذا ــ كما يقولون ــ تقليد قديم لزواج البحر بالأرض لفثء غضبه لقيام مدينتهم عليه وتوقف جميع ما يملكون عليه .

ويفرغ القوم من ذلك قبل ساعة من قيام جميع السفن، وبعد نوالهم البركة ينشرون أشرعتهم ويمضون فى سبيلهم وهو أمر فريد يستحق المشاهدة . ثم يعود الدوج مع جميع كبار رجالته إلى ساحل رملى بين القلعتين حيث يقوم دير معروف للإخوان ، وهناك يغادرون السفن ويحتفلون جميعاً مع الدوج : كل ذلك على نفقته الخاصة ، حتى إذا كان المساء عادوا إلى المدينة .

وفى هذا اليوم ذهبت لمشاهدة ثروة القديس مرقص ، وذهب معى فئة خاصة من أهل المدينة حتى أشاهد كل شىء رغم أن كل شىء كان معروضاً للعيان ، وهناك أبصرت مقادير هائلة لا سيما من اللؤلؤ والأحجار الكريمة

وكيات من الياقوت الأحمر والماس والياقوت من بينها ثلاثة أحجار فى ثلاثة شمعدانات ولكنها غير مثبتة حتى يتمكن المرء من تناولها بيده ورؤيتها .

وهناك تيجان الأساقفة محلاة باللؤلؤ والأحجار الكريمة والفضة ، وكذلك صدارى الكهنة مغطاة هى الأخرى بالجوهرات واللآلىء وكميات كبيرة من الذهب والفضة ، ويقولون أيضاً إنه توجد قطعة نادرة من العقيق الأحمر ، والواقع أنه يوجد معرض أكبر من الثروات لم أره قط ، كما يوجد رف خلف المذبح قد غطته اللآلىء والأحجار الكريمة ولكننى لا أستطيع الإسهاب فى الكتابة عنها لأن ذلك يستنفد جزءاً كبيراً .

ويقول البنادقة إن الإمبراطور بربروسة حارب البابا كى يستولى على جميع أملاك الكنيسة مما حمل البابا على الفرار والالتجاء إلى البندقية حيث بقى فترة طويلة فى أحد الأديرة دون أن يكشف أحد أمره[118] ، حتى تأتى لواحد أن يعرف السر ويراه ، فأفضى بالنبأ إلى الدوج الذى ذهب مع رجال مجلسه للبحث عن البابا فى هذا الدير ولكنه لم يستطع العثور عليه ، فأمروا بإحضار جميع الإخوان وأنزلوهم إلى المطبخ ، وإذ ذاك وجدوا البابا لأنه كان الطاهى فأخذوه وحلوه معهم وألبسوه الملبس الخاص به وأنزلوه فى قصر الضيافة وأحاطوه بالتوقير ، وكتبوا أيضاً إلى رومة وإلى جميع نواحى إيطاليا ذاكرين أن البابا عندهم ، وأفضوا بالخبر إلى الإمبراطور متوسلين إليه أن يرد إلى الكنيسة أملاكها حتى يعود البابا إلى رومة موقراً ، فاستشاط الإمبراطور غيظاً من البابا والبنادقة ، وجهز أسطولا قويا بالسلاح قصد به البندقية حتى شارف الحصنين حيث كان للبنادقة أسطول ضخم هناك

أخرجوه لصده ، فقاتلوه وأنزلوا به الهزيمة حتى ألزموه الفرار ، وأخذوا ولده أسيرا عندهم .

والتمس ابن الإمبراطور — حين وضعوه فى السجن — من البابا إطلاق سراحه ، قاطعا العهد على نفسه له بأنه سيحاول إعادة أبيه إلى الطاعة ، فإن فشل فى محاولته عاد إلى الحبس .

فاستجاب البابا بعد استشارة المجلس ، وبعث به فى غراب إلى مدينة «أنكونا» حيث كان أبوه ، فتكلم معه وتوسل إليه أن يعود لسابق طاعته للبابا والخضوع له وأن يرد إليه ما كان له من قبل ، فلما باءت محاولته — فى إقناعه — بالفشل عاد إلى حبسه .

بيد أنه لم تكد تنقضى أيام قلائل على هذا الأمر حتى أرسل الإمبراطور مبديا رغبته فى السماح لابنه بالعودة إليه ثانية للتحدث معه رغبة منه فى استجابة الاقتراحات التى قدمها إليه بشأن البابا ، فالتمس الابن الإذن من البابا ومن المجلس كما فعل من قبل ، وقبل الشروط وأبحر مرة أخرى . ووفد على والده الإمبراطور الذى وافقه بمحض إرادته، بل لقد أقرّ بما ارتكبه فى الماضى من سوء ، ورغب فى الخضوع للبابا وإعادة ما كان أخذه منه ، والتمس عفوه عنه ووضع نفسه بين يديه .

وعاد الابن بهذا الاتفاق إلى البندقية حيث عم السرور من جراء جواب الإمبراطور الطيب ، وجهزوا أسطولا كبيراً رائع التسليح ركب فيه أكبر رجالات البلد وملؤوه بالعدد وجميع الضروريات اللازم حملها لسيد عظيم مثله ، وجاءوا إلى مدينة أنكونا حيث تلقاهم الإمبراطور لقاء كريما ، ودخل

السفينة بنفسه وشخص إلى البندقية حيث عومل معاملة رائعة جداً ، ومضوا به إلى كنيسة القديس مرقص ، ويقال إنهم وضعوه عند بابها منبطحا على الأرض حتى يمر البابا من فوقه ، ومن ثم كان ما أرادوا حيث خرج البابا من قصره ودخل الكنيسة بعد أن وطأ بقدميه الإمبراطور وهو يردد الآية القائلة . Super aspidem et basilisum ambulabis etc.

فأجابه الإمبراطور: «ما قيل ذلك لك، ولكن قيل للقديس بطرس ».

فرد عليه البابا قائلا : « ما قيل للقديس بطرس فهو لى ، وما قيل لى فهو للقديس بطرس » .

ثم أنهضه ومنحه بركته ، وسأله الإمبراطور العفو والمغفرة ، واعترف بأنه أخطأ فسامحه البابا ، وفى الحال رد الإمبراطور إليه جميع الممتلكات الكنسية التى كان قد استولى عليها .

ظل الإمبراطور فى البندقية عشرة أيام وسط مظاهر الفرح الكبرى ، وقام الدوج بموافقة البابا والإمبراطور إلى أنكونا فى أسطوله وبصحبته جميع كبار لوردات الإقليم .

وفى أنكونا أقام الإمبراطور استعدادات ضخمة لاستقبالهم ، إذ كانت المدينة بثغورها إحدى ممتلكات الكنيسة الغنية ، وبقى الجميع بها عشرة أيام أخرى وهم فى احتفال غادر بعدها البابا والإمبراطور إلى رومة ، وعاد الدوج مع جماعته إلى البندقية .

ومما يروى أن البابا والإمبراطور طلبا إلى الدوج أن يسألهما ما يريد منهما لما أداه من عمل جليل ، وأخذا العهد على أن يجيباه إلى ما سأل ، فالتمس

الدوج منهما الحق فى أن يستعمل رنكهما فأجاباه إلى ما التمس ، ولا يزال الدوج إلى اليوم يستعمل الرنوك البابوية والإمبراطورية .

ثم استأذنهما الدوج بعدئذ فى الرواح، وانصرف إلى البندقية حيث صوّر القوم تاريخ هذا الخبر تصويراً عظيما فى قاعة كبرى هى أعظم وأغنى قاعة فى القصر المطل على البحر . وهذا هو السبب الذى من أجله يقيم البنادقة هذه الاحتفالات يوم الصعود لأنهم فى مثل هذا اليوم أحرزوا النصر ، ثم منحهم البابا الغفران الكامل للخطيئة والعقاب والذى لا ترحل السفن حتى تناله .

الفصل العشرون

صفة البندقية ، الجندول ، كنيسة القديس مرقص ، الحكومة ، التجارة .
ثراء الشعب ، الترتيبات الصحية ، دقة العدالة ، الترسانة .
البيمارستان ، أملاك البندقية .

. . . .

مدينة البندقية شديدة الازدحام بالسكان وتقع وسط إقليم كبير ، وبيوتها شديدة التلاصق بعضها ببعض ، ويقال إن عدد قاطنيها يبلغ سبعين ألف نسمة ، أما الأجانب والعمال — ومعظمهم من الرقيق — فكثيرون جدا .

وليس للمدينة أسوار ولا قلاع غير هذين الحصنين القريبين الميناء لأن الدفاع عنها إنما يكون بحرا ، فيمد القوم سلسلة من أحد الجانبين إلى الآخر ليكونوا آمنين على أنفسهم ، ولو حدث أن هاجم العالم كله المدينة لا كتفى البنادقة بإغراق سفينة واحدة بين الحصنين فى القناة وإذ ذاك يصبحون فى أمن وسلام .

والمدينة مبنية على البحر ، وتشقها قنوات مائية صناعية تستطيع القوارب السير فيها ، كما توجد فى بعض نواحيها شوارع يستطيع الناس المشى فيها سيرا على الأقدام ، وتوجد الجسور فى الجهات التى تكون القنوات بها أضيق من أن تخترقها القوارب ، وإذا كان لكل فرد من قشتالة دابة للركوب فإن لكل بندقى هنا قوارب وعبيدا مهمتهم التجديف والقيام على خدمته ، وإذا كنا نتفاخر بالجواد الجميل والوصيف الأنيق البزة فإن البنادقة يتباهون بقواربهم التى

يبالغون فى المحافظة عليها ، فيملقونها تعليقا جيدا ويزودونها بالحشايا والأرائك حتى ليستطيع الفرد أو الإثنان أو أكثر من ذلك السفر بها .

والطرق التى توصل المدينة بالأرض الرئيسية صناعية ، ولا تستطيع الوصول إلى هناك سوى القوارب الصغيرة لعدم كفاية الماء اللازم للقوارب الكبرى ، كما أن القنوات ضحلة ورملية القاع ، ومن ثم لا تستطيع السفن الكبرى ولا الدواب دخول المدينة أو مغادرتها لإحاطة الماء بها من كل جانب ، ومن أجل هذا يقولون إن البندقية أجمل حصن فى العالم ، فتذهب القوارب إلى الداخل لجلب الضروريات ولإحضار مياه الشرب .

ويستعمل البنادقة سفنا كبيرة خاصة ويملؤونها بالرمل ويوجد فى قاعها فجوة ذات غطاء ، فإذا دخل القارب نهرا عذب المياه رفعوا الغطاء وملؤوا القارب إلى أقصى غايته ثم أحكموا سداده ، وتلك هى طريقتهم فى حملهم للمياه اللازمة لهم ، وتوجد فى جميع بيوتات البندقية صهاريج لخزن المياه ، كما توجد صهاريج عامة من الطوب فوق البحر قد شيدت على صورة معينة يستحيل معها على الماء - كما شاهدت فى صهاريج بيت المقدس - أن يأسن أو تخبث رائحته كما يحدث فى بعض الأماكن الأخرى ، غير أن وصف جميع أساليبهم فى خزن المياه أمر يطول شرحه .

والمدينة غاصة بالكنائس والأديرة الفنية التى بالغ القوم فى الإسراف على تشييدها ، ومن أعظمها وأضخمها كنيسة القديس مرقص التى هى كبرى الكنائس بأجمعها وأعظمها كلها ، وهى ذات قباب على النمط الإغريقى ومغطاة من خارجها بالرصاص وذات سقوف مذهبة ، كما أن داخلها محلى بالفسيفساء وكذلك أرضها ، وإن كان ما بأرضها من الفسيفساء أكبر حجما وأكثر ألوانا ، ويوجد عند

باب المدينة الرئيسي قوس نصر عليه أربعة جياد ضخام من النحاس المطلى بالذهب الكثيف ، وقد نقلها البنادقة إلى هـذا المكان تخليدا للنصر الذى أحرزوه يوم استيلائهم على القسطنطينية [119] .

ويقوم قبالة هـذا الباب ميدان فسيح أكبر من ميدان مدينة المعسكر ، رُصِفَت أرضه بالآجر، وأحيط بدور متعددة الطوابق والأروقة ، وينعقد السوق هنا يوم الخميس من كل أسبوع وهو سوق أكبر من سوق Torro del Campo .

ويوجد على أحد جانبي هـذا الميدان برج [120] شاهق الارتفاع يعادل برج أشبيلية طولا ، وعلى قمته صليب من الذهب الرقيق، وهو من أجمل ما تراه العين حتى إن العين لتطالعه فى ضوء الشمس من مسافة ثمانين ميلاً ، وفيه من الأجراس ما يدق أحدها للقداس ، وثانيها لصلاة الغروب ، وثالثها لدعوة المجلس ويسمونه بناقوس المجلس ، ورابعها عند تسليح الأسطول، ولكل هذه النواقيس رنة تميزه عن سواه .

ويوجد على الجانب الآخر من هذا الميدان فى مواجهة البحر عمودان كبيران باسق الارتفاع ، يعلو أحدهما تمثال القديس جورج مع التنين، ويرى الآخر تمثال القديس مرقص حامى المدينة وراعيها ، وقد جيء بهذين التمثالين من القسطنطينية أيضاً ، ويقولون إنه لا يوجد ثم أحد يستطيع ارتقاءهما ، غير أن قشتاليا تسلقهما وبلغ ذروتهما، وإذ ذاك أمر البنادقة بأن ينال كل ما ينبغى فلم يطلب لنفسه شيئا ولكنه جاء إلى بعض سلالم على مقربة من العمودين ، والتمس ألا ينفذ القضاء فى أى مجرم مهما بلغ جرمه لو أنه لجأ إلى هذه السلالم مستجيرا ، غير أن المحتالين الآن يلعبون الميسر هناك ويقترفون غير ذلك من المنكرات وهم ألسنة تلهج بالثناء على الرجل الذى أتاح لهم هذا الضمان .

ويوجد بين هذين العمودين وبين كنيسة القديس مرقص قصر الضيافة الذى يقيم الدوج مع أسرته فى ناحية منه ، أما بقية القصر فمفتوح لكل من أراد مشاهدته ، وكذلك القاعة الكبرى التى ذكرت آنفا كيف صورت بها قصة البابا والإمبراطور والتى يعقد بها المجلس اجتماعاته ، كما توجد قاعات أخرى رائعة التأثيث حيث يجلس القوم للفصل فى القضايا ولهم سجونهم ، وتوجد تحت الأقواس – تجاه الميدان الكبير – بعض أحجار معينة من الرخام منها ثلاثة ملونة لشنق النبلاء ، والبقية لشنق الأفراد العاديين .

ويترك الأجانب فى هذه الاروقة أسلحتهم ، كما توجد بها بعض جلود الحيوانات المسماه بالتماسيح (١٢٢) التى بعث بها سلطان مصر إلى السنيور باعتبارها أكثر الحيوانات مدعاة للفزع ، والواقع أن هذا القصر رائع جدا .

وللبنادقة قانون يحرم على من ليس بالنبيل أن يصير دوجا أو يتولى مركزا فى الحكومة ،وهو قانون يلتزمونه على الدوام ولا يحيدون عنه إلا لسبب خاص ، فإذا انتهى العشاء من كل يوم أحد دقوا ناقوس المجلس فى ذلك البرج الذى تحدثت عنه ، وحين ذاك يلتئم شمل كافة النبلاء ويتذاكرون جميع ما جرى خلال ذلك الأسبوع من مسائل حكومية وإدارية وقضائية ،غير مستثنين من ذلك سوى المسائل التى يتناولونها فى اجتماع المجلس السرى لاسيما شئون الحرب .

ويتألف هذا المجلس السرى من الدوج والمندوبين ، وتبدو الجمعية أشبه بالبلاط الملكى ، وتوجد عند أبواب القصر القوارب المعدة، ويقف الوصفاء فى حللهم الزاهية ، وإذا ذاك يخرج النبلاء من القصر ويذهبون إلى بيوتهم .

وتقضى أوامر الحكومة بأن يقصر شراء النبيذ أو الخبز أو القمح أو الزيت على الأجانب والفقراء فقط دون المواطنين ، حيث تباع لهم بأثمان يخيل معها أنها لا تدر ربحاً لأولئك الذين جلبوها من أطراف الدنيا، ولكن الحكومة تتولى الدفع بدلا منهم حتى تتوفر لهم ، وحتى لا يغدو الغريب أو الفقير فى حاجة إليها ، والواقع أنى لم أر فى بلد ما حكومة توفر لشعبها ضرورات الحياة وترخصها له كما تفعل هذه الحكومة ، ويبدو أن الفواكه التى يأتون بها من أسبانيا تستهلك فى البندقية طازجة ورخيصة كما لو كانت فى بلدنا ، وكذلك القول فيما يجلبونه من بلاد الشام ، وكذلك لو أراد المرء شيئاً من الهند لأن البنادقة يتصلون بحريا بجميع نواحى العالم ، وهم يستوردون مع تجارتهم أشياء أخرى لإعالة الأهلين .

والبنادقة فاحشو الثراء ويتاجرون فى أشياء كثيرة فيكون دخلهم كبيراً من الربح البسيط ، كما أنهم يبيعون ما يبيعون بثمن معقول .

* * *

والبيوت رائعة جداً ، شاهقة الارتفاع ، متعددة الطوابق والمداخن ، ومجهزة بدهاليز ونوافذ عدة مطلة على الشوارع ، وهى محلاة بالذهب والرخام واللون الأزرق ، ويفخر الناس القريبون بل والبعيدون بكونهم بنادقة مواطنين لكى ينعموا بعطفها كما هو الحال مع ملك قبرص ومركيز مانتوا ومركيز مونتفرات الذين لهم — كما لسائر كبار اللوردات والفرسان — قصور رائعة فى المدينة .

ولقد رأيت بها كردينال قبرص — أخا الملك — وكان نازلاً ببيت شقيقه وهو إذ ذاك على وشك الرحيل إلى قبرص ، وكان القارب المعدّ لنقله

مربوطا إلى باب منزله الذى قابلته به وجئت معه المدينة ، كما يوجد غيره كثير من القوارب — ما بين صغير وكبير — قد شدت إلى أبواب بيوت أصحابها .

وبالبندقية كثير من الأديرة الرائعة العظيمة التى تزيد على ثمانين ديرا للرجال والنساء وأكثر من خمسين كنيسة ؛ وتحفل بجانب كبير من الآثار المقدسة وأجساد المباركين كجثمان القديسة هيلينا والقديسة مادينا وساق القديس كريستوفر من الركبة إلى القدم ؛ هذا إلى جانب كثير من عظام الطاهرين وما لا يحصيه العدّ منها مما أحضره البنادقة معهم من القسطنطينية حين استيلائهم عليها .

وطائفة العامة غنية على غير المألوف فى هذه الطائفة ، وهذا أمر قد تبينته أثناء الكرنفال فى حفل تنكّرى أقيم بقصر الدوج ، فقد جاءت بالبحر سفينتان كان من المفروض أن تقل إحداهما الإمبراطور الذى وفد مع ثلاثين فارسا فى أثوابهم الموشاة الزاهية ، وجاء فى السفينة الأخرى الأستاذ الأكبر لفرسان رودس الذى تدثر بالقطيفة السوداء ، وكانت السيدات اللائى استقبلنهم قد تسربلن بالحرير المطرّز ، وتحلّين بالجواهر الغالية ، والحق أننى رأيت بعضهن وقد لبسن ثلاثة أثواب مختلفة فى الحفل ولم يُعَدّ هذا الأمر منهن إسرافا ، وكنّ جميعا من أهل الطبقة الوسطى فى المدينة ولسن من الطبقات العليا أو الغنية ، ومع ذلك فلم يكن فى الإمكان جعل الحفل أحسن مما هو عليه .

والمدينة نظيفة لاسير بها نظافة الغرفة الرائعة ، هذا إلى أنها مرصوفة ومبلطة ، ولا تستطيع دابة على أربع أن تدخلها ، فإذا كان الشتاء لم ير للماء أثر فى شوارعها ومن ثم فلا يوجد الطين ، ولا يثور الغبار إذا حلّ الصيف ، وتعلو مياه البحر هنا ثم تتساقط — وإن كانت أقل مما هى عليه فى الغرب —

هنا فتزيل القذارة من الأماكن المقدّسة وإلا كان من المستحيل العيش مع النتانة ، ويقولون إن الجو يكون موبوءا فى بعض الأحيان ولكنهم يشعلون النيران صيفا وشتاء ويحرقون كثيرا من العطور ، ويحمل الناس معهم العطور والتوابل التى تطحن فى الشوارع وتذر فيعبق الجو بأبدع رائحة لذيذة .

* * *

ولم يكن مسموحا للحكام حتى وقت قريب بحيازة الأملاك فى البلد ، غير أنه لما ازدادت قوة السادة بحرا وبرا واكتسبت ولايات كثيرة سمح لهم بالاستقرار فى الأرض الأصلية ، فإذا دعت الضرورة الناس للذهاب هناك للترويح عن أنفسهم كان لهم ذلك ، كما أنه إذا انتشر أحد الأوبئة استطاعوا أن يجدوا مكانا يفرون إليه .

ولا يغادر الدوج المدينة لأى سبب من الأسباب إلا إذا ذهب إلى دير القديس جورج وهو على مرمى حجر من البحر من قصره ، فإذا عمّ المدينة الوباء[١٣٣] انفلت إليه ، وقد حدث ذات مرة أن مضى أحد الدوجات إلى الدير فراراً من طاعون اجتاح المدينة ، وانطلق كل شخص إلى الداخل فلم يبق بها سوى الفقراء ، وحينذاك جاء إلى الدوج أحد أقاربه وقال له :

« سيدى اللورد ، إن لديك الآن فرصة لم تتح لشخص ما ، فعندك ثروة البندقية ، وقد غادر المدينة جميع كباراتها ولم يتخلف بها سوى الأغراب والفقراء ، فافعل ما بدالك واحتجن الثروة وضع التاج على رأسك، والقب نفسك بملك البندقية ، ويظل التاج على رأسك دائماً أبداً » .

فلامه الدوج على ما قال لوما شديداً وبقى الأمر سرا مكتوما ، غير أنه

بعد مدة وجيزة نال البعض الدوج بالسوء فى كلامهم ، فكرر قريبه النصيحة التى أزجاها إليه وقال « إنها تجديه نفعا ما دام لن يصير ملك البندقية »، فجىء بهذا القريب أمام المجلس ليعرف أعضاؤه صدق ما قال ، وضيقوا الخناق عليه فاعترف بكل ما حدث ، وإذ ذاك مضى السادة أعضاء المجلس إلى الدوج وسألوه عما إذا كان حقا ما قيل ، فأنبأهم بأن الأمر جرى كما قال صاحبه ، فتشاور الأعضاء فيما بينهم ، ثم بعثوا فى استقدام الدوج وشكروه على إخلاصه لوطنه ، ولكنهم التمسوا منه — وقد لاذ بالصمت فى مسألة كانت تنطوى على خطر كبير للدولة — أن ينتظر مثوبتهم ، ثم إنهم أنفذوا أمرهم بإجزال المنح الكبيرة على زوجته وأبنائه ، ولكنهم أمروا بقطع رقبته حتى لا يجرؤ أحد ما على كتمان أمر يمس السلامة العامة ، وإذ ذاك جمعوا فى القاعة الكبرى التى ذكرتها جميع أسلحة الدوجات منذ البداية حتى وقتهم هذا ومعها أسلحة الدوج الذى قتلوه وغطوها بالقطيفة السوداء .

ويفخر البنادقة بأنهم أوقعوا عقابا ظل عالقا بالأذهان ، فقد كان هناك مواطن يفاوض فى أمر معين ضد المدينة فأمروا بقتله وأحالوا داره مسلخاً ، وأقاموا له تمثالا معلقاً بالسلاسل .

وثم آخر قتلوه لجرم اقترفه وتركوا بيته بلا باب يغلق عليه ، وأصبح لزاماً على من يعيشون هناك بذل أقصى ما يمكنهم بذله لصالح البلد .

وفى أثناء وجودى بها تقولوا شيئاً ضد كابتن كونت « كارمينولا »(١٢٤) وزعموا إنه ضالع فى مؤامرة ضد المدينة ، فاستقدموه إليهم بعهد أمان، ثم ألقوا القبض عليه وانتزعوا لسانه عن آخره وتفننوا فى تعذيبه بوسائل أخرى حتى

مات فدفنوه فى كومة روث ، ونصبوا عليه حجراً نقشوا عليه هذه الكلمات :

« هنـــا يرقد الخائن كونت كارمينولا »

وقد حدثت هذه الأمور وأمثالها فى تلك المدينة

* * *

وبالبندقية دارا صناعة إحداها للسفن هى أجمل واحدة فى الدنيـــا ، والأخرى للمدفعية وكل مايلزم الملاحة، ويصل البحر إليها ومن ثم تستطيع السفن الرسو هناك بعـد اجتيازها الحصنين ، وقد أنبأنى القوم أن لهم بالبحر وفى مخازنهم من أغربة الحرب والمراكب التجارية ثمانين واحداً إلى جانب سواها من السفن ، وقد حدث ذات يوم أثناء عودتى بعد سماع القداس فى كنيسة القديس مرقص أن رأيت قرابة عشرين رجلا يدخلون الميدان، وقد حمل بعضهم المقاعد وآخرون الموائد وغيرهم الكراسى،وكان بعضهم يحمل حقائب كبيرة مملوءة بالنقود ، وإذ ذاك ضربت طبلة دون الجرس الأكبر الذى يسمونه « بجرس المجلس » ، ولم تمض ساعة حتى كان الميدان قـد اكتظ بالرجال الذين قدموا وأخذوا أجرهم وانصرفوا الى دار الصناعة .

فإذا عبر المرء الباب ألفى على جانبيه شارعين يفصل البحر بينهما ، وعلى هذين الجانبين نوافذ البيوت مطلة على دار الصناعة وقـد خرج غراب يقطره قارب ويناول الناسُ مَن فيه من النوافذ حبال السفن والطعام والأسلحة والألغام والمدافع، وهكذا يأخذون من كل جانب كل ما يحتاجونه ، فلما وصل الغراب نهاية الشارع كان على ظهره جميع الرجال الذين يحتاج إليهم مع المجاذيف وامتلأ الغراب عن آخره ، وعلى هذه الصورة جاءت عشرة أغربة تامة التسليح وذلك فيما بين الساعة الثالثة والتاسعة . ولا أعرف كيف أصف ما رأيت هناك هناك سواء فى طريقة التكوين أو فى الناحية الصيرفية، ولا أحسب أن فى العالم

شيئاً أروع من ذلك ، ولو أراد البنادقة إظهار قوتهم الحربية فإن أعداء الدين في هذه الناحية لن يستطيعوا ـ في نظري ـ أن تكون لهم سفينة واحدة في البحر أو على الشاطىء ، ولن يجرءوا على تحدّي مثل هذا الخصم العنيف .

كان في الأزمنة السالفة لبضعة أسابيع قلائل أو حتى بضعة أيام صيد لا يستخرج الصيادون فيه إلا الأطفال الموتى من شباكهم وهذا جاء ـ كما يقولون ـ من أن التجار كانوا يظلون منفصلين عن زوجاتهم زمناً طويلا ، فتدعوهن الرغبة الجسدية إلى الاتصال والحمل ، فإذا وضعن وأردن إنقاذ سمعتهن بادرْنَ بإلقاء أطفالهن من النوافذ إلى البحر لهذا يظل المكان مهجوراً ، ولذلك تشاور الحكام ـ نظراً لهذه الجرائم البشعة ـ فيما بينهم وأسسوا مستشفى[١٢٥] كبيراً غنياً بُني بناء جميلا وزوّدوه بمائة مرضعة للأطفال ؛ والآن فإن اللاتي يردن ستر فضيحتهن يأخذن أطفالهن هناك ليعنى بتربيتهن ، وكذلك حصل البنادقة من البابا على مرسوم ينص على أن كل من زار هؤلاء الأطفال نال شيئاً معيناً من الغفران ، ومن ثم فإن الرجال والنساء يذهبون لزيارة أطفالهم بحجة نيل المغفرة ، ولا شك في أن هذا عمل ينطوي على التقوى العظيمة ، ويُنظر اليه بالاحترام العظيم .

وفي هذه المدينة ينزلون العقاب الرادع بمن يحمل سلاحاً مهما كانت حجته ، وإن خف العقاب قليلا لمن يحمل السلاح في مجلس الحكم .

ويُوقّر الناس المسنون توفيراً عظيما ويبذل القوم لهم الاحترام الكبير ، وحينما ينتخبون « الدوج » يتجرّدون عن الميل والهوى ، ويؤثرون أصلح الرجال لهذا المنصب على شرط أن يكون نبيل المولد ، فإذا انتخب لم يخلعوه قط من منصبه إلا لجريمة يقترفها ، ويجرون عليه راتباً قدره ثمانية ألف دوكات

يكون معاشا لأسرته ، أما بقية المصروفات فتتحملها عنه الحكومة ، ولا يستطيع أن يجاوز ماقدّر له ، كما أنه لا يستطيع أن يحكم على أحد أو يطلق سراح فرد ما دون موافقة أعضاء المجلس .

واشتهر البنادقة بشرف المعاملة ، ثبت لى ذلك بالتجربة ، وإذا فكر أحدهم فى شجب عهد أخذه على نفسه فى مسائل نقدية آثروا دفع دينه على ارتكاب مثل هذه الحماقة ، ولست أعجب من أناس يجوبون حول العالم أن يراعوا هذه القاعدة وإلا لم يستطيعوا الرحلة آمنين ، ومن عادتهم أن يرسلوا كل سنة مواطنا من مواطنيهم الأشراف الكرام المولد إلى كل من المدن الداخلية والواقعة على الخليج ، ويرسلون مثله كل عامين إلى الأقطار الواقعة فيما وراء البحار والبلاد القاصية ، وحدث ذات مرة أن بعثوا بالبودستا إلى جزيرة إقريطش التى نسميها كانديا ، ثم أنفذوا بعد سنة محققا على مألوف عادتهم ، فأجرى تحقيقا دقيقا انتهى به قبل عودته من الجزيرة بقطع رأس البودستا ، ومن ثم فإن الولايات والمدينة مراقبة جيدا ، وما كان لامرئ فى أى بقعة من البقاع التابعة لهم — حتى ولو كانت فى أقصى أطراف الأرض — إلاّ وخيّل إليه أنه فى البندقية ذاتها .

وتتمتع المدينة بحكومة قوية جدا مما أدّى إلى شدّة رخائها حتى أصابت من الثروة ما يجاوز الحدّ ، ويجلب مواطنوها إليها ما جاءوا به من منتجات الشرق فى وفرة بالغة وكثرة عظيمة ، ويفعل فعلهم أهل الغرب حتى ليخيّل أن العالم بأجمعه فى يمين البنادقة .

الفصل الحادى والعشرون

مغادرة البندقية . اتفاق بين البنادقة وأهل ميلان .
فرارا . البابا يوجين وبيزنطة .
انعقاد المجمع . الحكومة .

. . .

حينما غادرت البندقية للذهاب إلى الأقطار النصرانية الأخرى خلفت ورائى بها ما جئت به معى من بضائع الشرق ومن بينها العبيد وكذلك أموالى وكل ما اشتريته ، وتركت ذلك كله فى رعاية صديقى العزيز السيد «دومينيجوفدت» من تجار البندقية ، ولم أحمل معى المال غير ما قدرته كافيا لسد احتياجاتى وغير صكوك التبادل النقدى على جماعة معينة من التجار فى مدينة «بروجس» بفلاندر ، ورحلت فى قارب ونمت ليلة رحيلى فى مكان اسمه «شيوجيا» قد بنى فى البحر شأنه شأن البندقية وهو خاضع لها ، وكان به بعض سفن محترقة كانت قد عطبت فى الوقعة التى جرت حين قدم الجنوية إلى هذه البقعة لمحاربة البنادقة .

فلما كان الصباح رحلنا حتى إذا قطعنا مسافة أربعة أو خمسة أميال دخلنا نهر «بو» أحد أنهار الدنيا العظمى ، أما الفرع الذى دخلت منه فكان واحدا من ثلاثة فروع ، والنهر كبير جدا حتى إنه حدث فى كثير من مرات الحرب التى كانت تنشب بين البنادقة وبين دوق ميلانو[١٢٦] أن أنزل كل من الفريقين فى النهر أساطيل كبيرة ، وبه من السفن أعجب ما تسنى لى رؤيته منها ، إذ أنها

مراكب شراعية ضخمة مستوية القاع مما يذلل لها السير فى المياه الضحلة ، وعلى سطحها قلعة خشبية كبيرة ذات برج شاهق يضعون فيه ما تستلزمه مدفعيتهم من الذخائر الحربية كالقنابل والمدافع وما شا كلها ، ويقيم الجدفون فى القسم الأسفل حتى يكونوا بمنجاة من الهجوم عليهم ، ولا تسير هذه المراكب بالقلاع كما أنها لا تصنع للإبحار لأنها تكون سهلة الانقلاب ، ولكنهم يستخدمونها فى حروبهم المنيفة ، وقد حدث أثناء وجودى هناك أن أقلع البنادقة بأربعين سفينة منها لمحاربة دوق ميلانو قصد الاستيلاء على إحدى المدن فخرج اللمبارديون لصدهم ، ويقال إنه جرت بين الجانبين معركة عنيفة .

ويستعمل اللمبارديون نوعا صغيرا من القوارب يسمى « جلاباجو »(١٣٧) قد غطى كله بطبقة من المعدن حتى ليبدو وكأنه القبو ، ويصطنعه القوم لإشعال النيران فى سفن الآخرين على حين أنه ليس من الممكن إنزال الضرر بهم ، على أن ذلك لم يُعجِز البنادقة فقد بعثوا رجلا غطس تحت الماء وسبح حتى بلغ سفن العدو وأعمل فيها ثقوبا بمثقاب كان معه، ففقد اللمبارديون ثلاثة من من مراكبهم قبل أن يقفوا على ماحدث ، على حين خسر البنادقة أربع سفن التهمتها النيران ، واستمرت المعركة طويلا ثم انتهت بهزيمة البنادقة وفقدانهم ست عشرة سفينة من سفنهم ، فلما استردوا ما استطاعوا استرداده انحدروا مع النهر وعادوا إلى المدينة ، وعلى هذا المنوال تنشب الحرب دائما بين البنادقة واللمبارديين .

* * *

تابعت رحلتى فى نهر البــو حتى بلغت مكانا فى الداخل يسمى «فرانسكولينو » وهو تابع لمركيز فرارا ، ومن ثم ذهبت إلى «فرارا » حيث

كان هناك إذ ذاك البابا وإمبراطور القسطنطينية فى حشد كثيف من الناس الذين اجتمعوا لمشاهدة الجمع الذى عقد قصد التوحيد بين الكنيسة وبين الإغريق (١٢٨) .

فلما كان اليوم التالى صحبت كثيراً من القشتاليين وذهبت لرؤية البابا «إيوجين» الذى تلقانى بالترحيب العظيم ، ورغب فى معرفة تفاصيل رحلتى إلى بيت المقدس والوقوف على أخبار سلطان مصر والسلطان التركى الكبير ، وكذلك عن الإمبراطور نفسه ومدى سلطته ، فأنبأته بكل ماطلب وأفضيت إليه بما لدى من المعلومات التى رضى بها ، ومن ثم غادرته .

ومضيت مساء ذلك اليوم للقاء إمبراطور اليونان وأعطيته كتابا من زوجته وأخيه الطاغية ، فتلقانى فرحا قائلا إننى من عشيرته ومن أهل بلده ، ثم قرّبنى منه وأجلسنى إلى جواره مستفسراً عن أخبار وطنه ، وطلب إلى أن أزوره كل يوم من أيام إقامتى ، وأبدى ما يكون عليه من المسرة التامة إن أقمت معه ، وبذلك توثقت المعرفة بيننا ، وكان الإمبراطور يعيش فى قصر من قصور مركيز دى فرارا على سطح الماء فى « بواتيلاو » التى يسمونها بالجنة ، وهى بقعة رائعة جداً .

إستأذنت ذلك اليوم واستجبت التماس القشتاليين الذين كانوا هناك ، وحلقت لحيتى التى كنت قد تركتها تطول زمناً ليس بالقصير ، ثم ارتديت زيىّ الوطنى وذهبت ثانية لمقابلة الإمبراطور الذى ما كاد يرانى حتى قال إننى اخطأت فى حلق لحيتى إذ أنها غاية ما يشرف به الرجل ويكسبه الوقار ، فأجبته: « لكننا يا مولاى نؤمن بعكس ذلك ، فنحن لا نطيل لحانا إلا فى حالة الحروب الخطيرة » وتكلمنا عن هذا الموضوع فترة من الوقت ثم عدنا إلى مسائل اليونان ،

واستفسرنى فى دقة عن الأوضاع هناك وعن زوجته وأخيه وحالة البلد وماذا يفعل التركى الكبير ، وعن حركاتى منذ أن كنت هناك ؛ وأجبته عن كل شىء أعلمه .

وكان على الإمبراطور أن يذهب هذا اليوم لرؤية البابا فمضيت فى صحبته ، وإن حمله بعض الرجال على كرسى لما كان يشكوه من مرض النقرس الذى أعجزه عن السير ، فاستقبله البابا باحترام عظيم فى قاعة فسيحة أعدت لذلك الغرض وكان معه عدد من الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ومركيز دى فرارا وغيرهم من سادة الإقليم وقد جلس كل فى مكانه الخاص به ، فكان على اليمين مقعد إمبراطور ألمانيا تتلوه كراسى ملوك المسيحية وأمرائها ، وعلى اليسار كرسى إمبراطور اليونان وبعض رجال الدين ، وتوسّط الجانبين مقعد البابا وكان عالياً فوق بقية المقاعد الأخرى ، واستمر انعقاد مجلسهم فى هذا اليوم مقدار ثلاث ساعات أو أربع وهم يناقشون — كما قيل — فيما بينهم بعض الاختلافات المتعلقة بالإيمان بين الإغريق واللاتين .

ثم انصرفنا بعدئذ ودخل البابا حجرته بينما عاد الإمبراطور إلى قصره مصحوباً بأعضاء رحلته ، لأنه كان قد أحضر معه من اليونان رفقة كبيرة من الناس خرجوا جميعهم تقريباً فى ثياب طويلة ولحى كبيرة ليكسبوا أنفسهم مظهر الجد والوقار ، وكانوا فى الواقع أطيب صحبة ، وإن داخَل المرء شعور بأن أكثرهم كانوا من حاشيته وبطانته أكثر مما يريد أن يُظهرهم به ، ويقال إنه كان معه ما لا يقل عن ألف شخص .

ودخل الإمبراطور قصره وانفض الجميع من حوله إلا أنا فقد بقيت معه وذهبت بصحبته ودعانى لمشاركته طعام الغذاء على مائدته ، وكان شديد الرعاية بى .

بعد ثمانية أيام من ذلك الحل حل عيد القربان المقدس ، وعلى الرغم مما كان بصحبة البابا والإمبراطور من حاشية عظيمة رائعة إلا أن احتفاءهما به كان على صورة مهينة قد تشأوهما فيها قرية لا يزيد عـدد أهلها عن عشرة أنفس ، وذلك لتبدل العادات المرعية فى هـذا العيد نظراً للجموع الغفيرة من الأغراب التى وجدت حينذاك ، وبينما كنت هناك رأيت رسولين جاءا فى أمر إلى البابا، أحدهما من دوق برجنديا يسأله الإذن بسماع القداس بعد الظهر، وثانيهما من قِبل دوق ألمانيا يلتمس السماح بأن يكون القداس قبل منتصف الليل .

* * *

ومدينة فرارا من أبدع الأماكن التى رأيتها ، وهى تضاهى « بلد الوليد » فى حسنها وإن امتازت عنها ببيوتها الحسنة جداً وشوارعها الجميلة ، ثم إنها حسنة التسوير ذات أبراج وخندق وبها قلعة واقعة على أحـد جوانب نهر بو ، ورغم جمال داخلها إلا أن خارجها أعظم جمالاً ، وتربتهـا شديدة الخصب وتتناثر بساتين الفاكهة فى شتى جهاتها ، وتدفع المدينة للبابا الجزية ، ويقال إنه استلم منها فى إحدى المرات مائة ألف أو مائة وخمسين ألف دوكات ، ولـكنها أخذت فى التناقص بمقدار عشرة آلاف أو ستة آلاف دوكات ، حتى بلغت الآن ثلاثة آلاف دوكات وسأشرح حالا سبب هذا .

ذلك أن مركيز دى فرارا من أهـــل فرنسا ويقال أيضاً إنه من سلالة « جالالون »[١٢٩] ، وتتبع تقاليد معينة خاصة بالخبز معه ومع الآخرين من نفس البيت كوضعهم الرغيف على المائدة مقلوباً وإدارته بالمكس ، ويقال إنه جاء إلى ملك فرنسا سائلا إياه أن يمده بالسلاح وأن يعفيه من هذا التقليد ، فأمده

الملك بالسلاح، ولكنه قال إنه لا يستطيع إجابة مطلبه الثانى، وهذا المركيز سيد كبير ورث كثيراً من المدن الجميلة والبلدان والقلاع ، بالإضافة إلى دخل يقدره القوم بثلاثمائة ألف دوكات ، وهو رجل شديد المرح بهى الطلعة كلف باللهو والغزل، ويقال إن لديه على الدوام عشراً أو اثنتى عشرة محظية فى قصور خاصة له بالمدينة ، ولا يقل عمره عن ثمانين سنة ، وهو صغير الجرم مفرط السمنة ، ويقال عنه فيما يقال إن زوجته ـ وهى ابنة أحد أدواق ألمانيا (١٣٠) ـ تولهت غراماً بإبن له من زوجة أخرى، وتطور غرامهما إلى حد نسى الإبن فيه واجبه حيال أبيه ونسيت الزوجة واجبها تجاه زوجها، فانغمسا فى شهواتهما الجسدية ، فلما علم المركيز بالخبر من أحد خدمه فاجأهما وهما يرتكبان الخطيئة، فبعث بهما إلى قضاة البلد ليقرروا الحكم الذى يوقعونه بهما، فعاتبه كثير من سادة البلد وغيره حتى إن البابا توسل إليه أن يسلك سبيل الرحمة ، فكان رده على الجميع أنه لن يأمر بقتلهما أو المن عليهما بالحياة بل يترك تقرير ذلك للقضاة يحكمون بما يرون، فقضوا ـ فى حضوره ـ بقتلهما ، فأخذوهما فى الحال إلى حيث تنفذ العدالة وأنفذوا الحكم فيهما ، ولو رحنا نصف كل ما حدث لاستغرق ذلك وقتاً طويلا، ولكن المركيز أمر بتهيئة زورق كبير ركبه وأبحر به الى بيت المقدس ، فلما عاد تزوج من ابنة دوق آخر من أدواق ألمانيا ، وكانت فتاة شديدة الجمال فى الخامسة عشرة من عمرها بينما هو فى الثمانين ، ومن ثم فلا مشاحة إن وقعت بلية أجل من الأولى .

وللمركيز عدة أبناء من زوجته الأولى لا زالوا فى دور الطفولة ، كما أن له ابناً شاباً من أم ولد فى الثلاثين من عمره ، على جانب كبير من الفضيلة إلى جانب أنه فارس فى الحرب مغوار ، ولما رأى المركيز أن إيطاليا لا تعرف أبداً

السلم وأنه لابد تاركٌ أملاكه لهؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون كيف يحكمون — مما سيؤدى حتمًا إلى المضرة — فقد اعتزم ترك أملاكه إلى هذا النغل، ومن ثم اعترف بأبوته الشرعية له، وقرره وريثه فى كل ما يملك، وأمر الناس بتقبيل يديه واعتباره حاكمهم ولقد استشار المركيز البابا فى ذلك فأذن له، ثم أصدر المركيز أمره بإعطاء أكبر أولاده الشرعيين — وكان لا يزال صغيراً — نصف الدخل، وأن لا يكون له من الحكم شيء.

ولقد رأيت ذات يوم هناك احتفالا كبيراً فى القصر حضره جمع غفير من علية القوم من الرجال والنساء وأقيم استعراض، فلما فرغوا منه تسابقت السيدات جميعهن فى الجرى لمسافة معينة قد وضعت فى نهايتها ثلاث قطع من القماش: إحداها من الحرير المطرز، والثانية من المخمل القرمزى، والثالثة حمراء اللون، فنالت الفائزة الأولى القطعة الحريرية والثانية قطعة المخمل والثالثة الحمراء، ولكن لو كانت هناك[١٣١] « جرانديلا دى ألكوديا » Garandilla de Alcudia لقطعت المسافة ثلاث مرات ولربحت جميع الجوائز.

والمركيز رجل مرح، فيه ما يفصح عن عرقه الفرنسى.

* * *

ولقد بقيت فى هذه المدينة عشرين يومًا أستجم وأتأهب للقيام برحلتى إلى ألمانيا، واشتريت من الدواب ما أحتاجه أنا وجماعتى، فلما تم كل شيء مضيت إلى إمبراطور اليونان مستأذنًا إياه فى الرحيل فسألنى أن أعود لزيارته مرة أخرى قبل عودتى إلى إسبانيا ما دام لا بد من عودتى إلى البندقية لأخذ بضاعتى فوعدته بذلك، ورحلت من « فرارا » واجتزت منطقة الحدود إلى مدينة تسمى « بارما » على نهر « بو » وتابعة لدوق ميلان.

فلما اجتزت النهر وجدت « نيكولا[١٣٢] بقشنينو » قائد عام الدوق على رأس عشرين ألف فارس وهم يؤلفون أجمل فرقة وقعت عليها عيناى ، ويقال إنه كان ذاهباً للاستيلاء على بولونيا التابعة للبابا ، فمكثت ثلاثة أيام فى « بارما » لأشاهدهم وهم زاحفون ، وكان من أجمل المناظر رؤية فرقة من الرجال مثل هؤلاء رائعة القسامة ممطية صهوات جيادها وقد جهزت بكل ما هو لازم للحرب ، وأحسن من هذا كله أن يكون على رأسهم مثل هذا القائد الفطن القدير .

وفى هذه المدينة أحسن أنواع الكريز التى رأيتها .

ذهبت من هناك إلى مدينه « بياتشنزا » التابعة لنفس الدوق ، وهى أيضاً مدينة كبيرة يقطنها سبعة آلاف أو ثمانية آلاف شخص ، فلما كان اليوم التالى رحلت عنها إلى « ميلانو » الضخمة التى تعد من أعظم مدن العالم المسيحى ، بل إن الواقع يؤكد ما يقوله الكثيرون من أنها أعظمها جميعاً ، ومع عدم اكتراث القوم بتسويرها إلا أنه يحيط بها خندق كبير له متراس ضخم وبداخله المدينة وهى حسنة البناء ، وشوارعها جميلة جداً . وإن رؤية ميلان فى يوم عمل لأروع وألذ من مشاهدتها فى يوم عطلة ، فشوارع صناع الأسلحة وبيوتهم أبهى ماتكون منظراً ، وكذلك دور صناع الرماح والسرج والخياطين الذين يصنعون ملابس الحرب وأدواتها ، وهم الذين يعرفون كم عدد حكام إيطاليا وكم بها من قواد الجيوش ومارتك كل منهم ، وجميع هؤلاء الحرفيين مجهزون بكل شىء يستطيعون معه إمداد هؤلاء جميعاً بكل ماهم فى حاجة إليه ، مهما عظمت مكانة الطالب فى إيطاليا .

وجميع الصناع مهرة بارعون ، ويقومون بإنجاز أعمالهم فى انتظام .

ويوجد بالمدينة المكان الذي يعيش فيه الدوق، وهو قصر بالغ الروعة، عظيم الاتساع، يكتنفه سور قوي ضخم فيه شرفة حصينة جداً، وله خندق عميق واسع يخترقه النهر الذي يصطاد منه الأهالي كثيراً من السمك، ويقوم هذا المكان على أرض مستوية على أحد جانبي المدينة. والواقع أنه لا يوجد في كل أرجاء «لمبارديا» بيوت مشيدة على الصخور ولكن بناءها في السهول لا يجعلها بحال من الأحوال أقل منعة، إذ إنها محاطة من جميع نواحيها بالخنادق.

وتزخر هذه المدينة بكثير من الكنائس والأديرة الشهيرة لاسيما كنيستها الكبرى التي لا زالوا يعملون في بنائها حتى اليوم والتي يسمونها «بالقبة» وهو بناء فخم جداً، ويرتلون فيها القداس الأمبروزي الذي هو عكس قداسنا، كما علمت أيضاً أنهم يختلفون عنا في أداء الصوم الكبير.

ويقوم بها دير غني جداً لجماعة الإخوان المبشرين قد دفن فيه القديس بطرس الشهيد الذي يعتقد أنه استشهد في هذه المدينة.

ولا يسمح دوق[١٣٣] ميلان لأحد ما أن يراه، ويعللون ذلك بخوفه من أن يدس له ذلك الأحد السم، لكن حدث في ذات يوم أن كان في بستان هناك فرأيته وتحدثت إليه فتبينت أنه رجل فطن رشيد، جاد شريف، ضخم البنيان والتركيب، ذو أنف طويل جداً، حليق الرأس عاريها، ولم يكن يقوم على خدمته كثيرون، ويقول الناس عنه إنه لا يحفل بأحد غير المحاربين وحملة السلاح الذين يبقيهم على الدوام في المعسكرات وميادين القتال، والواقع أنه مصيب في تقدير أمثال هؤلاء الرجال.

وليس لهذا الدوق من ابن أو بنت سوى واحدة من أم ولد، زوجها الكونت فرنشسكو الذي هو الآن دوق ميلان[١٣٤].

وليس للمدينة ندّ أو ضريب بين المدن المسيحية فى مساحتها وكبرها وعدد سكانها : أشرافاً كانوا أم صناعاً ، ويقولون إن دخل الدوق من المدينة وحدها يبلغ ألف دوكات فى اليوم ، ولا يستطيع أحد ما دخول المدينة إلا إذا حصل أولا — عند دخول أراضى الدوق — على شهادة تثبت أنه قادم من بلد صحى غير موبوء بالطاعون ، وهم يلتزمون هذه القاعدة أشد الالتزام ، ويقال إنه لم يصب أى جزء من القطر بالوباء منذ ستين عاماً .

واستفسرت عن أمور كثيرة تتعلق بحكومة المدينة وهى منظمة جداً ، وكان استفسارى أكثر عن أحوال أهل بيت الدوق ورجاله ، ويقال إنه محرّم على أعضاء مجلسه الحكومى أخذ مال إلا منه . وإذا كان ثمت ضرورة تستدعى عقد هذا المجلس وتتطلب رأيه أرسل إلى كل عضو من أعضاء المجلس ورقة مكتوبة تتضمن المسألة التى يراد البت فيها ؛ فيكتب كل واحد رأيه فى أسفل الورقة دون مشاورة رفاقه ، فإن خالف أحدهم هذا المنهج وحاد عن هذه الجادة إلى غيرها أنزل به الدوق العقوبات الشديدة . ثم يقرأ الدوق رأى كل عضو من أعضاء المجلس ويختار من بينها ما يراه أحكمها .

ولقد استحقت قراراته الثناء العظيم خلال حكمه .

الفصل الثاني والعشرون

الطريق إلى ألمانيا . عبور الألب . ممر سنت جوتار . بازل .
الحمامات . غسل الذهب . ستراسبورج . المحيطة
ضد النار . ميتز . الرين . كوبلنز .
الوصول إلى كولونيا .

. . .

رحلت من ميلان ميمما شطر ألمانيا ، ولما لم أصل إلى أي مدينة هامة تستحق الإشارة فليس لدي ما أقوله ، غير أنني وجدت كثيراً من الأماكن الخربة التي أتت عليها النيران ودمرها القائد الإيطالي الكبير «فرانشينوكاني»(١٣٥)، فلما كان اليوم الثالث من مغادرتي ميلان أدركت مدينة ألمانية يسمونها «لوسرسا»(١٣٦)، غير أن الضرورة ألحت علي - قبل تمكني من دخولي إياها - أن أضع جميع الدواب والأحمال على المراكب ، وأن أعبر بحيرة ضخمة تستمد مياهها من جبال الألب ، وهي بحيرة شديدة العمق تمتد مسافة أربعة فراسخ تقريباً وتزخر بشتى أنواع الأسماك التي يقال إنها أشهى ما تكون طعما ، وتحتوي هذه المدينة على ما يقرب من ألف وخمسمائة مسكن ، وهي حسنة التسوير ، تزينها الدور الجميلة المشيدة على الطراز الألماني وبداخلها المواقد ، وتزخر بالحانات الرائعة .

* * *

ولقد غادرتها في اليوم التالي ووصلت إلى سفح ممر سنت جوتار الموجود في بقمة عالية من جبال الألب ، وشرعنا في ارتقائه غداة وصولنا بعد اتخاذ

الإجراءات اللازمة والاستعدادات الضرورية ، وكان الوقت إذ ذاك أخريات شهر أغسطس حيث يذوب الجليد بسبب شدة الحرارة مما يجعل السير بالغ الخطورة ، ويستعمل الأهالى فى تلك الجهات ثيرانا ألفت عبورها ، ومما يستعملونه نوع من الدواب يسير فى المقدمة وهو يجر حبلا طويلا قد شُدّت إليه مقطورة تشبه النورج القشتالى(١٣٧) ، يجلس عليه المسافر حيث يمسك حصانه خلفه بلجامه ، وبذلك يتم عبور الممر فى أمان ، فإن قُدّر حدوث مضرة لم تتعدّ هلاك الثور .

وحين يجتاز المسافرون المعابر الضيقة ويكون الثلج المغطى للجبال على الجانبين موشكا على الانهيار فإنهم يطلقون النيران حتى تتساقط تلك الثلوج التى تكون دانيةً من السقوط ، ويحدث فى بعض الأوقات أن تسقط الثلوج الهشة وتدفن المسافرين بين طياتها ، وتفيض القنوات والأنهار فى ذلك الفصل بمياه الجليد الذائبة .

وهذه الجبال شديدة الازدحام بالسكان ، وحيثما سار المرء صادف فى طريقه الخانات والعساكر الصغيرة ، ولقد تسلقنا فى هذا اليوم صومعة القديس « جوثار » الموجودة فى بقمة تكاد تمس السماء ، ومع ذلك فهناك جهات تشأوها ارتفاعا حتى ليقول الرهبان إنه لم يتسنّ لأحد ما رؤية قمتها لأنها ملفوفة على الدوام فى الغيوم ، ومن هنا يستطيع المرء رؤية إيطاليا ، ويمكن لذوى البصر السليم الحاد أن يروها بأكملها وذلك لارتفاع الجبال فى هذه الناحية ارتفاعا هائلا على حين أن الأرض الإيطالية بالغة الانبساط والانخفاض بالنسبة إليها .

حين بلغنا هذه الجهة دفعنا أجر دوابنا وسرنا عبر الجبال فى الطريق المؤدى إلى « بازيل » الذى يزخر بكثير من السنانير وغيرها من المخلوقات والحيوانات ، كالماعز التى يتخذ الناس من جلدها « الشموا » .

وأخذنا سمتنا فى هذه الطريق ، وانحدرنا من الجبال والقمم، وظللنا سائرين مدة يوم عبر السهل حتى أدركنا مدينة « بازيل »[١٣٨] الرائعة ، حيث كان المجلس الكنسى منعقداً يومئذ ، وقد ازدحمت المدينة بطائفة كبيرة من الخلق من شتى الأجناس ، من بينهم كثير من الأشراف الإسبان رغم أن « الفيريز »[١٣٩] كان قد غادرها حينذاك ، ومع ذلك فقد ظل بها من بعده كردينال « سان بدرو » وأسقف « كونيكا » وأسقف « بيرجوس » وغيرهم .

وتقع المدينــــة على شاطىء النهر الذى ينبع من الألب ومن بحيرة « شافهاوزن » ، وهو سريع الجريان سرعة مخيفة ، وطالما حدث أن جرفت المياه معها فى اندفاعها كتلا ضخمة من الثلج المتجمد كأنه الأحجار صلابة فدمرت المبانى وهدمت الجسور وقضت على كل ما اعترض سبيلها ، الأمر الذى يجعل البحارة فى خطر دائم من مصادفتهم إحدى العقبات التى يكون فيها هلاكهم رغم ما يتمتعون به من براعة فائقة وحذر بالغ ، إذ لا يتأتى العودة مطلقا للمراكب التى تنحدر مع النهر فى جريانه لأنها لا تستطيع أن تشق طريقها ضد تياره ، والواقع أن هذه هى الخطة التى يتبعها القوم فى السير مع التيار الذى يصيب الإنسان بالدوار إن نظر إليه ، ويزخر هذا النهر بكثير من الأسماك الشهية والمفيدة ، ومن بينها أسماك « السالمون » الشديدة الضخامة .

* * *

وتحفل مدينة بازيل بكل المنتجات الألمانية والأنبذة الرائعة وغيرها من المشروبات ، وهي حصينة التسوير رائعة البناء ، وتتألف دورها من عدة طوابق ذات مداخن عالية ، تزينها النوافذ الزجاجية المطلة على الشوارع ، وتمتاز معظم عمائرها بالأبراج ذات الصلبان ودوارات الريح ، والمدينة جميلة جدا من الداخل ، وهي أجمل ما تكون منظراً من الخارج ، وشوارعها مرصوفة بالحجارة ، وتكثر فيها أحواض مياه الشرب ؛ أما كنائسها وأديرتها فبالغة الروعة ، وأما بيعتها الكبرى فشيدة أحسن تشييد ويعقد فيها المجمع الكنسي اجتماعاته ، وبلغ سكانها ـ رجالا ونساء ـ في الظرف غايته وفي الثراء منتهاه ، وتحكم المدينة نفسها بنفسها رغم تبعيتها للإمبراطورية ، ويقال إن أهل بازل لا يلتزمون للإمبراطور بشيء سوى استضافته للغذاء حين يكون بها ، وسوى إمداده بزوج من السراويل القصيرة ، لكن في استطاعته دعوتهم للحرب. وتتصل بالمدينة ضواح كبيرة آهلة بالسكان ، وقد توافد على بازيل جموع كثيفة من المتسولين من شتى رحاب ألمانيا الذين جذبهم إليها المجلس الكنسي ، ويكادون وحدهم يكونون في مجموعهم مدينة كبرى .

ولقد سمعت أن « كردينال سان بدرو » كان في منطقة جبال الإلب في حماماتها الساخنة التي يسمونها بالحمامات المقدسة ، وعلى بعد ميل منها تقريبا دير عظيم اسمه دير « ماريا ستيلا »[١٤٠] الذي ظل الكردينال مقيما به ستة أشهر ، كراهية منه في أن يدخل بازل مخافة أن يغضب البابا « يوجين » ؛ ولكنه كان يدبر أمور مولانا الملك من هذا المكان ، ولقد ذهبت لرؤية الكردينال الذي لقيني أحسن لقاء ، ولما كنت لا أزال أشكو من الجرح الذي أصابني في « تروى »[١٤١] والذي يبدو على الدوام أن السفر يزيده سوءا فقد حملني

الـكردينال على الإقامة عنده تحت إشراف مطبّب يقدره رجال الدين والمدنيون على السواء أعظم التقدير ، ولا جدال فى أنه أهل لهذا التقدير بفضل شخصيته البارزة ، وفضائله السامية وأمانته الفائقة ، واستغرق علاجه إياى عشرين يوما عوفيت بعدها ولقيت الشفاء على يده ، وينظر الرهبان إلى هذا المطبب بمحبة زائدة،إذ لم يقف الأمر عند أفضاله عليهم بل أقام لهم حجرات دافئة ، كما استنبط غير ذلك من المزايا لخدمة الدير الذى يقع عاليا فى الجبال وفى مكان يعتبر أكثر أماكن ألمانيا برودة .

* * *

ومضيت لرؤية الحمامات حيث ألفيت حشدا كثيفا من المرضى والحجاج الذين قدموا إلى تلك البقعة من جهات قاصية وفاء لنذور وعهود قطعوها على أنفسهم ، ولا يخطر ببالهم شىء من ناحية الرجال والنساء الذين يسبحون عرايا جنبا إلى جنب ، والذين جرت عادتهم أن يمارسوا بعض الألعاب ويتناولوا طعامهم وهم فى الماء ، ولقد قابلت هناك سيدة كانت تؤدى فريضة الحج من أجل أخيها المأسور فى تركيا ، وكثيرا ما ألقيت بعض العملات الفضية فى المسبح وكانت فتياتها يغطسن وراءها يلتقطنها بأفواههن ، ويستطيع المرء أن يتصور ماذا يمسكن فى الهواء حينما يجعلن رءوسهن إلى تحت،والقوم هنا ذوو أصوات جميلة حتى إن العامة منهم لينشدون بعض الأغانى بمهارة فائقة تحسبهم معها فنانين ..

* * *

لم يكد يتم شفائى من جرحى حتى التمست الإذن من الـكردينال وعدت إلى بازيل فى صحبة السيدة التى لقيتها فى الحمامات، ولم أتركها حتى بلغنا مدينة

« كولونيا » التى كانت بها أملاكها ، وفى اليوم الأول من رحيلنا — بعد مغادرة الحمامات — سافرنا مبحرين إلى مدينة تسقط فيها مياه النهر من مكان يبلغ برجين ارتفاعا ، وحينذاك أنزل البحارة الركاب وشدوا القوارب بأمراس طويلة لتنحدر مع المياه الساقطة ، حتى إذا صارت فى الجهة السفلى مصوا إليها ثم عاودها ركابها لتنطلق بهم سريعة بقوة المياه المندفعة بعنف كبير من الجبال ، وبذلك وصلنا إلى بازيل ثم غادرناها بعد أن أقمنا بها ستة أيام .

* * *

وصلنا بعدئذ إلى مدينة شاهدت على شاطئها جموعا من الناس تغسل الذهب من رمل النهر ، ويتبعون فى ذلك الطريقة التالية وهى أنهم يضعون مائدة على مقعد طويل مجاور للمياه ، وتكون إحدى قوائم هذا المقعد على حافة النهر وقوائمه الأخرى مرتفعة ، ثم يضعون فوقه قطعا من الخشب أشبه بالسلالم يكاد عرضها يبلغ ذراعا ، ويأتون بالرمل بعدئذ من مجرى القناة ويقذفون به إلى أعلى المائدة ، ويتركونه ينحدر تاركا وراءه نوعا من الطمى الأبيض عالقا بالسلالم،حتى إذا تجمعت لديهم منه كمية ضخمة وضعوها فى حوض ماء مجاور لها حتى يمتلىء الحوض ، ولما كان الذهب ثقيل الوزن فإنه يترسب فى القاع ، وحين يرفعون الطمى بأيديهم يمكنهم رؤية الذهب يبرق ، إلا أن الحظ لا يواتيهم كل يوم ، على أنهم يسكون من هذا الذهب العملة المعروفة باسم « ذهب الراين » .

* * *

وتقوم على جانبي النهر المدن والقلاع متجاورة آخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، كما تقوم على شاطئه الكنائس والأديرة الرائعة ، هذا إلى وجود كثير من مستشفيات الجذام « لسنت لازار » مما تستحق المشاهدة ، ويقال إن انتشار هذا المرض راجع بالضرورة إلى كثرة أكلهم الناس السمك وإقلالهم الشديد من شرب النبيذ واستعمال الزيت ، ويروون فيما يروون أن إبنا لأحد أدواق ألمانيا قدم — منذ زمن غير بعيد — مع زوجته — وهي ابنة دوق آخر — ليقضي ليلة في أحد بيوت المجذومين ، فسوات لهم أنفسهم اغتصاب السيدة مما حمل الزوج على قتلها، فقتلوه هو الآخر ، فلما عرف أهلهما الخبر قدموا وأحرقوا البيت بمن فيه ، لكن لو أردنا أن نروى كل ما حدث لضاق المكان عن استيعاب ذلك .

وفي اليوم التالي وصلنا إلى مدينة «ستراسبورج» التي تسمى في اللاتينية «بأرجنتينا» أي «مدينة الفضة» ، والحق أنها من أبهج المدن في العالم المسيحي إذ ينساب النهر فيها متخللا شوارعها . وهي ذات أسوار حصينة وخندق شديد العمق ، حسنة البناء ، وشوارعها بهجة المنظر مستوية جيدة الرصف ، وتوجد بها كثير من المدافن كما تحفل بيوتها بالمواقد ، وخاناتها جميلة ، وكنائسها وأديرتها رائعة في بابها مما تستحق المشاهدة لا سيما كنيستها الجامعة التي هي نسيج وحدها فنا ، ولها برج فخم به الساعة ، مما لم أر لها قط مثيلا في الجمال ، ويقف على البرج — فوق الساعة — ثلاثة من القسس يتناوبون الحراسة فيما بينهم طول الليل ، وكلما دقت الساعة نفخوا في بوق أشبه ببوق الرعاة ولكنه ذو دوى أضخم من دوى الطبلة ، ويقول الناس إنما أقيم هؤلاء الرجال هناك كرقابة ضد النيران ، ويوجد في كل أبرشية جماعة من

القواد، فإذا دوى النفير إنذاراً بالنار عرف كل رجل لواءه فمضى قدماً إليه، وإذ ذاك يسير كل شيء وفق نظام معين، فالبعض يحضر زكائب القش، وآخرون يأتون بجرادل المياه والفؤوس والخطاطيف الحديدية والرماح الطويلة، وبذلك تكون جميع وسائل الإنقاذ موجودة في الحال، ولقد ذهبت ذات ليلة لمشاهدة تغيير نوبة الحراس، والواقع أنه منظر رائع جدير بالمشاهدة. وهذه المدينة رائعة حقاً.

ثم رحلنا بعدئذ إلى «ميتز» التي يوجد على يسار داخلها مقعد شاهق الارتفاع من الكلس والحجر هو الذي يتم عليه انتخاب الإمبراطور[١٤٢] الذي يتحتم حضوره إلى ها هنا وبقاؤه مدة ثلاثين يوما ليرى عما إذا كان ثم أحد ينازعه وينكر عليه انتخابه، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يظهر له منافس يجلس على هذا المقعد ويحل محله، وهذا رسم مفروض على كل المتنافسين حتى يتحقق الجميع أن الاختيار تم علناً.

• • •

ثم جئنا بعد ذلك إلى «ميتز» وهي مدينة كبيرة جداً آهلة بالسكان حسنة التموين والثراء، كما أنها واحدة من كبرى أسقفيات ألمانيا، وتمتاز بكنائسها وأديرتها البالغة الجمال وسكانها الظرفاء، وقد استغرقت إقامتنا بها مدة يومين سافرنا بعدهما إلى «كولونيا»، ومن الحق أن تقول إن للرين منظراً شديد البهجة ليس لجماله من ضريب في العالم كله، وتقوم على جانبيه المدن الرائعة والقلاع العدة.

إستمتعت بالجمال العظيم الذي يعجز الإنسان عن وصفه، كما أن المدن

والقلاع مزدحمة بمنازليها وبتاخم بعضها بعضاً ، وتزدان أبراجها بالصلبان العالية ودوارات الهواء المذهبة . ووصلنا عن طريق هذا النهر إلى مدينة رائعة تدعى « كوبلنز » ، وفى مواجهتها على الشاطىء من النهر أبراج وحصون لورد « هانزبيرك »[١٤٣] الفارس الذى خرج ذات مرة حاجاً إلى مزار «سنتياجو» حيث وقع فى الأسر وحمل إلى « بيرجوس » ، ولم يستطع فكاك أسره إلا بعد أن سمح لجماعة من تجار « بيرجوس » — الذين كانوا أسرى فى ألمانيا — بالعودة إلى قشتالة ، فلما تم ذلك ردت على اللورد الفارس حريته ، لكن بينما كان فى طريق عودته إلى دياره إذا به يقع فى أيدى «فردنند كونت فيلاندراندو» الذى استبقاه فى أسره طلباً للفدية ، ومن ثم كانت رحلة حجه رحلة منكودة سيئة الطالع .

ولقد أسدى البعض لى النصيحة بأن أسرع فى مجاوزة هذه المنطقة تجنباً لأى ضرر يلحقنى من هذا اللورد ، فامتثلتُ لإشارة هذا البعض ، وكان فى صحبتى — طوال ذلك الوقت — تلك السيدة التى ذكرت مقابلتى إياها فى الحمامات ، وحينذاك رحلت وأمضيت الليل فى مدينة « كولونيا » العظيمة الرائعة وهى مقام تلك السيدة ، فدعتنى إلى دارها وأسبغَتْ على كثيراً من التشريف خلال إقامتى لديها ، تلك الإقامة التى طالت حتى بلغت ثمانية أيام .

وفى اليوم التالى بعث إلى لورد « هانزبيرك » بأحد أولاده مع جماعة من السادة يسألنى الذهاب إلى مزارعه حيث أجد المتعة والراحة وحتى لا أصدق ما تَقَوَّلَ به الناس بشأن نواياه ، رغبة منه فى أن يتأكد السلم بينه وبين القشتاليين الذين لم يفعلوا أكثر من القيام بواجبهم ، وذكر لى رسله

أنه لا يحب أبداً أن يكابد القادمون ضراً يأتى من جانبه ، وقالوا أيضاً إن الإمبراطور بعث إلى اللورد فى قصره رسالة يأمره فيها باستقبال أى فارس يأتى إلى تلك الناحية ، فشكرته شكراً جزيلا على نيته الطيبة ، وذكرت له أن لا بد لى من المبادرة بالعودة إلى دوق برجنديا ثم أكر راجعاً إلى المجلس الكنسى ، وأرجأت زيارتى إياه إلى مرة قادمة ، ثم استأذنت فى السفر .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

كولونيا . الحانات . أسقف ديتريش . الكاندرائية .
معجزة بالكنيسة . السوق . الرحلة فى الراين .
دوق كليفس . نيميجين . بوالى ديك .
بروكسل . فيليب الطيب .

. . .

بقيت فى مدينة كولونيا هنا فى هناء عظيم وبدلت دوابى نظراً لما كان قد حل من إنهاك بما كنت قد جلبته منها معى ، وكولونيا أغنى مدن ألمانيا وأجلها على الإطلاق ، إذ يقع الرين على أحدجانبيها، وتمتد على الجانب الآخر الحقول والمراعى الفسيحة التى تشبه مثيلاتها التى تكثر فى العادة بألمانيا ، وهى جيدة التسوير لها خندق عميق جيد وشوارعها لطيفة ، وتحفل بعدد من الصناع الذين يمارسون شتى الحرف ؛ وتمتاز البيوت القائمة داخل المدينة بجمالها وإن فاقتها دور ضواحيها التى تشأوها روعة وعدداً ، أما الفنادق ففائقة وجديرة بأن تستضيف أى ملك إن دعت الحاجة إلى مثل هـذه الاستضافة ، وقد جرت العادة أن يتفق عدد من الأثرياء فيما بينهم على تأسيس نزل فيساهم كل واحد منهم بدفع قدر معين من المال لقاء تسلمه جزءاً من الأرباح يتناسب والمبلغ الذى دفعه ، ثم يختار هؤلاء السادة من بينهم رجلا شريف الأصل ليكون المضيف ، وحجتهم فى ذلك أن المضيف الطيب يلائم النزلاء الطيبين ، وقد يحدث فى كثير من الأحيان أن يرغب أحد الأفاضل فى أن يعتكف عن الدنيا

حين تطعن به السن ، وإذ ذاك يأتى إلى القيّم على الفندق ويساومه على مبلغ يتقاضاه منه بقية حياته ، فيشغل حجرة وفراشاً ، ويتناول وجبتين رئيسيتين وأخريين صغيرتين ويدفع قدراً معيّناً من المال للقداس ، فإذا وفى بذلك كله عاش رضيّ البال ما تبقى له من العمر .

وتوجد هناك أمور أخرى هامة فيما يتعلق بفنادقها مما ... ق سردها زمناً طويلا ، فقد فهمت أن بها حركة كبيرة وإدارة حكيمة والتسلية بها رائعة .

وبهذه المدينة سيد كبير هو كبير الأساقفة[144] أهّلته لهذه السيادة مكانته ومولده ، إذ أنه ابن أحد الأدواق ، ولكنه فى اعتقادى أجدر بالأمور الدنيوية منه بالمسائل الدينية ، وقد كان أكرمَ الناس وأحفاهم بى ، وأحسست معه بألفة لا يحسها إلا من كان قد نشأ معه ، فطاف بى أرجاء المدينة راكباً ، وأرانى كنائسها وأديرتها وقصور السادة والسيدات اللائى — بدى لى — أنه لا يتأفف منهن .

والكنيسة الكبرى بالغة الروعة ، وهى من أفخم المبانى ولا زال العمل فيها مستمراً حتى الآن ، وفى وسط أكبر الكنائس الصغرى مذبح صغير محاط بحظائر حديدية حيث يرقد الملوك الثلاثة ، ويقولون إنه حدثت منذ أيام قلائل سالفة معجزة بالغة على الصورة التالية :

ذلك أن الكنيسة الصغيرة الخاصة كانت قد كملت إلا من حجر كبير يعلو سطحها ، وبينما كان القوم يرفعونه لوضعه حيث يجب إذا به يقع من الحبال المشدود بها فوق البقعة التى سجيت بها أجساد الملوك الثلاثة ، وإذ ذاك

تحرك الضريح من تلقاء نفسه مسيرة خطوة ، فسقط الحجر واستقر إلى جانبه ، وهذه الأجساد الثلاثة محفوظة كي يراها الناس من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، وهي سليمة لم تمس ، ولا شك أنها آثار بالغة القداسة ، ومن ثم يرعاها الناس ويوقرونها توقيراً عظيما .

وبهذه المدينة دير للراهبات يثوى فيه جثمان العذراء القديسة « آرسولا » وجثث إحدى عشرة ألف عذراء أخرى يتن معها ، وقد تلقت « آرسولا » هنا الشهادة ، وهذا الدير كبير وهو مكان شهير للحج

وفي أثناء إقامتي بالمدينة انعقد سوقها وعرض فيه كثير من أنواع المتاجر لا سيما عدد من الخيول الإنجليزية وجياد السباق وحُصُن الجر مما أعجبني جداً ، والألمان شعب مثابر جداً ، وهم كما قلت بارعون على وجه الخصوص في الصناعات اليدوية .

* * *

تركت كولونيا وسرت منحدراً مع النهر حتى جئت إلى بلدة تابعة لدوق « كليفيس » (١٤٥) والد أميرة « نفارة » ، وهو متزوج من إحدى أخوات دوق برجنديا ، كما أنه إقطاعي كبير ذو أرض واسعة ودخل كبير وإن قيل إن أحسن ما بيده من الأراضي قد سلبه من جيرانه بعدوانه الشخصي ، وقد تلقاني الدوق لقاء كريماً جداً وأحسن استقبالي وأمر بإطلاعي على شعاره الخاص وعرفني بالشروط الخاصة به ولكنها بدت لي أشد ما تكون خشونة ، ولما كان البابا قد أحلني من اليمين المتعلق بهذا الشعار الذي حملته فإنني لم أستطع الموافقة على ارتدائه .

* * *

رحلت من هذا المورد وانحدرت مع الراين على اليمين فجئت إلى بلدة تسمى « نيميجن » أى « مايو الجديد » التى أسسها يوليوس قيصر ، وبها لوحة قد نقشت عليها القصة كاملة وهذه البلدة تابعة لدوق «جيلدرز[١٤٦]» وهو من كبار الحكام بل لعله أغنى من ذلك الحاكم الذى تركته حالا ، كما أنه متزوج من إحدى بنات دوق برجنديا .

وهذه البلدة أجمل بلدة اكتحلت بها عيناى من كل الوجوه ، فهى شديدة المناعة إذ بنيت على الصخور القائمة وراء سور قوى وخندق منيع ، فأقمت بها ثلاثة أيام ، ولقيت دوقها الذى كان مقيما إذ ذاك على مسافة مرحلة خارجها فى قصر له فى الريف للركوب والصيد ، فتلقانى لقاء ليس أكرم منه ، ورأيت معه الدوقة وأبناءهما وبناتهما ، فرغبوا إلىّ أن أتناول الغداء معهم ، فلما حل المساء استأذنت منهم وعدت أدراجى إلى المدينة ، حتى إذا كان اليوم التالى سافرت وبلغت بلدة كبيرة اسمها « بوا ـ لى ـ ديك » واقعة فى منطقة « برابانت » وتابعة لدوق برجنديا ، وهى مكان شهير جداً رغم أنها غير مزدحمة بالسكان ، ويخترقها النهر فى كثير من الأماكن . ويربى الناس من البجع ما يضاهى فى كثرته أوز قشتالة ، ويقال إن الدوق يأمر بتوزيعها بين الناس الذين يربون الطيور ويقدمون إليه تقريرا عنها ، فإذا كانت أيام الأعياد أكلت واعتبرت من المبالغات فى الترف ، وقد اشتريت هنا حصاناً بستة عشر دوكات وإن كان يساوى بلا شك مائة دوكات فى بلدى .

* * *

رحلت بعدئذ إلى « ليلا »[١٤٧] الواقعة هى الأخرى فى برابانت

وتابعة أيضاً لدوق برجنديا ، وهي بلدة لطيفة جدا ، وقد جرت عادة أهلها على السفر في عربات ، لكنني لم أستطع تحمل السفر بها لأنني أوثر البحر عليها ، ومن ثم دأبت على الركوب على حين تمضي رجالي في هذه العربات .

وتتناثر الطواحين الهوائية بين مرحلة وأخرى في القسم الأكبر من هذا الإقليم ، ويحرق أهله أحجار الكلس وقوالب الطوب بدلا من الخشب ، ولذلك يعمد صاحب كل أرض إلى إعدادها في الصيف وتجفيفها في في الشمس ويحتفظ بها إلى دخول الشتاء ، ونار هذه القوالب لطيفة ويقال أنها نافعة جدا للصحة ، والخمر هنا شديدة الندورة ، ويشرب الناس الجعة لرداءة الماء .

تركت « ليلا » إلى « مالينز » التي يسميها القشتاليون « ميليناس » ، وعلى الرغم من صغرها إلا أنني لم أر من قبل أو منذ ذلك الحين مكاناً يدانيها فتنة ، ويجد الدوق مسرة كبرى في المجيء إليها للاستجمام بها استجمام الشخص في المدينة ، وليس له قصر في البلدة ولكنه ينام في فندق بلغ الغاية في الروعة حتى إنه لا يصلح لهذا الأمير وحده بل لأعظم أمير على وجه البسيطة .

بقيت يومين بهذه البلدة التي أعجبتني غاية العجب بفتنتها وجمالها ، ثم غادرتها إلى « بروكسل » الواقعة أيضاً في برابانت ، فوجدت بها دوق برجنديا وزوجته[١٤٨] الدوقة فقدمت لها احترامي ، فتلقياني أحسن لقاء ، وقد حمل الدوق على ذلك أصله الفرنسي والحب الذي يكنه للقشتاليين ، أما الدوقة فلأصلها الإسباني وقرابتها لمولانا الملك جوان إذ أنها ابنة

عمته ، وقد أمر الملك بإسكانى وتوفير المسكن لى وتهيئة كل ما يلزمنى أنا ومن معى ، فاسترحت كل الراحة .

فلما كان اليوم التالى انكفأت إلى قصر الدوق الذى وجدته فى القداس ، ثم رحت أستفسر عن ابن سنت بول[١٤٩] حتى لقيته وقابلته وأبلغته تحية « جوتيير كويكسادا » الذى كان مرتبطاً بمبارزته وكنت قد رأيته وهو يركب البحر إلى بيت المقدس ، وقد بعث إليه كلمة يقول له فيها إنه سوف يعود على جناح السرعة للوفاء بالتزامه وزكى نفسه للنغل ؛ فدنى منا الدوق وإذ سمع فحوى الرسالة قال مازحاً : « نعم ما فعل موزين جوتيير من ذهابه إلى القدس ثم اعتزامه العودة لقتل رفيقه أو التغلب عليه ، وقد كان من الخير له أن يقوم بهذه الرحلة بعد المبارزة » ، ولقد قال الدوق كل هذا مازحاً ، وأخذ النغل منذ ذلك اليوم يولينى أعظم اهتمام حتى لكأننى واحد من أقرب الناس إليه .

والنغل فارس رشيق ورجل شريف استطاع بفضل شجاعته الشخصية أن يتقدم على الكثيرين غيره ممن يشأونه فى الأملاك ولكنهم دونه احتراماً وتقديرا عند الدوق والدوقة وبقية السيدات ، وقد جمع بين الروعة والشجاعة ، وأنعم عليه الدوق بوسام الأسطول الذهبى تقديرا منه لفضله واستقامته ، ولم يكن أحد ما حتى ذلك الحين — قاصرا كان أم غيره — قد نال هذا الوسام ، ولكن حين رأى الدوق والمجلس ما عليه هــذا الفارس من البسالة والرقة أجمعوا أمرهم على أن ينعموا به عليه ، ويقال إن الفوط الذى يلبسه الآن هو الذى كان لورد « تريمويل » قد خسره بفراره فى أثناء القتال .

والعلج رائع فى شخصه وتركيبه ، رشيق القوام ، وهو رجل حصيف لبق ، يبلغ من العمر الخامسة والخمسين ، وإن كان نحيفاً أميل إلى الاصفرار ، وفى وجهه ندبة من جرح أصابه فى القتال حين وقع فى الأسر ، ثم أطلق سراحه بعد دفع دية كبيرة دفعتها الوصية أم دوق برجنديا التى يقال إنها تحبه حبا عظيما .

وقد أرانى هذا الفارس قصر الدوق والمدينة وكل شىء بها ، بيد أنه لا يوجد ثم شىء يفوق فى جلاله رجال الدوق والدوقة وأسلوب الحياة التى يتقلبون فى مطارفها ، وهى أنعم حياة تسنّى لى رؤيتها ، وفى ذلك الحين كان الناس الآتية أسماؤهم يعيشون فى القصر لمنادمة دوق سانت بول النوى وزوجته وأتباعه ، وكونت « استامب » وهو يماثل الدوق فى قوته مع أتباعه ، وأميرة « نفارة » ابنة أخى الدوق التى تقيم فى مسكن خاص بها ، وكذلك أخوها « جون كليفيز» وسيدان آخران اسمهما «شارنى» و « كريكى » مع زوجتيهما وكثير من فرسان أهل بيت الدوق . ويقال إن هناك مائتى آنسة من أوانس الشرف يقمن دائماً بخدمة الدوقة ، وينام جميعهن ويأكلن فى القصر كما يفعل الفرسان الذين ليست لهم أماكن إقامة مستقلة ، ويدفع الدوق من جيبه الخاص جميع النفقات كما لو كان يدفع نفقته الخاصة ، وهو يبدو لى من هذه الناحية عكس دوق ميلانو الذى ينزل جميع الرجال فى الحقل ولا يسمح لأحد بالمعيشة معه ، على حين أن الدوق يُسكن الجميع معه ولا يسمح لأحد بالمعيشة خارج قصره ، غير أن دوق برجنديا يستطيع استبقاء فرسانه فى القصر لأنه يتمتع بالسلام والهدوء ، وقل أن يتمكن المرء من وصف جموع الناس

وتهذيبهم وزينتهم ، فهناك سلسلة دائمة من المبارزات وكل ما يدخل البهجة على القلوب .

أما الدوق فرجل عظامى ذو عرق ضارب فى الفضيلة ، رائع الطلعة لبق ، وهو طويل القامة وإن يكن نحيفاً بعض الشيء ، خفيف الحركة ، ذو نجدة ومروءة ، كما أن الدوقة بالغة الثراء جداً ، محبوبة كل الحب من رعاياها ولا يشأوها فى حبهم إياها سوى زوجها ، ولم يرزقا من الذرية غير ولد واحد(١٥٠) .

• • •

ولقد أبصرت فى البلاط رجلين كفيفين من قشتالة يضربان على القيثار ، ثم صادفتهما فيما بعد فى قشتالة ، وحدث فى أثناء إقامتى هناك أن بعث الدوق إلىّ عدة مرات مستفسراً منى عن الأماكن التى تهيأت لى زيارتها ، وكرر من الأسئلة ما أفصح عن رغبته فى أن يكون إلمامه تاماً بكل ما رأيت وفعلت ،وأظهر سروراً كبيراً بما أفضيت به إليه ، مفهما إياى شوقه الملحّ إلى غزو بيت المقدس ، وهذا على الأقل هو ما بدا لى من استفساراته ، وسألنى عما إذا كنت راغباً فى متابعة رحلتى أم أننى يرضينى البقاء فى بلاطه ، فأجبته أنه لا بدلي — وقد زرت بلده وباريس — من العودة سريعاً إلى قشتالة ، إذ بلغ مسمعى أن مولاى الملك أراد أن يحارب المسلمين بنفسه . ومن ثم اهتم الدوق بالأمر اهتماماً جدياً ، وأصدر أمره إلى النبيل سنت بول بمرافقتى فى تجوالى، فإذا رغبت فى الرحيل كان عليه مصاحبتى فى ربوع أملاكه لحراستى ، وزاد على ذلك بأنه مستعد لتزويدى بكتب توصية منه إذا كانت ثمة ضرورة لذلك،

فسرني هذا منه كل السرور ؛ ثم توجهنا بعدئذ لمشاهدة المدينة وما هي عليه من الضخامة والثراء والقصور الجميلة التي يقوم في وسطها قصر البلدية حيث ينعقد المجلس ، وليس لهذا القصر ضريب أبداً ؛ كذلك مضينا إلى خارج المدينة لرؤية بعض الإقطاعات التي يملكها الدوق والتي يمضي إليها التماساً للهو ، وكان من بينها ضيعة بها منزل رائع جداً تحوطه حديقة كبيرة يبلغ محيط دائرتها قرابة فرسخ ، تمرح فيها الغزلان والحيوانات البرية .

* * *

غادرت بروكسل في رفقة أحد الفرسان واسمه كابتن « سلويس » الذي أوصاه بي النغل ، وبلغنا عشية هذا اليوم مدينة لم تكن بها قطرة واحدة من النبيذ ، فاقترحت أن نتابع سفرنا إلى « بروجس » إذ لابد أننا واجدون بها بعض ما نريد ، بيد أن الفارس أخبرني أن سيدة من ذوي قرباه هي رئيسة أحد الأديرة المجاورة ، وأنه مرسل إليها سائلا إياها عما إذا كان لديها شيء من الخمر ، وفعلا أنفذ رسولا إليها ، فأجابت الديرانية بأن لديها من النبيذ وفرة بالغة ، ولكنها لن تمده به إلا إذا وفد عليها لتناول العشاء وهو ورفيقه الفارس الإسباني ، ومن ثم ذهبنا إليها فأكرمت وفادتنا غاية الإكرام ورحبت بنا أعظم الترحيب ، فلما فرغنا من العشاء أخبرتنى أنها كانت قد حجت إلى « سنتياجو » ، ولقيت حفاوة كريمة جداً من القشتاليين ولا تدري كيف تجازيهم عنها ، وإذ ذاك التمست مني البقاء بضعة أيام عندها للاستجمام بعد ما كابدته من عناء الرحلة ومشقة السفر ، وأنبأتني أنها سوف تعاملني كما

كما لو كنت ابنها ، فشكرت لها كريم منتها واستأذنتها في الرحيل ، ثم خرجنا بعدئذ قاصدين « بروجس » التي دخلناها مع الغسق ونزلنا في فندق الملاك ، وحينذاك فارقني كابتن « سلويس » ورحل إلى طيته بعد أن دعاني لزيارته في بلده ومشاركته سروره ، فوعدته الوفاء بما سأل .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

بروجس . أراس . غنت .

انتورب .

. . .

بروجس [١٥١] مدينـة كبيرة بالغة الثراء ، وهى إحـدى أسواق العالم «الـكبرى» ، ويقال إن المدينتين اللتين تتنازعان السيادة فيما بينهما هما «بروجس» فى فلاندرز بالغرب و «البندقية» فى الشرق ، ومع ذلك فيبدو لى ـ ويتفق معى الـكثيرون فى ذلك — أن النشاط التجارى فى بروجس أعظم مما هو عليه فى البندقية ، ومرجع هذا الأمر أنه لا يوجد فى الغرب بأجمعه مركز تجارى نشيط سوى ما فى بروجس رغم ممارسة انجلترا نفس التجارة ، ويقول الناس إنه يحدث فى بعض الأحيان أن يجاوز عدد السفن المقلعة من ميناء بروجس سبعمائة سفينة فى اليوم الواحد ، أما الحال فى البندقية فعلى العـكس من ذلك إذ لا يصل العدد إلى مثل هذه الضخامة ، لأن العمل فى التجارة بالميناء قاصر على أهلها .

وتقع بروجس فى إقليم كونتية فلاندرز وهى أهم مدنها ، هذا إلى ازدحامها بالسكان ، وهى ذات شوارع رائعة وبيوت جميلة ، كما تحفل بالـكنائس والأديرة والخانات الفخمة ، وتتمتع بنظام حكومى دقيق متقن سواء فى الناحية القضائية أو سواها ، وترد إليها البضائع من انجلترا وألمانيا وبرابانت وهولندة وزيلند وبرجنديا وبيكاردى والجزء الأكبر من فرنسا ، وكأنها ميناء هذه

الأقطار جميعها ، والسوق الذى ترسل إليه كل منها بضائعها لبيعها للآخرين نظراً لوفرتهم فى بلادهم .

وسكان « بروجس » أهل جد وعمل ، ولعل مرجع ذلك جدب أرضهم لقلة إنتاجها من الحبوب ، ولا يوجد بها النبيذ ولا الماء الصالح للشرب ولا الفاكهة ، ومن ثم فإن منتجات العالم بأجمعه ترد إليها بوفرة كبيرة ، كما تصدر منها تجارات الدنيا من الأقمشة الصوفية وملابس « أراس » وشتى أنواع السجاد والبسط وسواها من ضرورات الحياة التى يتوفر منها بها الشىء الكثير ، كما يقوم هناك بناء ضخم فوق مجرى كبير من المياه يتدفق من البحر عند « سلويز »[152] ، يسمونه « لاهاله »[153] التى تفرغ بها جميع البضائع على الصورة التالية :

ذلك أن البحر فى هذه النواحى من الغرب ينحدر بشدة ، وبين بروجس وسلويز (والمسافة بينها فرسخان ونصف فرسخ) قناة كبيرة تشبه النهر فى عمقها ، كما توجد فى أمكنة متفرقة بوابات مثل الطواحين الهوائية ، فإذا فتحت اندفع خلالها الماء ، وإن أغلقت حيل بينه وبين التدفق ، فإذا كان وقت المدّ شحنت السفن وأبحرت بما عليها من « سلويز » ، فإن بلغ الماء ذروة ارتفاعه سدّوا العيون ، وحينذاك تعود المراكب التى أفرغت ما عليها محملات جديداً ، وقد استغل الأهالى المياه لحمل كميات ضخمة من البضائع ما بين صادرة وواردة ، ولو كانوا يستعملون الدواب لنقلها لكلفهم ذلك أعباء جمة وكبدهم مشقة عظمى .

وتتمتع مدينة بروجس هذه بدخل كبير جدا ، وأهلها على جانب كبير من الثراء ، وقد ثاروا أخيرا ضد الدوق[154] وقت وجوده بالمدينة مما اضطره

إلى الهرب مع زوجته وحشمه ، ثم أخذ يستعد للقتال ويهيء نفسه له ، وشن حرباً على المدينة واحتلها بالقوة ، وانتقم منها أفظع انتقام فى الأرواح والأملاك ، ولقد رأيت بعينى رأس كثيرا من المشانق العالية حول « بروجس » حتى « سلويز » وعليها رءوس الهلكى .

وأهالى هذه الناحية شديدو التأنق فى مظهرهم ، مسرفون فى طعامهم ومآكلهم ، مبالغون فى الأخذ بالكماليات ، ويقال إن نساء هاله الساقطات يحصلن على إذن يسمح لأى فرد بالذهاب إليهن وقضاء الليل معهن ، ويمكن لمن يرتاد هذه الناحية أن يُحضر أى امرأة يختارها ويضاجعها على ألاّ يحاول رؤيتها أو التعرف على هويتها وإلاّ كان الموت نصيبه ، ولا يبالى القوم باستحمام النساء والرجال معا ، وينظرون إلى ذلك نظرة شريفة أشبه ما تكون بنظرتنا إلى ذهابهم معا إلى الكنيسة ، وليس من شك فى أن للثروة اعتبارها وللكماليات سيادتها ، ومن ثم فليس فيها مكان للفقير الذى لا يستطيع الإقامة بها ، أما من توفر لديه المال وشاء صرفه فسيجد فى هذه المدينة وحدها كل ما أنتجه العالم ، فلقد رأيت بها فاكهة البرتقال والليمون الواردين من قشتالة حتى لتحسبهما كأنما قد قطفتا للحظتها من على الأغصان ، وشاهدت بها الفواكه والنبيذ الواردين من اليونان بالكثرة التى تتوافران بها فى ذلك القطر ، كما شاهدت الحلوى والتوابل من الإسكندرية وجميع بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى ليخيل للمرء أنه بتلك البلاد ، ورأيت الفراء الوارد من البحر الأسود ، كذلك كانت هنا إيطاليا بكل ما لديها من المنسوجات والحرير والأسلحة وشتى أنواع الصناعة القائمة بها ، والواقع أنه ليس ثم بلد فى العالم

لا توجد منتجاته فى بروجس ، ومع ذلك كله فقد كانت مجاعة كبرى فى السنة التى زرتها خلالها .

* * *

رحلت بعدئذ لمشاهدة « سلويز »(١٥٥) — ميناء بروجس البحرى — وأقمت مع ربان الباخرة ، وحدث أن كنت ذات يوم فى الكنيسة أسمع القداس حين اقتربت منى امرأة وقالت إن لديها أمراً يهمنى وتريد الإفضاء به إلىّ على انفراد ، ثم سارت بى إلى دارها المجاورة للكنيسة ، وقدمت لى فتاتين صغيرتين وسألتنى أيهما ترضينى ، فاستبدّت بى الدهشة من ذلك وسألتها كيف سوّلت لها نفسها أن تسلك هذا المسلك معى ، فأنبأتنى أنها تكاد تموت جوعاً وقد مضت عليها عدة أيام لم تجد ما تقتات به سوى قليل من السمك الصغير ، كما أن الفتاتين أوشكتا على الموت جوعاً وأنّهما عذراوتان ، فأخذت من ثلاثتهن عهداً ألاّ يحاولن ثانية هذه المحاولة مع أحد ما ، وذكرت لهن أن السنة الجديدة ستكون أحسن طالعاً وتجلب معها الخير ، وأن ما سأعطيه لهن سوف يكفى لإعالتهن ، ثم ناولت المرأة ستة دوكات بندقية وغادرتهن .

ولقد كانت المجاعة أسوأ مجاعة عُرفت حتى ذلك الوقت ، ثم جاء فى أعقابها طاعون جامح خرّب كثيرا من النواحى .

* * *

بقيت مع الربان هناك مدة يومين شاهدت خلالها المكان الذى تبلغ بيوته أكثر من خمسة عشر ألفاً ، وهو مكان شديد المناعة بفضل السور القوى المحيط به والخندق المملوء بالمياه ، كما يزدحم بالأجانب

وبضائعهم حتى لتضيق البيوت على كثرتها عن إيوائهم جميعاً . ولقد قابلت هنا كثيرا من القشتاليين وغيرهم من الجنسيات الأخرى التى أعرفها .

ويقال إنه من العسير جدا دخول ميناء هذه المدينة من جراء الشواطىء الرملية ، لكن لا تكاد تنجح السفينة فى اجتيازها حتى تصبح فى غاية الأمان ، أما حين ينحسر الماء فتبقى راسية على الرمال الناعمة العميقة كأنما هى فى بحر من الماء .

ويبدو المرفأ لناظره كما لو أن نصف العالم قد حمل سلاحه لمهاجمة المدينة حيث يوجد بها أسطول ضخم من السفن من شتى الأنواع قد ألقت مراسيها فى هذه الناحية ، فمنها النازحات والفرقاطات من ألمانيا ، والشوانى من إيطاليا ، والطرادات والسفن ذات الأبراج وسواها من ضروب المراكب الأخرى من مختلف الأقطار ، وإذا كان بين بعض أصحابها والبعض الآخر عداوات فلا مجال لإظهارها هنا براً أو بحرا ، إذ يسير كل فرد فى سبيله ولا يعبأ بغير عمله ، أما إذا نهج أحدهم نهجاً يخالف هذه القاعدة أنزلوا به أشد أنواع العقاب ، ويمكن للمرء أن يرى فى هذا المكان رجالا من جميع الشعوب وقد جلسوا إلى مائدة واحدة يتناولون طعامهم دون خصام أو عداوة . ولقد بقيت فى « سلويز » مدة يومين فى صحبة الربان عدت بعدهما إلى بروجس .

أخذت طريقى بعدئذ عبر « بيكاردى » إلى مدينة اسمها «أراس» ، وهى تابعة لدوق برجنديا ، وتمتاز بروعة مظهرها ، كما أنها مفرطة الثراء لا سيما بفضل منسوجاتها وسجادها المختلف الأنواع ؛ ورغم صنع هذه فى أماكن أخرى غيرها إلا أنه لاجدال فى أن ما يُصنع منها فى « أراس » يفضلها جميعا .

* * *

ولقد جرت هنا مفاوضات الصلح بين ملك فرنسا ودوق برجنديا ، وبقيت بها ثلاثة أيام واعتزمت المضيّ منها إلى إقليم « نرمنديا » لمشاهدة « روان » ثم إلى باريس ، بيْدَ أن وطأة الطاعون بلغت من الشدة حدا أرغمتنى على طريق والعودة إلى « بروجس » فى فلاندرز ، وكان لى مبلغ من المال بعض صيارفتها فمضيت إليهم للمطالبة به ، لكننى وجدت جميع التجار غادروها إلى « أنتورب » حيث كان السوق منعقداً ، فبقيت فى « بروجس » يوماً واحدا رحلت بعده ، ثم قدّر لى بعد يومين أن أبلغ « غنت » الواقعة هى الأخرى فى كونتية فلاندرز .

. . .

و « غنت » واحدة من أكبر مدن العالم المسيحى ، وهى محصنة أعظم التحصين من كل ناحية رغم وقوعها فى منطقة سهلية ، وذلك لإحاطتها بسور قوىّ وفرة الخنادق التى يستحيل معها مهاجمتها إلا من مسافة قاصية ، هذا بالإضافة إلى كثرة الأسلحة والمدافع بها ، ويقولون إن القانون يحتِّم على كل فرد من سكانها حمل سلاحه ورمحه ، وأنه يمكن تعبئة ستين ألفاً من المشاة للقتال ، وسواء أكان هذا الخبر صادقاً أم موضوعاً فالثابت أن بها من المئونة ما يكفيها ست سنوات ، وهى تتجدد كل عام ؛ وحين كنت بها كان أهلها فى قتال ضد حاكمهم الدوق[١٥٦] الذى زحف عليهم وحاصر المدينة التى ظلت تقاومه فترة غير قصيرة من الوقت ، لكنه نجح فى الاستيلاء عليها أخيرا ، وانتقم منها أشدّ انتقام ، حتى إن الأهالى راحوا يفدون إليه — كما قيل — عرايا إلاّ من فضلة قميص يسألونه العفو عنهم ، كما أذعنوا لأمور كثيرة إظهاراً منهم لخضوعهم له ، وحينذاك فحسب رحل عنها ، غير أن هذا الاستيلاء كلّف الدوق جهداً طائلا ، فقد فقد بضاعته وهلك فيه أحد أبنائه ، كذلك هلك هنا أيضا

الأخ « جاك دى لابن » الذى حارب من قبل فى قشتالة ، وكان مصرعه من جرح أصابه من شظية مدفع .

ومدينة «غنت» كبيرة جداً آهلة بالسكان عظيمة الثروة بفضل تجارتها ، وذلك لوصول مياه البحر إلى أسوارها مما يساعد كثيراً من السفن على دخولها ، ويمكن القول أكثر من هذا فما يتعلق بها لكننى لا أميل للإفاضة كثيرا عنها وتكلف المشقة بالكتابة الطويلة .

سافرت من غنت وقدمت إلى «أنتوب» الواقعة فى « برابانت» والتابعة لدوق برجنديا ، وهى مدينة كبيرة بها ما يقرب من ستة آلاف مسكن ، ولها سور رائع وحصن وخندق ، وشوارعها ودورها جميلة جدا ، وبها ميناء رائع ، كما تدخل السفن المدينة عبر أحد الجداول ، مما يستطاع معه ربط الزوارق إلى أسوار المدينة ، كما أن السوق[١٥٧] الذى يعقد هنا هو أعظم أسواق العالم طرا ، وعلى من شاء أن يرى المسيحية كلها أو الجانب الأكبر منها مجتمعاً فى مكان واحد فهو مستطيع ذلك هنا .

ويحضر دوق برجنديا على الدوام إلى السوق الذى يرجع إليه الفضل فيما يتحلى به بلاطه من بهاء وروعة ، إذ يفد عليه أقوام من شعوب جمة متباينة كالألمان المجاورين له والإنجليز ، كما يغشاه الفرنسيون فى جموع كثيفة يشترون منه ويبيعون فيه السلع الكثيرة ، أما الجربون والبروسيون فيملؤون السوق بخيولهم ، كذلك يطالع المرء هنا وفود الإيطاليين ، ولقد رأيت بنفسى سفن وشوانى البندقية وفلورنسا وجنوه ، أما الإسبان فهم كثر ، بل لعلهم أكثر فى « أنتورب » منهم فى أى مكان آخر ، ولقد قابلت تجاراً من « بيرجوس »

من المستقرين فى « بروجس » كما صادفت فى المدينة أيضاً «جوان دى موريللو» أحد خدم مليكنا .

وليس لأنتورب — كسوق تجارى — ندّ ولا ضريب ، حيث يتجمع بها كل الثروات ووسائل التسلية ، ويتسم نظام المرور فيها بالروعة ، وتباع الصور من شتى الأصناف فى دير القديس فرنسيس ، وأقمشة «أراس» فى كنيسة القديس يوحنا ، ويقوم أحد أديرة الدومنيكان بالتعامل فى جميع أنواع المصنوعات الذهبية ، ومن ثم فإن السلع المختلفة موزّعة بين الأديرة والكنائس ، ويباع البعض منها فى الشوارع ؛ ويوجد خارج المدينة عند إحدى بواباتها شارع كبير يبيع القوم فيها خيول الجرّ وجياد السباق وغيرها من أنواع الأحصنة ، وهذا منظر فاتن ؛ والواقع أنه ليس ثم شىء يشتاقه الإنسان دون أن يراه هنا بوفرة عظيمة ، ولست أعرف كيف أصف سوقاً هائلا مثل هذا السوق ، فلقد رأيت الكثير غيره فى «جنيف» بسافوى ، وفى فرانكفورت بألمانيا ، وفى «مديفا» بقشتالة ، لكنها كلها مجتمعة لا تقاس بسوق أنتورب .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

لوفان . بوالى ديك . فرانكفورت . كولونيا . ميتز
أسر الرحالة وإطلاقهم . طيفور يفقد سيفه .
بازيل . مبارزة فى شافهاوزن .
كسبار . نومبورج . براج .
حاكم ميلسين

. . .

سافرت من «أنتورب» وجئت إلى مدينة «لوفان» الواقعة فى «برابانت» وهى مدينة كبيرة جداً لكنها غير آهلة بالسكان بصورة ظاهرة ، وتوجد بها جامعة للدراسة جميع العلوم وإن قالوا إن دراسة اللاهوت تحظى بنصيب أوفر مما تحظى به سواها من الدراسات الأخرى ، ورأيت بها ابنين غير شرعيين من أبناء دوق برجنديا يدرسان فيها الفلسفة ، وقد أصبح أحدهما فيما بعد فارساً حربياً صنديداً ثم لقى مصرعه كما ذكرت آنفاً — فى حصار غنت .

غادرت « لوفان » وجئت إلى « بوا — لى — ديك » التى كنت بها من قبل ، ثم سافرت منها إلى « نيميجين » التابعة — كما قلت من قبل — لدوقية « جيلدرز » ، ثم بارحتها إلى دوقية « كليفس » وبلغت مدينة فرانكفورت وقت انعقاد السوق الكبير وإن لم يقف على قدم المساواة مع سوق أنتورب ، على أن المدينة مكتظة بكل أنواع المئونة ، وبها أربعة آلاف نسمة ، ويرجع الفضل إلى هذا السوق فيما تنعم به المدينة من الثروة ، وهى واقعة فى وسط

ألمانيا ، كما أنها فى نظرى أروع ما تسكون لنا بها من الحيوانات ، وقد مكثت بها ثلاثة أيام انكفأت بعدها عائداً إلى كولونيا فزرت رئيس أساقفتها وفاءاً بوعدى له ، فلقينى أكرم لقاء .

والتقيت فى كولونيا بسفارة كانت عائدة من بازل إلى دوق برجنديا ، كما صادفت ثلة طيبة من الرجال أرسلها « المجلس » إلى الدوق رجاء حمله على مساندة المجمع والوقوف إلى جانبه وصرفه عن ولائه للبابا وتأييده إياه ، وكان فى السفارة ثلاثة من رجال الدين : أحدهم أسقف «فيزو» بالبرتغال ، وثانيهم ألمانى الجنس ، أما ثالثهم فهو « لدفيجو » أعظم أدباء عصره وحامل دواة البابا ، وقد حدث أثناء تعرفى بأسقف « فيزو » الذى قابلته فى جزيرة «خيوس»[١٥٨] باليونان - حيث كان ذاهباً لمقابلة إمبراطور القسطنطينية - أن اضطررت للعودة فى صحبته حتى بازل ، فلما جئنا إلى «مينز » بعث السفراء فى الحال إلى « ستيفن» دوق بافاريا[١٥٩] يطلبون منه عهد أمان فى الطريق ، ذلك لأن الدوق كان معلماً لابن أخيه دوق « لدويج » وكان سيد تلك الجهة كلها ، والسبب فى ذلك أن الدوق كان من مؤيدى البابا « يوجين » ، فبادر بإرسال كتاب الأمان فى الوقت المناسب ، ورحلنا عن مينز ، لكن ما كدنا نبعد عنها بثلاثة فراسخ حتى هاجمنا ماثنا خيال أسروا السفراء وكنت من بين الأسرى ، وحملونا إلى حصن بأحد الجبال اسمه حصن « ليفانتين » الذى عرف فيما بعد باسم « لوبنهايم » ، وكان هذا عملا فاحش السوء ، بالغاً المنتهى فى قلة الذوق وإن لم يمسسنى أحد منهم بضر إذ رأونى فارساً ، ولكنهم بعثوا فى طلب فارس أخذ منى سيفى ومهمازى ثم أبقونا فى ربقة الأسر خمسة عشر يوماً لكن لم يكن هناك خوف من قلة الطعام ، إذ كانوا يحملوننا

بالليل وعند انبلاج النهار وكذلك طول ساعات اليوم على الأكل والشرب مع حرّاسنا جرياً على مألوف عاداتهم مما لم يكن لها مثيل عندنا ، مما أدّى إلى مرضنا واشتداد العلة بنا ، فأرسلت في الحال للدوق « ستيفن » أخبره عن أكون ، وعن طريق مجيء وطلبت إليه إطلاق سراحي ، فاستجاب لي بإرساله أحد أبناء جلدته ليخلصني من الأسر ، فلما رُدّت إليّ حريتي رغبت في رؤية رفاقي ومحادثتهم ، لكن القوم رفضوا طلبي هذا لأنهم كانوا قد أبقوا كلا منا على انفراد عن الآخرين .

لم أكد أخرج من سجن القلعة حتى ركبتُ مع جماعتي وذهبت إلى دوق « ستيفن » الذي كان مقيما في بلدةٍ تبعد عن هناك فرسخاً واحداً ، وحادثته طالباً إليه إطلاق سراح رفقتي ، وأخبرته أنه إذا لم يطلقهم في الحال فإن يقف الأمر عند حدّ ضياع بضائعه بل وأيضاً أملاك ابن أخيه التي كانت في حوزته .

وبينما كنت موجوداً هناك جاءت الأخبار بثورة شعب ابن أخيه ضد الدوق قائلين إن الدوق دنّس شرف ابن أخيه ، وأنه نكث عهد الأمان الذي منحه ، وحينذاك سألني الدوق أن أعود إلى السفراء في محاولةٍ منه للصلح بينه وبينهم ، قائلا إنه شديد الرغبة في إطلاق سراحهم على ألا يرفعوا شكواهم إلى المجلس أو إلى الإمبراطور ، كذلك بعث إلى الرسل الذين وفدوا عليه مفضياً إليهم بإطلاقه قيد السفراء ورعايته إياهم كل المراعاة ، فرحلت حينئذ مع أحد أقاربه وعدت إلى المكان المسجون به السفراء وأفضيت إليهم بجلية الخبر ، فسروا سروراً عظيما بما فعلته ، وسرعان ما استجابوا إلى الشروط التي طلبها الدوق فأطلق سراحهم واستردوا جميع ما أخذ منهم ولم يفقدوا شيئاً ما ، لكن الذي

أذهلني هو أن القوم تفقدوا سيفي الذي كانوا قد سلبوني إياه فلم يقفوا له على أثر ، فقدّموا لي بديلا عنه واحداً من سيوف الدوق ، بيد أني رفضته ازدراءً به ، مقسماً اليمين ألاّ أحمل غير سيفي ، وأن لا بد أن يدفع بلد الدوق الثمن غالياً للإهانة التي لحقتني رغم كتاب عهده بالأمان .

حينذاك رحلنا أنا والسفراء عبر أراضي دوق « لدويج » ، حيث لقينا من الأهالي غاية الاحترام ، وأبوا أن نتحمل دفع ثمن شيء ما ، لكن بينما كنا على وشك مغادرة أملاكه جاءني سيد من رجالات الدوق على صهوة جواده ملتمساً مني أن أنسى غضبي لأن الأمر لم يكن موجهاً ضدّي بل ضد السفراء ، ثم جاءوني بسيفي وأخبروني أن الدوق تكلف في العثور عليه مشقة أعظم من مشقته فيما لو كان يحارب لاحتلال إحدى المدن ، وعلى هذا غادرنا أرض هذين السيدين : العم وابن أخيه ، وعدنا إلى « ستراسبورج » ، وتابعنا سفرتنا آخذين معنا من كل مدينة حرساً مسلحاً لحمايتنا نظراً للأحزاب المتنازعة ، وللخصومات التي بين البابا والمجلس ، وانكفأنا إلى « بازيل » حيث وجدنا للمرة الثانية سفراء من لدن مولانا الملك ، وهم الذين رأيتهم من قبل .

* * *

ولما رحلت من بازل في الوقت المحدّد وصلت إلى مدينة يسمونها « شافهوزن » تقع على الراين الأعلى ، ورغم صغرها إلا أنها جميلة وبالغة النظافة ، وكانت بها إذ ذاك مبارزة عظيمة رتبها الأمراء على الصورة التالية : هي أن يجتمع جماعة معينة من الفرسان ويدونون في قائمة أسماء جميع نبلاء تلك الناحية ، مع تكليف أحد الرسامين بنقش رنك كل واحد منهم وهو يحمل من دار لأخرى ومعه الدرع ، ويعلنون يوماً معيناً من الأيام ينبغي على كل

شريف الحضور فيه بنفسه إلى المكان المتفق عليه وهو فى كامل سلاحه وبخيوله ليساهم فى المبارزة ، كذلك يذيعون هذا الخبر على كل كبار سيدات تلك النواحى ، وبعدئذ يجتمع النبلاء والسيدات ، فإذا تكامل عقدهم جميعاً انتحى كبارهم فى السن ناحية مع بعض المتقدمات فى العمر وراحوا يتشاورون فيما بينهم ، ويستفسرون عما إذا كان أحد النبلاء قد ارتكب خطأ أو سلك مسلكا غير لائق ، وهل هناك ثم واحد منهم قد اغتصب سيدة أو آنسة أو أساء السيرة معها ، أو سلب حقاً لضعيف أو لشخص لا حامى له ، أو حقر نفسه طمعاً فى مال فتزوج امرأة من طبقة أدنى من طبقته ، أو ارتكب عملاً ينزل من مكانته ، وبذلك يستعرضون أخطاء كل واحد ، فإن وجدوا من يدينونه استدعوا إليهم جماعـــة معينة من الفرسان الذين وردت أسماؤهم فى القائمة وكلفوهم بالهجوم على المذنب وضربه بالعصى وسوقه أمامهم، فإذا تم ذلك تقدم الفرسان المسنون والسيدات من المذنب وأخبروه عن علة ضربه ، ثم ساروا به وأذنوا له بعدئذ باتخاذ مكانه مع بقية الأشراف فى الحلقة كما لو كان قد تطهر من ذنبه وكفر عن جرمه ، أما إذا رفض المذنب الحضور حكموا عليه حكماً ضاعفوا له به العقاب ، فإن أصر على عناده فى المرة الثالثة أخرجوه من طبقة الأشراف .

* * *

وفى كل هـذه النواحى يستطيع الجميع المبارزة والاشتراك فى رياضات الفرسان ، أما النبلاء ذوو الأحساب العريقة المعروفة فهم وحدهم الذين يساهمون فى هـذه المبارزة ، وتلك عادة طيبة جديرة بالتقدير لأنها تجعل الناس يعرفون من يحق له أن يكون فارساً ذا أصل عريق ، ومن أذنبوا بارتكابهم أفعال

السوء التي تجللهم بالعـار ، ولقد أُمرت أن أشترك مع النبـلاء الآخرين وأشاهد ملاهيهم .

بقيت في «شافهوزن» يومين ثم سافرت قاصداً «كونستانس» التي كان قد عقد بها مجمع ديني(١٦٠) للقضاء على الخلافات الموجودة في الكنيسة ، وحضره السفيران القشتاليان «فرنند بيريز دي أيلا» و «دي لوس دونيوس» ، وهنا لقيت كردينال «سان بدرو» الذي كان بها ، وأقمت معه ثمانية أيام ممتعة ، نعمت خلالها برؤية المدينة الجميلة الجديرة بالمشاهدة لما اشتملت عليه من المنازل والشوارع والكنائس والأديرة والخانات الرائعة والنزل ، ولا بد أنها كانت على الدوام بلداً طيباً ، ثم ازدادت طيباً منذ أن عقد بها « المجلس » .

وتوجد بها بحيرة عذبة تصل مياهها إلى الأسوار ، وهي نابعة من جبال الألب ، ويبلغ طولها خمسة أو ستة فراسخ ومثلها عرضاً ، وهي شديدة العمق وتستطيع كثير من السفن الإبحار فيها، وتكثر بها الأسماك التي يقال إن لحمها من أشهى لحوم حيوان البحر مذاقا ، كما يتناثر فيها عدد من الجزر الصغيرة حيث توجد الصوامع إلى جانب الأديرة ، وتأتي كميات ضخمة من المئونة عبر هذه البحيرة التي يرجع الفضل إليها في رخاء المدينة ، ولقد شاهدت بها أجمل امرأة قُدِّر لي أن تكتحل عيني برؤيتها ، وبلغ جمالها حداً خالجني معه الشك في آدميتها، ولو تسنى لها من الطيبة مثلما تسنى لها من الفتنة لكانت حور الجنة مثلها .

ولقد عقد المجمع الديني جلساته هنا في الكنيسة الكبرى ؛ وحدث أن مات في ذلك الوقت «فرناندو» ملك أراجون ، وأقيمت في هذه الكاتدرائية المآتم الكبرى اللائقة بمكانته ، وزينت الكنيسة كلها بصور أسلحة أراجون .

استأذنت الكردينال فى السفر ورحلت لمشاهدة الإمبراطور الذى كان مقيما إذ ذاك فى بوهيميا، واتخذت طريقى عبر ألمانيا العليا حتى جئت إلى «أولم» التى نسميها «أولوس»، والتى تصنع بها المنسوجات القطنية المنسوبة إليها، وهى طيبة الموقع بديعة البناء، كما أنها إحدى المدن الإمبراطورية التى تشير إلى حق الإمبراطور فى القضاء وتناول الدخول وما سواها. وعلى بعد نصف فرسخ منها يجرى الدانوب الذى يصب فى البحر الأسود.

ولقد غادرت «أولم» إلى مدينة «نوردن لنجن» التى كانت حينذاك فى صراع ضدّ أحد لوردات تلك الناحية، وزوّدنى القوم بحرس سار معى عبر هذا الإقليم الخطر، ووصلت بعدئذ إلى مدينة «تورمبرج»، فلقيت أناساً كثيرين منهم سفراء البابا وكردينال «سان كروزو»، كما صادفتُ جمعاً غفيراً من القسس من بينهم كردينال «سان سستو» الخالى المسمّى بالأخ «جوان دى توركيمادا»[١٦١].

وكان من أنصار الجمع ومؤيّديه كاردينال «أرليس» وكثيرون غيره من القساوسة، منهم المعلم «جوان دى سيجوفيا» أستاذ اللاهوت؛ أما من جانب الإمبراطور فهناك «كاسبر شليك»[١٦٢] نائب المستشار، وكثير من الأمراء وأهل العلم، وقد اضطررت للإقامة هناك حتى أنهى مجلس «الديت» اجتماعاته واستعد القوم للرحيل للسفر مع «كاسبر شليك» الذى كان فى طريقه لمقابلة الإمبراطور فى بوهيميا، ولولا ذلك لما كان فى استطاعتى السفر دون توقع خطر الهلاك، ولقد زكّانى لديه القشتاليون الذين كانوا هناك، فرضى أن أكون فى معيته حيث قدم معه ابن أحد الكونتات واسمه «باتندورف»، وكنت قد تعرّفت عليه فى قشتالة أثناء الحروب ضد المسلمين

على حدود « جيان » ، وهو الذى دُشِنَ فارساً فى « كامبل » ثم هرب إلى إسبانيا من أبيـه حين أراد أن يجعل منـه أسقفاً ، وكان له أخ أكبر منه ، غير أنه حين عودته إلى ألمانيـا وجد أن أباه وأخاه قـد ماتا فورث عنهمـا أملاكهما التى يبلغ إيجارها عشرين ألفاً من الدوكات ، ولقد لقيت من هـذا الفارس عطفاً كبيراً مثل الذى لقيته من حاشية الإمبراطور .

أما مدينة « نورمبرج » فواحدة من أكبر مدن ألمانيا وأوفرها ثروة ، وهى قديمة جداً ويـكاد تعداد سكانها يبلغ تعداد سكان طليطلة التى تدانيها فى الحجم وتشبهها فى الموقع ، ويوجد بهـا كثير من أهـل الحرف لا سيما المدّنون ، وهم يصنعون الملابس الحديدية التى تسمى باسمها ، كما توجـد بها كنيسة وضع الإمبراطور شارلمان بها الآثار المقدسة التى جاء بهـا من الأرض المقدسة حينما أخذ بيت المقدس ، ولقد ذهبتُ مع الـكرديتال لمشاهدة هـذه المخلفات وأطلعونى على الـكثير منها ، ومن بينها حربة من الصلب تبلغ قـدر متر فى الطول،وذكروا لنا أنها نفس الحربة التى طعن بها السيد المسيح فى جنبه، لـكننى ذكرت لهم أننى رأيت الحربة الحقيقية فى القسطنطينية ؛ وأعتقد أنه لولا وجودى فى رفقة جماعة من كبار الرجالات لـكنت فى خطر من الألمان لما قلته .

وهـذه المدينـة بالغة الثراء رغم وقوعها فى الداخل ، فهى ملأى بشتّ ضروب البضائع . وحين فرغ السفراء من أعمالهم آب كل منهم إلى وطنه ، ومضيت مع الألمان إلى تخوم بوهيميا حتى بلدة اسمها « أجير » وهى التى خلع فيها الإمبراطور سجسموند على « كاسبار شليك » جميع الوظائف الـكبرى وكانت بها زوجته أيضاً ، ولقد أقمنا فى تلك البلدة ستة أيام احتفى فى أثنائها

بزواج إحدى أخواته ، وكان بها كثيرون من ألمانيا وبوهيميا ، كما أقيم بها عديد من المبارزات والاحتفالات الكبرى .

• • •

غادرنا نورمبرج وأخذنا طريقنا عبر بوهيميا حتى بلغنا مدينة « براج » ، لكننا لم نستطع مقابلة الإمبراطور الذى كان قد سافر إلى « سيليزيا » على حدود بولندة ، حيث كان يشنّ الحرب على الملك البولندى .

وبراج مدينة موغلة فى القدم إلى جانب روعتها وثرائها ، رغم أنها أخذت فى التدهور منذ أن أصبح البوهيميون هراطقة ، ويبدو لى أنه لم يُقض القضاء التام على الهرطقة ولم تستؤصل شأفتها نظراً لوجود الجبال والمواقع الهامة التابعة « للتابوريين » ولقيام قلعة يسمونها قلعة « تابور » ، ولا يزال الأهالى سادرين فى غلوائهم وأخطائهم ، كما أن الجانب الأعظم من أهل المملكة يقفون إلى جانبهم لاسيما النساء نظراً لوجود مجتمع نسوى ، وإن كنت أعتقد أن ذلك إرضاء لشهواتهن الجنسية الدنيئة ، وهو أمر سمعته أيضاً .

وتنقسم براج إلى قسمين يسمى أحدهما ببراج القديمة والآخر ببراج الجديدة[١٦٤] ، ويجرى بين الاثنين نهر كبير عليه جسر يصل بينهما ، وبها جامعة ذائعة الصيت لما يدرس فيها من جميع العلوم لا سيما اللاهوت ، وقد بقينا فى براج يومين وغادرناها عبر بوهيميا حتى بلغنا أقصى حدودها ، ويقوم بين ألمانيا وبوهيميا سلسلة من الجبال الكثيفة الأشجار أشبه ما تكون بالجدار ، ولا يستطيع المرء عبورها راكبا أو راجلا إلا من مسالك خاصة .

وإذ غادرنا بوهيميا دخلنا ألمانيا وبلغنا مدينة تابعة لأمير « ميسين » دوق سكسونيا[١٦٥] الذى تزوج بأخت الإمبراطور فردريك ، وكان قد مضى

إذ ذاك قرابة أسبوعين منذ أن شرع فى محاربة المراطقة البوهميين وأنزل بهم الهزيمة واستولى على غنائم كبيرة منهم ، وأسر منهم ألف شخص من بينهم مائة من النبلاء ، وقد استقبلنى هذا الدوق استقبالا كريما وحبانى بكثير من الرعاية ، وقد أقام معه بها « كاسبار شليك » ثلاثة أيام ؛ ثم رحلنا بعدئذ عبر ألمانيا وشاهدنا كثيرا من الأماكن والكنائس التى آلت إلى أطلال خربة دمّرها ملك بولندة إبّان محاربة الإمبراطور للبوهيميين ، ومن ثم كان لا بد له من وقف حركاته العدائية والزحف مباشرة ضد البولنديين .

الفصل السادس والعشرون

برسلاف . الامبراطور ألبرت الثانى . الحياة
فى البلاط . ملك بولندة . برسلاف
فى الفضاء .

. . .

بلغنا « برسلاف » قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وهى واقعة فى إقليم سيليزيا وتطل على أقصى تخوم ألمانيا ، ووجدنا بها الإمبراطور « ألبرت »(١٦٦) وفى صحبته كثير من الأدواق والكونتات وغيرهم من أعيان الرجال ، وكذلك القساوسة من ألمانيا والمجر وبوهيميا ، كما أرسل الأخ الأعظم رئيس الفرسان البروسيين فارساً من هؤلاء مع طائفة كبيرة من الجند ، وإلى جانب هذا كله صحب الإمبراطورَ عسكرٌ كثيف لأنه كان فى الحرب ، وكان فى حاجة إليهم لاشتباكه إذ ذاك فى قتال ضد عدو ضخم العدد بالغ الشجاعة ، بيد أننى علمت أن القتال لم يحل دون إقامة الاحتفالات أو المبارزات أو البرجاس أو حفلات العرس التى أعدها الإمبراطور لشعبه ، مما لم تعرقل استمرار القتال ، بل أعدّ لكل أمر عدته ، وكان تتويج الإمبراطور قد تم منذ أمد قريب جداً وشهدته جموع غفيرة من الناس ، فيهم السفراء الذين أوفدهم الملوك والأمراء والجمهوريات الإيطالية ، كما حضره أسقف « بيرجوس » بأمر من ملكنا ومولانا « دون جوان » الذى أبدى الإمبراطور نحوه أعظم الاحترام ، والواقع أنه كان أهلاً لذلك ، فإلى جانب كونه ممثلا للملك فإنه كان

رجلا نبيلا حصيفاً جليل المنزلة مبجل القدر ، كما كان هناك ممثلون لدوق برجنديا ودوق ميلان والبندقية وفلورنسا وجنوه ، وممثلون للبابا يوجين وملك أراجون ،وجاء الكثيرون منهم بالهدايا لاسيما البنادقة والفلورنسيين ،وكانت هدايا البندقية ـ على وجه الخصوص ـ أعظمها وأجلها .

ولقد تقبل الإمبراطور جميع الهدايا قبولا حسناً إلا هدايا البندقية فقد رفضها قائلا إنه لا يليق به أن يقبل شيئاً من شعب يعتزم قتاله ، وزاد على ذلك قوله فى حضرة الجميع أنه قد أقسم يميناً لا رجعة فيه ألا يقبل التاج الإمبراطورى وألا يأخذ دخوله حتى يرد البنادقة إلى الإمبراطورية ما سلبوه منها[١٦٧] ، وأنه سوف يتوج فى القبر المقدس حين يتم له استعادته إياه ،فعمّت الفرحة الشديدة جميع من سمعوا هـذا اليمين ، غير البنادقة الذين رحلوا ساعة سماعهم إياه .

. . .

ولقد قدمت للإمبراطور — هذا اليوم — احتراماتى وأنا فى جماعة من القشتاليين والألمان وفى صحبة نبيلين سبق أن قابلتهما فى بيت المقدس ، وفارس « باتندورف » الذى رافقته فى الرحلة من قبل ، ولقينى الإمبراطور أحسن لقاء وأحاطنى بمظاهر التشريف ، واحتفل فى هذا اليوم بزواج كونتة أرملة من أحد فرسان البلاط ، وتبارز مع مركيز « براندبرج » . وفى إحدى جولات هذه المبارزة لم يكن ممتطياً صهوة فرسه إلا أنه برشاقة امتطاه ، وألقى بخوذته جانباً ووضع على رأسه قبعة محلاة بمشبك غالى الثمن ، ثم اقترب من العروس مقدماً إليها القبعة والمشبك ، ثم أخذها من يدها وسار بها إلى القصر وحوله كوكبة من النبلاء وكبار الرجال ، ومضى الجميع يتناولون العشاء حين

حل المساء ، فجلست السيدات وحدهن على انفراد ، أما العروس فقد اتخذت مجلسها بين السادة الأشراف ، أما مائدة الإمبراطور فلم يجلس إليها سوى ثلاثة هم : الإمبراطور نفسه وفارس بروسيا وأنا ، واستمرت الوليمة حتى بعد منتصف الليل بساعة ، ثم بدأ الرقص الذى استمر حتى الفجر .

كان الإمبراطور رجلا ذا نزعة طيبة ، كريم النفس ، ظريف الشخصية ، سمح الوجه رغم أنه كان ذا هيئة غير مألوفة ، فقد كان لونه أميل للسمرة الشديدة حتى إن الألمان كانوا يمزحون فيقولون إن الدم القشتالى يجرى فى عروقه .

ولقد أخذنى من يدى وأمرنى بإلقاء نظرة على السيدات حتى انتقى منهن من أوثر الرقص معها ، وحمل أمامى المصباح مرتين أو ثلاثاً ، وهكذا أمضينا تلك الليلة ، ورأيت فيها كثيراً من الأشراف الذين كانوا يتحلون بالشارة التى تسلمتها من مولاى الملك والذين رافقونى فى الانصراف بعد استئذانى الإمبراطور . فلما كان اليوم التالى — وقد فرغ القداس — استدعى الإمبراطور إلى حضرته جميع السفراء الذين وفدوا عليه وجلس على عرشه المرتفع ، كما طلب أسقف « بيرجوس » وسأله أن ينوب عنه فى الرد على جميع السفراء ، وقد فعل الإمبراطور ذلك تكريماً للأسقف ، فلما انتهى الأمر اقتربت منه وأعطانى رنكه وكذلك وسام طائفة « التنين » التى تعادل مكانتها فى المجر مكانة « وسام النسر » فى النمسا ووسام « وتوسينو » فى بوهيميا .

* * *

وبينما دأب الإمبراطور على إقامة الاحتفالات كل يوم — كما قلت —

فإنه لم يهمل قط أمر الحرب التى كان يستعد لها على الدوام ، وكان السبب الرئيسى لهذه الحرب هو الإمبراطورة[١٦٨] أرملة سجسموند وحماة الإمبراطور الحالى ألبرت ، وهى — كما يقول الناس — امرأة منحلة الأخلاق غاية الانحلال ، فلما اتخذ زوج ابنتها الإجراءات ضدها غادرت بلاده وهربت إلى ملك بولندا حاملة معها ثروة ضخمة أعطتها إياه ، كما تنازلت له عن جميع حقوقها فى أراضيها الألمانية ثم تزوجته ، إلا أن هذا الزواج كان باطلا كل البطلان حيث إنها كانت قد جاوزت الخامسة والستين من عمرها على حين لم يتخط هو الثانية عشرة ، وقد مكن هذا النزاع البولنديين من النجاح فى دخول ألمانيا ، غير أن أسقف «بيرجوس» الذى كان موجوداً بينهم حينئذ استطاع بفضل حصافته أن يعالج الأمور بحكمة هدهدت من حدة الطرفين وأدت إلى عقد الصلح بينهما ، وكان ذلك أمراً شديد الصعوبة من جراء الخسائر التى سبق أن تكبدها الجانبان .

ونتيجة لذلك أتيحت لى الفرصة لرؤية ملك بولندة حيث وجدته فى إحدى القرى التى تبعد مسيرة يوم وفى صحبته جماعة كبيرة من الأشراف وهم فى أحسن لباس وقد تسلحوا على مألوف عادة بلادهم وامتطوا صهوات جيادهم ، ويقولون إن الملك سيد إقطاعى كبير لما يملك من الأرض وما ينصب فى خزانته من الأموال ، وكان فى السن التى ذكرناها آنفاً ذا طلعة بهية رابط الجأش .

كذلك رغبنا فى رؤية مدينة « كراكاو » وهى أهم مدن مملكته إلا أن ذلك كان مستحيلا ، كما أنى لم أحظ برؤية صيد الدب وهى من أعظم ما يستحق المشاهدة فى تلك البقاع حيث حيواناتها بالغة التوحش والعنف مفرطة الأقدام ، وتلك رياضة رائعة لا يمكن ممارستها دون وجود الكثير

من الرجال والكلاب ، كما أن لحمها شهى المذاق والطعم .

* * *

استأذنت من ملك بولندة ورجعت إلى الإمبراطور فى « برسلاو » ، وبينما كنت ذات يوم أتحدث عن تجاربى سألنى عما صادفنى فى ألمانيا ، فأجبته أن دوق « ستيفن » قد سجننى فى « رايتلاند » ، فاشتد غضبه قائلا إن القشتاليين لا يستحقون مثل هذه المعاملة لمعرفته أفضال ملك إسبانيا وشعبه على الألمان ، مضيفا إلى هذا أنه كان قد اعتزم زيارة إسبانيا قبل زواجه

فلما كان اليوم التالى وأنا على مائدة أسقف « بيرجوس » للعشاء دخل رسول الإمبراطور المجرى الذى كنت قد قابلته مع أمير البحر « دون فادريك » واسمه « توزول » ، وجاء هذا الرسول بكأس فضية مذهبة الحواشى بها ثلاثمائة فلورنتى ، بعث بها الملك إلىّ وقال إنه يرجو أن أغفر له أنه لم يستطع أن يمنحنى أكثر من هذا نظرا لظروف الزمان والمكان ، فشكرته شكرا بليغاً لما وصلنى به وأبيت إلا أن أعيد إليه المال ، فقد كان لدىّ ما يكفى احتياجاتى ، كما أن أخذى إياه سيكون عبئا ثقيلا على كاهلى ، كذلك قلت له إننى لو لم يكن معى المال لما اكتفيت بقبول رفده بل لبادرت بطلبه منه إدراكا منى لسخائه العظيم ، فلما سمع الرسول قالتى هذه خلفنى ومضى ، كما أن أسقف بيرجوس فرح بجوابى فرحا شديدا وقصّ الخبر فيما بعد على الملك « جوان » فى حضرتى .

وقلما مر يوم فى هذا البلاط دون مبارزة يشحذ فيها كل جانب حرابه ، ويعدّ خوذه الحديدية ودروعه ، غير أنهم جميعا كانو معتادين على ذلك الأمر ،

مدربين عليه ، بارعين فيه بدرجة تنفى الخطر عنهم .

. . .

ومدينة برسلاو كبيرة جدا بل إنها أكبر من إشبيلية ، هذا إلى شدة ازدحامها بالسكان ، وتدخل فى نطاق أسقف « سيليزيا » أعظم أساقفة هذه النواحى على الإطلاق ، وكان — إلى جانب دخوله الكبيرة — يستطيع أن يدفع إلى ميدان القتال عددا ضخما جداً من الرجال .

أما الإقليم فشديد البرودة إن هو قيس بألمانيا السفلى قياس ألمانيا إلى قشتالة ، ولا تكفى المواقد والمداخن فى التدفئة ، لكن هناك نوعا من أفران الحرارة شائع الاستعمال ، إذ يوقد الناس النار تحت حجرة علوية ذات أرض مليئة بالفتحات ، ثم يضمون المقاعد فوقها ويجلسون عليها ويفتحون الثقوب فتتصاعد الحرارة بين الأرجل .

ولشدة برودة المدينة فإن الإمبراطور ورجال حاشيته يخترقون الشوارع فى عربات خشبية أشبه بآلات درس الغلة ، وتجرها جياد ذات حدوات حديدية كما يفعلون فى الريف ، تسير بهم فى الشوارع ، ويمضى البعض الآخر فى عربات تجرها ثمانية أو عشرة جياد ، وهى مغطاة فى إحكام بالمظلات ويثبتون المجامر فيها ، وبذلك يمضون من بيوتهم إلى القصر أو إلى أى مكان يشاءون ، ولا يركب الموسرون الجياد خوفاً من الزلق لأن شوارع المدينة أشبه بالزجاج من جراء الجليد الذى لا ينقطع تساقطه ، ويسير الكثيرون رجالا على أقدامهم ويحضر كل شخص — حتى الأطفال — إلى الكنيسة عند منتصف الليل ولا يفوت أحداً منهم حضور القداس ، ويزودون أنفسهم بكميات كبيرة من الطعام والشراب ، وهى عادة قد تبدو لنا أشد غرابة من كل عادة سواها

وأعتقد أن ما ينفق على الفراء والتوابل أكثر من نصف ما ينفقه العالم كله عليهما ، فالقوم شديد والثراء ، ولديهم الفضة بوفرة كبيرة ، ولما كانوا لا يحتفظون بكثير من الخدم ، وكانوا فى الوقت ذاته ذوى دخل هائل وثروة ضخمة فإنهم يعيشون عيشة طيبة جداً .

* * *

والإمبراطور ألبرت رجل محمود الفضائل ، صادق فى مسيحيته مخلص لها ، يستجيب للأوامر الدينية ويتمثل هـذا فى أعماله المنطوية على الرحمة ، ويرجع إليه الفضل وحده — أيام أن كان لا يزال دوقا — فى عدم دخول البوهيميين ألمانيا إذ كانت مقاومة الإمبراطور سجسموند قليلة لأن أصله البوهيمى حمله على عدم الزحف عليهم .

الفصل السابع والعشرون

مغادرة برسلاو . الرحلة إلى فينا . مهاجمة طيفور فى الطريق .
فينا . الإمبراطورة اليزابث . بودا . نويشتات .
فردريك دوق النمسا . الألب . فريولى .
تريفيسو . بادوا .

. . .

سألت الإمبراطور أن يتفضل فيأذن لى بالرحيل لرغبتى فى العودة إلى قشتالة بعد أن ساهم مولاى الملك بنفسه فى الحرب الإسلامية ، والتمس الحاضرون منه أن يعهد بى إلى رعاية اثنين من فرسانه كانا مسافرين إلى فينا فى قوة قوامها مائتا فارس ، ومن ثم رحلنا من برسلاو واستطعنا الوصول بعد المشقة الكبرى والخطر المقيم إلى حدود بوهيميا ، ثم دخلنا ولاية موراڤيا التابعة للإمبراطور ألبرت منذ أن خلعها عليه صهره الإمبراطور سجسموند بعد زواجه ، فطالعنا بموراڤيا كثيرا من النواحى المهجورة التى دمّرها البوهيميون والتى لا تزال آثار النيران ظاهرة بها ، ومن ثم أمضينا إثنى عشر يوما حتى أدركنا فينا بعد أن قاسينا الأمرّين من الجليد والصقيع ، وصرنا فى طريقنا على نهرين عبرناهما بعرباتنا على الثلج ، وكان الجو قارس البرودة والصرد تقضقضت له أسنانى حتى كادت أن تسقط من فمى ، وليس من شك فى أن اجتياز مثل هذا القطر فى الشتاء أمر مستفظع .

كان أحد رفيقىّ الفارسين يعيش فى مكان تابع للإمبراطور الحالى ، أما الآخر فيقيم هو وزوجته فى فينا بدار منحـــه إياها الإمبراطور ألبرت خارج

المدينة وتبعد عنها بمرحلتين ، فلما أصبحنا على مسافة فرسخين من فينا ترك الفارسان وشخص كل منهما إلى مقامه ، وقد سألني هذا الفارس الذي يعيش في فينا أن أمضي معه في داره خمسة أيام أو ستة ، قائلا إنه سيأتي لأخذي من المدينة ، ثم افترقنا بعد أن دلّني على الطريق إلى فينا وأخبرني أين أقيم .

***

لم أكد أبعد نصف مرحلة عن الناحية التي كنت بها حتى تصدى لمهاجمتي جماعة من النبلاء المشاة قاصدين سلبي مامعي ، ولكنهم لم ينجحوا في خطتهم بفضل ما لديّ أنا وصحابي من جياد سريعة ، فتهيأت لنا النجاة منهم ، وبلغنا فينا ونزلنا الخان الذي ذُكِرَ لنا ، لكن لم أكد أجلس إلى المائدة حتى ظهرت نفس هذه الجماعة من النبلاء الذين هاجموني فعرفت أحدهم في الحال ، وسألتهم كيف يرتضون لأنفسهم أن يسلكوا هذا المسلك ، فأنبأوني أنهم نبلاء فقراء وأنهم يحتالون على الحياة باللصوصية ليقيموا أودهم ، فأخبرتهم أنني أنا نفسي رجل نبيل فقير ، وزيادة على ذلك فإنني غريب في أرضهم ، وأن احتياجاتي ربما فاقت احتياجاتهم ، فراحوا يلتمسون مني العفو عنهم ، وعرضوا عليّ أن يرحلوا في طلب شيء من المال يستطيعون به استضافتي لكنني شكرتهم وأجلستهم معي ووصلتهم ببعض النقود التي كان فرحهم بها عظيما جداً ، ودأبوا على ملازمة صحبتي معظم الأيام التي قضيتها في المدينة .

وتقع فينا (١٦٦) على نهر الدانوب وهي كبيرة جداً يبلغ حجمها حجم قرطبة ، وبيوتها في غاية الحسن من الداخل والخارج ، وشوارعها لطيفة وكذلك كنائسها وخاناتها ، أما كنيستها الكبرى فأبرز ما فيها البرج المنقول تماما عن برج كنيسة « ستراسبرج » ، والأراغين كبيرة جدا فإذا نفخ فيها

خيل لمن بالسكنيسة أنها على وشك الانهيار ، وتحفل هذه المدينة بالصناع فى شتى الحرف، وبها جامعة لدراسة العلوم .

وللإمبراطور قصر رائع جدا كانت به الإمبراطورة[١٦٧] فزرتها تلبية لأمر زوجها ، وهى ابنة الإمبراطور سجسمند ، لا يقع الطرف على أجمل منها طلعة ، كما أنها طويلة القامة ، وقد رزقت إبناً صغيراً هو الآن ملك المجر، وابنتين يتراوح عمرها بين الحادية عشرة والخامسة عشرة، فلما لقيت الإمبراطورة أفضيت إليها بخبر زوجها، وأنبأتها بانعقاد السلام بينه وبين ملك بولندة ، وأن الإمبراطور يتأهب للعودة فخفق فؤادها فرحا لسماع هذا النبأ ، ثم بَعَثَت فى استقدام جماعة من أفاضل حاشيتها وأمرتهم بحسن معاملتى وإطلاعى على مشاهد المدينة وملازمتهم صحبتى ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم استأذنتها بعدئذ فى الرحيل فأعطتنى وسام التنين الذى كانت تلبسه — رغم أن الامبراطور قد خلع علىّ مثل هذا الوسام — قائلةً إنه وسام أبيها ، وأنها لا تستطيع خلع سواه علىّ .

بقيت مع هؤلاء السادة وفى المدينة أربعة أيام مؤتنساً بصحبتهم حتى بعث إلىّ الفارس الذى كان رفيقى فى الرحلة بسيدين لمصاحبتى فرافقتهما ، وغادرت هذا المكان إلى حيث كان هذا الفارس فى انتظارى ، فتلقانى بداره المسماه « لـكسندورف » ، غير أنى قبل مغادرتى فيينا ذهبت لرؤية « جورج فونيروك » الذى تآخى مـــع « دون فرنا ندودى جيفارا » فى السلاح ، وصحبنى هذا الفارس مسافة الفرسخين إلى البيت حيث دعاه مضيفى للغداء معنا قبل رحيله ، وكان سمرنا فى هذا اليوم عظيما ، ثم عاد الفارس إلى فيينا وبقيت مع مضيفى أربعة أيام استمددت فيها نشاطى تماماً بعدها،

وقد أكرم القوم وفادتى كأننى أحـــدهم ، وتلقتنى ربة الدار لقاء الأم لولدها .

رأيت كافة نواحى المزرعة التى تعد من أكبر وأروع المزارع التى شاهدتها، وهى شديدة الحصانة بفضل خندقها وسورها رغم وقوعها فى سهل ، كما يقوم على أحد جانبيها بستان كبير يمتد مسافة فرسخ طولا تمرح فيه الخنازير البرية والظباء وغيرها من حيوان الصيد ، ويشق المزرعة نهر تنمو على جانبيه الأحراش الكثيفة ، ويحتفظ الإمبراطور فى هذا المكان بصناع الأسلحة السيوف والأقواس والسهام والدروع وغيرها من الأشياء الرائعة التى تستحق المشاهدة .

. . .

ثم وصلنى الفارس وزوجته ببعض الهدايا ، فأعطتنى هى ثوبا من التيل، وتفضل هو على بسيف ومهماز وسرج مذهب ، ثم استأذنتهما فى الرحيل ، وسألت هذا الفارس أن يبعث بأحد رجاله معى إلى « بودا » إحدى مدن المجر وتبعد عن هنا مسافة ثلاثة أيام .

* * *

رحلت بصحبة هذا السيد واتخذنا طريقنا على طول نهر الدانوب حتى دخلنا بلاد المجر وهى بلاد بالغة الاتساع، كثيفة السكان ، تزخر بالحصون الكبيرة والواقعة على الحدود الألمانية .

وصلنا إلى مدينة «بودا» التى تبلغ فى حجمها حجم مدينة «وادى الوليد» ويشقها نهر الدنوب ، كما أنها تعد أكبر مدن بلاد المجر ، ويكثر فيها الصناع ولكنها لا تبلغ شأو المدن الألمانية فى النظافة ، وأهلها أميل إلى الامتلاء ،

مما يرجعه البعض إلى ما يتقلبون فيه من الترف ، وقد قام الإمبراطور سجسمند بإدخال تحسينات جمة بالمدينة ، وشـــيّد قصراً رائعاً بها أقام فيه قاعة استقبال ضخمة تشبه تلك التي في « بادوا » ولـــكنها لم تبدُ لعيني في روعتها .

. . .

رحلت من هناك حتى بلغت حدود المجر ودخلت ألمانيا وجئت إلى مدينة اسمها « نويشتات » أي « البلدة الجديدة » ، فألفيت بها الإمبراطور الحالي فردريك الذي كان إذ ذاك دوق النمسا[١٢٢] ، وهو ابن عم الإمبراطور ألبرت ولـــكنه لا يبلغ من النبل مبلغه ، وكان مشغولاً حينذاك بالاحتفالات التي أقيمت لزواج ابنته من والى « ميسّين » المشار إليه سابقا الذي كان قد أنزل الهزيمة بالبوهيميين ، فبقيت مع الدوق الذي أصبـح الآن إمبراطوراً ، ولازمته أسبوعا كاملا ، وهنا التقيت مرة أخرى برفيق رحلتي الثاني الذي أبدى لي كثيراً من الرعاية والرقة، كما فعل مثل فعله الدوق الذي كنت أتناول معه طعام الغذاء كل يوم .

جاء لمشاهدة عقد القران جمهور كثيف جداً من الناس من ألمانيا، ولم يكونوا من أهل بيته فحسب لضخامة مـــكانته ، بل كان فيهم جماعة من بني جلدته وأصدقائه ، وكانت العروس سيدة رقيقة فـــكان الحمل كريما ، أما عرِسها فـــكان متغيبا في وطـــنه بسبب الحرب ، فأخذوا العروس إليه .

أما الدوق ـــ وهو الإمبراطور الحالي ـــ فقد بلغ من الثراء حدا ليس بعده زيادة لمستزيد وإن قيل إنه يعرف جيداً كيف يحتفظ بما لديه ، وكان قد عاد من بيت المقدس قبل رحيـــلي بعدة أيام ، وسرّه كثيراً أن

يتحدث إلىّ بخير البلاد الواقعة فيما وراء البحر ، ونشطت نفسى بصحبته ، ثم استأذنته فى الرحيل فأذن لى ، وبعث بالتابع الذى كان قد رافقنى إلى الجر إلى مولاه الذى كان على مسيرة رحلة يوم من هذا المكان .

. . .

تركت « نوبشتات » مخترقا بلاد هذا الدوق الواسع الأملاك ، ماراً بمدنه وبلدانه وقلاعه حتى بلغت جبال الألب التى لقيت المشقة الكبرى والخطر الجسيم فى اجتيازى إياها بسبب الصقيع الشديد ، على أن الأمر الذى يستوجب الالتفات أن هذا البرد لم يحل دون ازدحام جميع الممرات بالسكان وتوافر المئونة بكثرة ، وكان البنادقة قد اغتصبوا كل هذا الإقليم من الإمبراطورية[173] ، فبنوا فى الممرات والمعابر الضيقة أسواراً وأبواباً يغلقونها عليها ، كل ذلك ليقوّوا من بأس طغيانهم ، ثم انحدرتُ نحو إيطاليا وجئت قطراً يسمونه « فريولى » يتبع بطرك « أكويليا » ، وكانت له أملاك كثيرة فسيحة فى هذه الناحية ، إلا أن البنادقة استولوا عليها كلها ، ولقد رأيت البطرك فى بلاط الإمبراطور شاكياً إليه هذا الأمر ، ولاشك فيما يقال من أنه لو لم يمت الإمبراطور لماجله البنادقة بالسم بعد أن ترامى إلى سمعهم نبأ اليمين التى قطعها على نفسه بأن يسلبهم كل ما فى حوزتهم من أشياء تملكوها قسراً واغتصابا .

ثم ذهبت إلى « تريفيسو » ، وكانت هى الأخرى من المدن التى احتلها البنادقة ، وهى مدينة كبيرة غنية واقعة على مقربة من الجر ، وتبعد عن البندقية رحلة يوم تقريبا .

. . .

رغبت فى أن أتوجه حالاً إلى البندقية ، ولكنى سمعت أن البابا قد

اعتزم مغادرة « فرارا » إلى « فلورنسا » ومن ثم حدثت الخطا لأصل قبله ، فجئت إلى مدينة « بادوا » التى تكاد تبلغ حجم إشبيلية تقريبا ، وتمتاز بشدة ثرائها ومركزها التجارى العظيم ، وتقع على مقربة من البحر ولا تبعد عن البندقية بأكثر من نصف يوم ؛ وكان البنادقة قد أخذوها هى الأخرى من صاحب « كرارا » التى كانت من أملاكه الدينية ، وقد ذهب هو أيضاً إلى الإمبراطورية شاكيا إليه صنيع البنادقة .

ولقد علمت أن البابا لن يرحل إلا بعد خمسة أيام أو ستة ، فبقيت فى « بادوا » ثلاثة أيام ، والوقع أنها تزخر بكثير مما يستحق المشاهدة ، ففيها جامعة عظيمة جدا تُعدّ من أحسن جامعات العالم المسيحى ، وبها دير ضخم غنى يضم جثمانَى القديسين « أنطونيوس دى بادوا» و « لوقا الإنجيلى » وهو مكان شهير مقصود للحج والعبادة .

وفى وسط المدينة قاعة كبيرة[174] تبلغ ضعف حجم أى قاعة مما رأيت ، وسطحها مغطى بالرصاص ، أما داخلها فيمعدن البلاتين ، وسقفها أزرق اللون بديع الرسوم محلىً بنجوم ذهبية ، وفى وسطها قضبان من الحديد على شكل أعمدة ازدانت بصور تفاح ذهبي اللون كبير الحجم ، وقد صُوّرة عليها قصة العالم منذ بدء الخليقة إلى ظهور المسيح .

ويقولون إن الرسم وحده تكلّف أكثر من أربعة ألف دوكات،وتدور حول القاعة مقاعد خشبية حيث تقام العدالة ويقضى بين الناس ، أما فى الخارج فتوجد مجموعة من الأعمدة الباسقة .

وللقاعة أربعة أبواب ، على كل منها تماثيل رخامية ، إثنان منها لتخليد ذكرى رجال العلم من أجل هذه المدينة لاسيما « تيتس ليفيس» المؤرخ «وبطرس أبانو[175]» أحد كبار السحرة الذى أحرقه الإخوان الصغار لقيامه بأمور عجيبة

رائمة ، مثل سَحْبِه سفن القسطنطينية مباشرة إلى ميناء البندقيةوغير ذلك من الأعمال التي تدخل في قدرة السحرة .

وقد أقام القوم تحت هـذه القاعة حوانيت لصناع الملابس والأحذية ، ويستطيع المرء من هناك أن يتبين نخامة القاعة حيث يوجد جميع تجار المدينة رغم شده اتساع المدينة التي تحتوى على بعض المباني الشديدة القِدَم ، وقيل إن بانيها « أنتينمور » بعد خراب طروادة ، والواقع أن مبانيها ذات طابع قديم .

وحدث في يوم وصولى أن كان حـكم القضاء ينفذ في أحد أهالى بادوا لاغتياله فارساً من أهـل قطالونيا واسمه « موزن ڤيلافرانـكا » كان قد نزل ضيفاً على هذا المواطن .

الفصل الثامن والعشرون

فرارا . البابا يرحل إلى فلورنسا . البندقية .
فيرونا . فلورنسا . البابا والإمبراطور .
بيزا . بولونيا . البندقية .

. . .

تركتُ بادوا وسافرت عبر القنوات ، ولما كان هذا الإقليم قريباً كل القرب من البندقية فإن الناس يحمون المياه فى بحيرات بعضها عذب ماؤه وبعضها ملح أجاج ، لكنها ذات رائحة كريهة جدا ويسمونها بالمستنقعات، وإذا أراد الإيطاليون الإشارة فى كلامهم إلى شيء عفن أو نتن شبهوه بهذه المستنقعات .

ولما اقتربنا من « فرارا » أخبرونى برغبة البابا فى مغادرتها ، وكان حقا ما قالوا ، فقد وجدت البابا على وشك الرحيل إلى فلورنسا حين وصولى ، ولم أكد أبلغها حتى مضيت إلى إمبراطور اليونان الذى لم يكتم سروره البالغ لرؤيتى مرة أخرى ، ورأيت تقدم البابا الذى تم على الصورة التالية[٢٦] ، فقد نهض لاستقباله موكب خرج فيه جميع الأساقفة ورؤساؤهم والكهنة والقسس حاملين الصلبان سيراً على الأقدام ، وجاء من بعدهم الكرادلة على ظهور الجياد، وعكاكيزهم فى أيديهم على النظام السابق ، ومن ورائهم إثنا عشر حصانا عليها حلى قرمزية ، قد وضعت المظلة على أحدها ، والكرسى على الثانى ، والوسادة على الثالث وهكذا حتى النهاية .

وأما الحصان الأخير فكان مغطى بنسيج حريرى مشجر ، كما وضعوا

العشاء المقدس المبارك فى وعاء محمول على سرج فضىّ ، وعلقوا إلى هذا الحصان ناقوسا ذهبيا يقوده اثنان من الشمامسة من اللجام .

ثم جاء البابا نفسه ممتطياً جواداً فى زينات قرمزية ، وقد ارتدى مسوح القداس ، ولبس تاج الأسقفية ، وراح يبارك الواقفين على الجانبين ، بينما مضى الرجال ينثرون قطع العملة فى الشارع لينال ملتقطوها الغفران ، وقد عمدوا إلى هذه الوسيلة ليمنعوا جموع الناس من التزاحم على البابا الذى كان مركيز «فرارا» وكونت «أربينو» يأخذان بلجام حصانه .

وجرت الشائعات أن دوق ميلان يتربص للقبض على البابا ، ومن ثم قام المركيز بحراسته ذلك اليوم حتى أوصله إلى صومعة على بعد ميل من هناك ، وكان فى صحبته حشد كثيف من الرجال المسلحين ليوقع فى وهم الرائى ما يخال معه كثرة القوات الحربية المرافقة للبابا فى سفرته إلى إحدى مدنه حيث كان قد أعدت احتفالات كبيرة ، ولكن الواقع أنه ركب معه فى اتجاه مخالف حتى أوصله إلى فلورنسا سالما بعد يومين ، ويقال إن البابا قدّر للمركيز هذا الصنيع وغيره من الأيادى التى قدّمها له ، فخفض الضريبة المفروضة على المركيز إلى ثلاثة آلاف دوكات ، وأقر جميع امتيازات ميلان مما يتجلى من المرسوم الذى نقشه المركيز على لوحة حجرية وضعت فى كنيسة فرارا الجامعة .

تلبثت يومين فى فرارا ، ثم رغبت فى السفر فلم أجد مناصاً من الرحيل إلى فلورنسا لأن كل المصارف كانت مغلقة ، وكان جميع الصيارفة قد رحلوا ، ورغب الإمبراطور فى أخذى معه لكننى رحلت تاركا جيادى فى فرارا العليف ، ومضيت إلى البندقية للوقوف على خبر بضاعتى ولأخذ حظى من الاستجمام ، بينما كانت جيادى تستعيد نشاطها وتجدد قواها فى فرارا .

* * *

أما الإمبراطور فقد رحل فى اليوم الثانى وبقيت أنا فى البندقية، فنزلت نزلا طيباً أحسست فيه كأننى فى دارى ، ورأيت أننى مدين بالفضل الكبير إلى صديق التاجر الذى عهدتُ إليه بمتعلقاتى ، إذ الواقع أنه لم يكن فى الإمكان أن أعهد بها إلى أحد خيراً منه ، وكان يستعد للرحيل إلى إشبيلية ، فسألته إن كان يقبل أن يشحن معه بضاعتى إليها ، ولم أستبق معى غير النقود ، فأجاب سؤالى وأدّى لى هذه اليد الكريمة عن طيب خاطر كما فعل من قبل معى ، فبقيت معه بالبندقية حتى رحل .

وفى هذا الوقت الذى كان البابا يعقد فيه بلاطه فى « برشيا » تواترت الأنباء بأن دوق ميلان قد ملأ تلك المدينة بقوارب جاء بها من البحيرة مما استحال معها إدخال المؤونة،وأن البنادقة جهزوا غراباً واستطاعوا بدهائهم نقله على اليابسة عبر جبل فى الجبال يطاول ارتفاع جبال قشتالة ، ثم جرّوه وأنزلوه فى البحيرة (١٧٧) ، وأحسب أن مائة ألف من الناس قدموا لرؤية هذا العمل الباهر،وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك لأننى لم أشاهد قط ما يجاريه روعة أو يبلغ ما بلغه من صعوبة لا يكاد يصدقها الإنسان ، فما كاد الغراب ينزل الماء حتى حطم جميع القوارب الأخرى ،فلم تواتِ الشجاعة غيره من القوارب على المجىء ، وبذلك نجت المدينة ورفع عنها الحصار رغم أن أهل ميلان راحوا يتشدّقون ويزعمون استيلاءهم عليها، فذهبتُ لرؤية رجال دوق ميلان الذين كانوا هناك وفى صحبتى « نيكولا بتشيرينو » (١٧٨) قبطانهم فكانوا جيشاً جميلا جداً .

* * *

سافرت حتى جئت إلى مدينة « فشنزا » الجميلة التابعة للبندقية ، ثم وصلت بعدئذ إلى «فيرونا» وكانت هى الأخرى من أملاك البنادقة ، وهى مدينة

كبيرة غنية رغم قلة عدد سكانها كما أنها قديمة جداً، والوارد عنها فى الأخبار أن الفضل فى تشييدها يرجع إلى جهود المنفيين الرومان الذين أطلقوا عليها إسم « فيروما » ومعناها « ها هى ذا روما أخرى »، والواقع أنه يمكن رؤية كثير من الآثار الرومانية بها مما يقوم دليلا على التشابه بينهما .

ثم عدت إلى البندقية وبقيت هنـاك يومين ورحلت بعدهما إلى فلورنسا حيث وجدت البابا والإمبراطور ، فجمعت أموالى ومكثت بها ثمانية أيام أشاهد المدينة التى هى من أعجب مدائن العالم المسيحى اتساعاً وثراء وحكومة ، ويحكمها أشخاص ينتخبون بالقرعة كل شهر ، وقـد تقع القرعة على إسكافى أو شريف، وعلى أية حال فليست هناك حكومة أنشأوها .

وفلورنسا غاصة بالبيوت الجميلة والشوارع والفنادق الفخمة ، وقد ضربت بسهم وافر فى النظافة والنظام ، إلى جانب ما تحفل به من الـكنائس الرائعة والأديرة ، ولا يوجد ضريب فى العالم لمستشفياتها ، فهناك واحدة للرجال وأخرى للنساء ، وهى نظيفة جداً وحسنة الترتيب والتجهيز ، وإذا مرض ملك أو أمير بادر فى الحال إلى قصره والاتجاه إليها طالبـاً للشفاء ، وزيادة على ذلك فهناك غفرانات لمن يعيش فيها ، وغفران تام لمن يموت بها ، فمن ذا الذى يستطيع أن يُقدّر العمل الطيب الذى تقوم به هذه البيمارستانات ؟ ذلك أن كل مريض يقيم حسب مكانته ولـكن العلاج واحد للجميع ،والواقع أن فلورنسا قـد أنجبت رجالاً عظاماً بارعين فى العلوم، ولازالت على ذلك حتى اليوم.

وكنيسة هذه المدينة الجامعة من الـكنائس التى نالت غاية الشهرة، كما تحفل بالمبانى الرائعة لا سيما البرج القـائم عند باب الـكنيسة المزين تقريباً حتى قمته بالتماثيل الرخامية، وأمامها ميدان فسيح تتوسطه كنيسة بلغت من الضخامة حداً كبيراً ، قد زين داخلها بالفسيفساء وغطى خارجها بالرصاص ، وتدعى ببيعة

القديس « يوحنا المعمدان » ، وبها حوض معمودية كبير وهيكل يقيمون به القداس، وقد رفعت خفاقة رايات جميع المدن التابعة لفلورنسا والخاضمة لحكمها، فقد نجحت فلورنسا ـ بفضل حكومتها الرشيدة ـ فى الاستحواذ على الكثير من الأراضى ، حتى إن مدينة بيزا نفسها ـ التى كانت فلورنسا تابعة لها حيناً من الزمن ـ قد صارت فى ولايتها، وأصبح حكامها الآن يتولون شئونها بأنفسهم.

* * *

ومدينة بيزا ـ كما يقولون — كانت تملك فى وقت من الأوقات جزائر صقلية وسردينيا وكورسيكا وولايات أخرى شاسعة فى البر ، لكن حدث ذات مرة أن اجتازت بها سفينة كان عليها أحد الكرادلة وبعض القسس وجماعة من سفراء البابا فى طريقهم إلى ملك فرنسا، ولم تؤد السفينة التحية المألوفة(١٧٩)، وإذ ذاك هرع البيازنة إلى سلاحهم فامتشقوه ، وأسروا السفينة وأحرقوها؛ فلما سمع البابا بهذا النبأ اشتد به الغضب وأمر بإعلان الحرب على البيازنة واعتبرها حرباً صليبية وجهاداً دينياً وأنزل بهم ضرراً بليغاً ، ولم ينفىء غضبه إلا بتدخل بعض الملوك والأباطرة ، وكف منح الغفران لهؤلاء المجرمين بسبب نهوضهم إلى المدينة المقدسة واحتلالها ، وإذ ذاك أعد البيازنة أسطولاً ضخماً خرجوا به واستولوا على بيت المقدس وتوابعها وأقاموا بها ردحاً من الزمن، لكن تبين لهم فى النهاية أن المحافظة عليها تكلفهم غالياً فباعوها : الأمر الذى يُظن أن جميع مصائبهم جاءت منه ، ويشك فيما إذا كان بالمدينة الآن بيزى واحد وُلد ولادةً طبيعيةً ، وكان عليهم أيضاً أن يهدموا مبانيهم وأن يلبسوا قلانسهم مقلوبة آيةً على دنسهم ، ومن ثم فإن الناس قاطبة يستنكفون منهم، وهكذا ذلوا لمن كانوا بالأمس خدمهم .

ويقال إن البنادقة والجنوية كانوا ببيت المقدس حين احتلال البيازنة

إياه ، فلما سقطت المدينة فى أيديهم عمدوا إلى تقسيم الكنز الذى وجدوه أقساماً ثلاثة ، فجاءوا إلى أحد هذه الأقسام واتخذوا مكاناً للكأس المقدس المصنوع من قطعة واحدة من الزمرد ، ووضعوا فى الثانى العمودين اللذين كان المرء يستطيع أن يتنبأ بالخطر من كل منهما بالشرور التى ستحيق به وما يرغبه، أما القسم الثالث فقد جعلوه موضعاً للكنز .

ثم أخرجوا سهامهم يشاورونها فكان الكأس المقدس من نصيب جنوة حيث لا يزال إلى الآن كما رأيته بنفسى [١٨٠] ، ونال البيازنة مدينة بيت المقدس والعمودين اللذين نقلوهما إلى بيزا، أما البندقية فأخذت الكنز الذى هو أساس جميع ثروتها ، غير أن العمودين اللذين نقلا إلى بيزا فقدا ميزتهما حين بيعت بيت المقدس .

وببيزا كنيسة شهيرة جداً ودير قد نقلت تربته من أرض بيت المقدس الكريمة ، واشتريت هذه التربة بثلاثين قطعة من الفضة وتسمى هنا فى بيزا بالتربة المقدسة Campo Santo ، ويقال إن الجثث التى تدفن هنا لا تبقى أكثر من ثلاثين يوما لأن الأرض تفنيها .

وليس من شك فى أن بيزا كانت مكاناً عظيماً ، فيناؤها نهر يصل إلى المدينة فتدخلها الأغربة وتصدر عنها ، أما «الجهورن» القريبة منها فهى الميناء الرئيسى للشوانى والسفن .

• • •

رحلت عن فلورنسا وجئت إلى بلدة يسمونها « فيرنزولا » وهى تقع فى جبال « بستويا » حيث انتصر هانيبال فى وقعة « كاناى »، ويوجد على مقربة من « فيرونزولا » نهر يلتف حول حقل محترق كله [١٨١] ، إذا رموا بالخشب فيه

احترق في الحال ولكن لا يظهر أثرٌ لنارٍ أو شيء يحترق.

وهذه عجيبة كبرى .

وقد تسلقت هذه الجبال الشديدة الوعورة رغم ازدحامها بالسكان، ووصلت إلى مدينة بولونيا العظيمة الشهيرة، ثم رحلت عنها إلى « فرارا » وأخذت جيادي التي كنت قد تركتها للرعي والكلأ، فوجدتها قد أصبحت شديدة السمنة فبعتُها، وعدت إلى البندقية حيث مكثت شهراً في انتظار إحدى السفن لنقلي، حتى وجدت أخيراً واحدة ميممة شطر صقلية فجمعت كل متاعي وركبتها.

الفصل التاسع والعشرون

العودة للوطن . رافنا . برنديزى . مضيق مسينا . الحوريات .
جزائر ليبارى . بالرمو . سرقسطة . جبل إتنا .
تونس . سردينيا.

. . .

غادرنا البندقية وأبحرنا مصاقبين للساحل الإيطالى حتى بلغنا مدينة اسمها « رافنا» وهى مدينة قديمة جداً ، جئنا منها إلى « ريمنى » التابعة لكونت « أريمنودا مالا تيستا » ، ثم مضينا إلى مدينتى «بيزارو» و «فانو» الجميلتين، وأدركنا فى النهاية « أنكونا » وهى من أملاك الكنيسة ، ثم أبحرنا إلى ميناء « برنديزى » الرائع ولعله أجمل من أى ميناء آخر وقعت عليه عيناى ، وهو فى منطقة أبوليا التى يسمونها Tierra di Lavoro .

فلما كان اليوم الثانى رحلنا عنها ، وانثنينا عند رأس « سبارتيفنتو »، ثم أبحرنا يمينا لأن الريح كانت مواتية لنا فبلغنا هذا المساء جزيرة صقلية ، فبقينا بالبحر حتى طلع اليوم التالى ، ثم خرجنا ـ فى جو طيب ـ خلال مضيق مسينا ـ تاركين « قلورية » الواقعة فى مملكة نابلى على يميننا وصقلية على شمالنا ، حتى أرسينا عند مدينة «مسينا» بعد جهد شاق بسبب التيارات العنيفة الموجودة هناك .

ويزعم الشعراء أن هذا المضيق كان موطن عرائس البحر ، ويقولون إن نابلى وجزيرة مسينا كانتا فى وقت من الأوقات متصلتين بعضهما ببعض

وكانتا تؤلفان قطرا واحدا ، غير أن زلزالاً فصل هاتين الجزيرتين بعضهما عن بعض ، والبحر هنا أعمق منه فى أى مكان آخر .

ويقولون أيضاً إن فى هذه النواحى نوعا من السمك على شكل امرأة من الوسط إلى أعلاه ، أما أسفل ذلك فيشبه السمكة ، وتعيش هذه المخلوقات فى الأعماق حيث يمكن ملاحظة أول تحركات الرياح ، فإذا أحست بالحركة وكانت قوية جدا أدركت أن عاصفة جامحة على وشك الوقوع ، وإذ ذاك تظهر على سطح الماء وهى تغنى أغنية ، ويزعمون أن الموت المحقق من نصيب من يسمعها ولا نجاة له منه ، فهى أغنية حزينة نادبة ، لأن هذه العرائس لا تغنى إلا حين تشتد العاصفة وتزمجر غاضبة فلا تتهيأ النجاة منها لأحد إلا بمعجزة .

والماء عند ميناء مسينا شديد العمق مما يمكن السفن الكبيرة أن تسير فيه ، ويعلوه لسان من الأرض أشبه بالرصيف الصناعى ، ويوجد عند أحد أطرافها دير للرهبان[١٨٢] اليونان ، وعند الطرف الآخر ترسانة السفن .

والمدينة غاصة بالمبانى الكبيرة وهى قديمة جدا ، وقد أكثر من الكتابة عنها الشعراء والخطباء والمؤرخون القدامى لاسيما فى الحرب البونية الأولى ، وهى مسورة أحسن تسوير ، وتكثر الحدائق الجميلة بداخلها وخارجها، وهى حسنة الرى ، وعلى الرغم من أن مساكنها الآن متناثرة بعض الشىء إلا أن فى قدرة الناظر إليها أن يدرك أنها كانت عظيمة فى وقت من الأوقات .

وفوق المدينة ـ تجاه قلهورية ـ يوجد مكان اسمه « ريجو » ؛ والمضايق شديدة الاتساع حتى ليستطيع المرء فى اليوم الصحو أن يرى الشخص راكبا جوادا على الساحل بالجانب الآخر .

تركت مسينا وجئت إلى « باتى » وهى بلدة صغيرة فى نفس الجزيرة،

وأمامها جزيرة البركان التي يقولون إنها أحد أفواه الجحيم الثلاثة لأنها تقذف بلا انقطاع النيران المصحوبة بدمدمة الرعد وكميات ضخمة من Scoria الهشة التي تبلغ في خفتها حدا تطفو معه على سطح الماء .

وعلى مقربة منها توجد فوهة أخرى يسمونها « سترمبولى » ترمى بالحمم كسابقتها ، وتتصل بها جزيرة صغيرة يسمونها «ليبارى » يعانى أهلها شدة الآلام في عيونهم من جراء الدخان المتصاعد من سترمبولى، وهى مركز الأسقفية الرئيسي ، ورأيت بها ــ وأنا أحاول الرسو ــ أكبر سمكة تسنى لى رؤيتها ، فقد بلغت من الضخامة مبلغ برج كبير .

ركبنا هذا اليوم لأن سفينتنا لم تستطع التقدم من جراء الهدوء الشديد ، وكان هناك غراب إسلامي ضخم يصحبه إثنان أصغر منه، وقد خرجت كلها للقرصنة وراحت تدنو منا وإن لم تجرؤ على مهاجمتنا ، ومن ثم بقينا هذا اليوم حيث نحن حتى صلاة الغروب حين هبت ريح رخاء وملأت أشرعتنا ، فظللنا مبحرين طول تلك الليلة ، فلما كان فجر اليوم التالى أصبحنا على مقربة من جبل « بلجرينو » الذى يعلو ميناء «بالرمو»، فأرسينا به ونزلنا إلى الشاطىء لينجز القائد عملا له هناك، وبقينا به مدة ستة أيام .

وتبلغ مدينة بالرمو في الضخامة مبلغ إشبيلية، ثم أخذت في الاتساع الشديد منذ أن شن ملك أراجون الحرب على نابلى حتى لقد زاد عدد سكانها الآن كثيراً عما كان عليه من قبل ، وهى المركز الرئيسى للمواصلات ، كما أنها مركز أسقفية ، وتبعد الكاتدرائية عن البلد مسافة ميلين ، ويكون فيها تتويج ملوك هذه النواحى ودفنهم بها ، وهى كنيسة فخمة مزينة أبهى زينة ومحلاة بأجمل فسيفساء رأيته في الأقطار اللاتينية ، وتسمى كنيسة «مونريالى»(١٨٣) .

وقد أصابت مدينة بالرمو حظاً وافراً هيأته لها تجارتها ، كما أنها حافلة بكل شيء ، وتقع في قطر كبير وتعتبر من أكبر مدنه ، وتشتهر بما يوجد فيها من قصب السكر .

« ومونت بلليجرينو » جبل شديد الارتفاع كثير المياه واسع المرعى ، ويقول الناس إنهم لا يكادون يأخذون إلى ذلك الجبل أي حيوان على وشك الموت حتى يشفى في ثمانية أيام ، وتبعث هذه المدينة إلى ملك أرغونة في نابلي بإمدادات وفيرة من الأقوات والجياد ، ويقوم أهلها ببناء السفن المسماة باسم «طيفورية» التي تحمل الواحدة منها ستين حصاناً أو أكثر .

غادرت «بالرمو» وذهبت إلى «ترابانى» الواقعة عند نهاية الجزيرة، وهي ميناء جيدة جداً وبها برج يسمونه برج « كولبريا » يصيدون على مقربة منه للرجان[١٨٤] ، وهو مكان رائع حسن البناء ، ويعلوه جبل عال يسمى بجبل « مونت ترابانى» حيث يسجى جثمان « أبى أنياس » .

رحلنا عن هذا المكان وأبحرنا حول الجزيرة متجهين ناحية الشرق حتى بلغنا «جرجنتى» ، ثم مضينا إلى مدينة سرقوسة اللطيفة التابعة للملكة أرجونة أخت مولانا الملك جوان، ثم جئنا بعدئذ إلى «قطالونيا» الواقعة على منحدرات جبل « إتنا » ثالث أبواب الجحيم ، فاستبضعنا وأوسقنا السفينة بالبضاعة، ثم أبحرنا بعد ثلاثة أيام ميممين شطر سردينيا ، لكن فاجأتنا في وسط البحر ريح شرقية قادمة من اليونان دفعتنا تجاه تونس ، فظللنا مبحرين يوماً وليلة حتى بلغنا في الساعة الثالثة من اليوم التالي رأس «بلانكو» وهي ميناء تونس، فألحت بي الرغبة في النزول إلى الشاطىء لمشاهدة البلدة فلم يأذن لي القائد بذلك لأنه كان قد اعتزم الرحيل لتوه .

* * *

وميناء تونس شديد الضحالة فلا تستطيع السفن دخولها ، من ثم فإنها تفرغ حمولتها فى قوارب خفيفـة ، وقد بقينا هناك يوماً واحداً ثم أبحرنا مدة يومين وليلتين حتى جئنا إلى جزيرة سردينية التابعة لملك أرجونة،ودخلنا ميناء « كاليارى » وهو مكان لطيف ؛ فأفرغنا به ما معنا من البضائع وأقمنا به يومين .

وهذه الجزيرة غير صحية هى ذات هواء سيء وماء ردىء . . .

(هنا ينتهى ما هو موجود من خبر الرحلة) .



حـــواشى

رحلة طافور



(١) كان دوق هنرى كونت لبلة أحد فرسان عصره البارزين ، ويظهر أن هجومه على جبل طارق قد وقع فى ختام سنة ١٤٣٥ حيث نستدل من كلام طافور فيما بعد (انظر الفصل الثانى ص ١١ حاشية رقم ٩) على موعد وصوله إلى جنوة ، وهناك كثير من المؤرخين يجعلون وفاة الدوق هنرى فى سنة ١٤٣٦ ، ويلاحظ أن خبر الثورة فى جنوة بلغ مسامع الملك جوان فى مستهل يناير ١٤٣٦ (انظر Cronica de Don Juan II. Ch. III.)

(٢) الملك الذى نسمع عنه كثيراً فى قصة طافور هذه هو خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ — ١٤٥٤ م) ، وقد تزوجت ابنته إزابلا الكاثوليكية من فرديناند صاحب أراجون .

(٣) المقصود بذلك ليلة عيد ميلاد ١٤٣٥ م .

(٤) لا نستطيع الجزم بمن كان الدوج فى ذلك الوقت أهو توماس فرجوزد ، أم أزنار دو جاركى ؟ .

(٥) صورت الأسطورة المتعلقة بنشأة جنوة على حوائط كنيسة سنت لورنزو ، انظر فى ذلك Carden: Geneo, (London, 1908), p. I.

(٦) كانت «السا كرو كونتيو» جزءاً من الأسلاب فى قيصرية عام ١١٠١م وهى مصنوعة من الزجاج ، وقد أرسلت إلى باريس وعرضت هناك سنة ١٨١٥ ، ونظراً لعدم العناية بها فقد تحطمت فى الطريق .

(٧) حدث فى سنة ١٣٧٣ أن قتل بعض التجار الجنوية مما أدى إلى إرسال أسطول إلى قبرص وجئ بالملك بطرس الثانى أسيراً مع عمه ، وفرضت عليها غرامة كبيرة ، وسلمت «فاماجوستا» إلى الجنوية كجزء من الفدية التى قررت لإطلاق سراح الملك ، أما الطفل الذى ولد فى جنوة فكان ابن العم وأصبح فيما بعد يعرف بالملك جانوس الثانى ومات سنة ١٤٣٢ ، ويلاحظ أن ابنه جانوس الثالث كان يتولى العرش وقت زيارة طافور لقبرص ، انظر Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History. pp. 226—228.

(٨) كان الملك إذ ذاك ـ أعني وقت زيارة طافور للجزيرة ـ هو جانوس الثالث ، وفي المراجع العربية المعاصرة كالسلوك للمقريزي وإنباء الغمر لابن حجر وعقد الجمان للعيني والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن إشارات متعددة لدفعه الجزية لمصر .

(٩) ليس من شك في أن جنوة بلغت مبلغاً كبيراً من النشاط التجاري في إبان هذه الفترة ، غير أن المؤامرات الداخلية الكثيرة كانت عائقاً يقف في سبيل ازدياد هذا النشاط إلى الحد الذي يمكنها به أن تكون منافسة للبندقية ، بل إن جنوة اضطرت تحت ظروف خاصة لقبول السيادة الأجنبية عليها فدانت للألمان ثم لأهل ميلانو ، أما الاضطرابات التي يشير إليها طافور في المتن والتي كان هو شاهد عيان لها فقد ترتبت على هزيمة ألفونسو صاحب أراجون على يد الجنوية وأسرهم إياه في معركة بحرية أمام بونزا Ponza وذلك في أغسطس ١٤٣٥ ، هذا وقد كان ألفونسو طالب بمملكة نابلي عند موت جوانا الثانية وبذلك دخلت جنوة ميدان النزاع ، ولما تم للجنوية أسر ملك أرجونة غضبوا إذ رأوا أسيرهم يؤخذ إلى ميلان حيث تلقاه دوقها بالترحاب وحالفه واتخذه صديقاً ، هـذا وقد وقعت الثورة التي يشير إليها طافور بالمتن في ديسمبر عام ١٤٣٥ ، وفيها لقي الحاكم « أوبزينو » مصرعه ذبحاً ، راجع Carden: Geneo, pp. 89 seq.

(١٠) كان الكونت Francesco Sforza (١٤٠١ — ١٤٦٦) في هذا الوقت بالذات مشغولاً بالحرب ، إذ حارب في صف ميلان ضد البندقية ، أما الآن فكان يحارب من أجل البابا والبندقية وفلورنسة ضد ميلان .

(١١) كان نيكولا Piccinino (١٣٨٦ — ١٤٤٤) واحداً من أفظع القاتلين وقطاع الطرق وأقساهم قلباً .

(١٢) سترد الإشارة فيما بعد بالتفصيل إلى فلورنسة وذلك في الفصل الثامن والعشرين من رحلة طافور هذه .

(١٣) المقصود بذلك البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) الذي كان قد فر من رومة إلى فلورنسة في يونيو ١٤٣٤ وذلك عقب مقاومته لقرارات مجمع « بازل » المنعقد في سنة ١٤٣١ ، وكان يوجين الرابع هذا قد أمر بفض جلسات

مجمع بازل رغم معارضة أعضائه الذين اعتبروا جلساتهم مستمرة ومفتوحة ، وقد عاش البابا ثمانى سنوات فى المنفى الإرادى الذى اختاره لنفسه ، ووجد أن خير وسيلة لمحاربة مجمع بازل هو عقد مجمع آخر فى Ferrara عام ١٤٣٧ ، وقد اتخذت فى هذا المجمع الأخير خطوة هامة هى بحث محاولة القضاء على الخلافات القائمة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، راجع فى ذلك :

Gregorovious : Rome in the Middle Ages. (Eng. Translation). Vol. VII, pt. I, p. 45.; Lodge : The Close of the Middle Ages.

(١٤) كان حاكمها إذ ذاك هو نقولا الثانى (١٣٨٣ — ١٤٤١) ويعتبر المركيز الثانى عشر من حكامها ، انظر أيضاً فيما بعد الفصل الحادي والعشرين من هذه الترجمة العربية .

(١٥) انظر ما كتبه طافور تفصيلا عن البندقية فى الفصل العشرين من هذه الرحلة .

(١٦) كان خان السمكة هذا من أشهر الخانات فى العصور الوسطى إبان هذه الحقبة .

(١٧) فيما يتعلق بروما عام ١٤٣٦م انظر Gregorovious :Rome in the Middle Ages, VII, pt. I, p 89 وقارن الملاحظات التى جاء بها طافور فى هذا الفصل عن الحيوانات الضارية فى روما بما جاء فى الكتاب المذكور (ج ٦ ق ٢ ص ٦١٨) حيث يشير إلى أن القوم قتلوا خمسة من الذئاب الكبيرة عام ١٤١١ كانت تسرح فى حدائق الفاتيكان .

(١٨) فيما يتعلق بكنيسة بطرس راجع: Marucchi : Basiliques et Eglises de Rome (1909), p. 110 وما تضمنه من الرسم والخرائط ، أما أساس الكنيسة الحالية الموجودة الآن فقد وضع فى سنة ١٥٠٦ .

(١٩) كان الذى وضع المسلة فى المكان الموجودة به الآن هو Sixtus V فى سنة ١٥٨٦، وكانت العقيدة الشائعة بين الحجاج هى أن كل من يسير زحفاً على ركبتيه تحت هذه المسلة تجب خطاياه وتغفر ذنوبه ، انظر فى ذلك: F.M. Nichols, The Marvels of Rome, Lond., (1899). pp. 71—78 & notes.

(٢٠) الأرجح أن هذا إشارة إلى تمثال ماركس أوريليوس الذى كان يقوم إذ ذاك فى مواجهة الكنيسة ، انظر فى هذا E. Rodochanachi : The Roman Capitol (Eng. Trans.) p.p. 131 ff.

(٢١) فيما يتعلق بالروايات والأساطير المتعددة المتعلقة بهذا الأمر راجع F.M. Nichols : The Marvels of Rome (1889) pp. 62, 102; G. Mc. N. Rushforth : in The Journal of Roman Studies (1919), p. 14.

(٢٢) فيما يتعلق بأسطورة أوجستوس والتنبؤ بولادة المسيح ، انظر : Nichols: The Marvels of Rome, pp. 35,90.

(٢٣) يقصد بذلك البانثيون .

(٢٤) Nichols : op. cit. p. 11.

(٢٥) يرجع قيام الكنيسة الموجودة حالياً وهى المعروفة بكنيسة S. Paolo alle Tre Fontane إلى سنة ١٥٦٠ م ، أما طافور فيشير إلى كنيسة S. Anastasios alle Tre Fontane التى أهديت عام ١١٩٠ إلى القديس برنارد الذى أوجد هناك ديراً للرهبان للبيض .

(٢٦) .لا نعرف مصدراً آخرلهذين النصين .

(٢٧) هو براشيو دا مونتانى Braccio de Montane (١٣٦٨ — ١٤٢٤) وكان أحد المخاطرين الأشقياء وخصماً عنيفاً لسفورزا .

(٢٨) كان الكونت حينذاك هو Guidi Antonio da Montefeltro ابن أنطونيو كونت أوربينو ومونتيفلترو ،وقد خلفه فى عام ١٤٠٤ ، وفيما يتعلق بكلام طافور حول معموديته راجع : Dennistoun : Memoirs of the Dukes of Urbino (1851), I. pp. 38 seq.

(٢٩) أنظر ما يلى ص ١٦٢ وما بعدها .

(٣٠) عرف ملك نابلى Ladislaus بالشجاعة والمقدرة (١٣٨٦ — ١٤١٤م) وقد باع مدينة زارا إلى البنادقة عام ١٤٠٩ بمبلغ مائة ألف أفلورنتى، ويلاحظ أن كورفو مع بقية الجزائر الأيونية قد آلت إلى البندقية فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٥ كجزء من نصيبهم فى غنائم هذه الحرب وفى أثناء توزيع تركة الإمبراطورية البيزنطية ،علماً بأن سيطرة البنادقة التامة لم تحدث إلا سنة ١٣٦٨ .

(٣١) راجع وصف الجزيرة والدير فى Fabri . op. cit. I, p. 184.

(٣٢) ورد وصف مطوّل لودون فى : M. M. Newett ; Canon Pietro Casola's Pilgrimage (1494), Manchester, 1907, pp. 191 ff ويلاحظ أن المورة آلت فى سنة ١٢٠٤ إلى البندقية باعتبارها جزءاً من نصيبها فى تركة الإمبراطورية البيزنطية . وقد نجح الترك فى الاستيلاء عليها عام ١٥٠٠ م .

(٣٣) Cf. W. Miller: Essays on the Latin Orient (Cambridge, 1921) pp. 231 ff.

(٣٤) آلت جزيرة إقريطش إلى البنادقة سنة ١٢٠٤ ، غير أن الأهالى لم يرضخوا لهذه الأيلولة فكانت الثورات دائمة الشبوب ضد البنادقة ، ويظهر أن طافور يشير إلى ثورة ١٣٦٢ ، انظر عنها W. Miller ; op. cit. pp. 183 seq.

(٣٥) نجح فرسان الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا فى الاستيلاء على رودس عام ١٣٠٩ واستحوذوا على أملاك الفرسان الداوية سنة ١٣١٢ ، ولكنهم أخرجوا من رودس عام ١٥٢٢ م ، وسنرى طافور يعود فيما بعد إلى رودس حيث يصف انتخاب كبير الفرسان أما Collachium التى يقال إنها مشتقة من الكلمة اللاتينية Colligere فكانت جزءاً من المدينة التى تتجمع فيها مبانى الفرسان الرئيسية والتى يقيم بها الفرسان، انظر خريطة رقم ٢٢ فى De Balabre ; Rhodes of the Knights, Oxford, 1908, p. 96

(٣٦) فيما يتعلق بمهاجمة المماليك لحصن قشتيل الروج بعد ذلك ببضع سنوات راجع: H. Habashi : Egyptian Expeditions Against Castelrosso and Rhodes (A.F.A.A.S.U., 1961)

(٣٧) فيما يتعلق بهذه الناحية راجع E. S. Bates; Touring in 1600 (Lond.), 1911, p. 310, Fabri. op. cit., W. Davies . Bernard von Breydenbach & his Journey to the Holy Land.

(٣٨) عرّفها ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع (نشر على محمد البجاوى) ٢/٥٩٧ بأنها من قرى بيت المقدس .

(٣٩) كان أحد قواد الحملة الصليبية الأولى ونجح فى الوصول إلى بيت المقدس حيث كان انتزاعه من المسلمين على يده ، كما اختاره زملاؤه فى السلاح حينذاك أول ملك لبيت المقدس ، لكنه تخلى عن هذا اللقب تديناً ورفض أن يضع التاج

على مفرقه فى مكان وضع السيد المسيح عليه السلام الشوك فيه على هامته، وا كتفى بأن يسمى « محامى القبر المقدس » .

(٤٠) على الرغم من مألوف العادة فى كتابتها فى العربية بالسين، وورودها على هذه الصورة فى التوراة ، إلا أننا آثرنا كتابتها بالصاد ، حيث نص على ذلك ابن عبد الحق البغدادى فى مراصد الاطلاع ٩١١/٢ وقال فى شأنها « إنها بليدة قرب بيت لحم من نواحى بيت المقدس » » .

(٤١) وذلك إشارة إلى قصة شك توما فى قيام المسيح .

(٤٢) كانت العادة قد جرت بفتح كنيسة القبر المقدس مرتين فقط فى السنة ، ويبقى الحراس داخل الكنيسة حتى وصول حجاج الموسم التالى (انظر Fabri: op. cit, 428) ويتناولون طعامهم مما يعطونه من فتحات فى الباب ، وقد ترك لنا فابرى وصفاً رائعاً لليلة قضاها فى القبر المقدس . ويمكن للقارئ إذا أراد الوقوف على وصف الكنيسة والأحرام المقدسة مراجعة G. Jeffery: A Brief Description of the Holy Sepulchre (Cambridge: 1919).

(٤٣) جاء بعد هذا ما يشير إلى نص القبرية ولكن لم يرد هذا النص وكذلك الحال فى القبرية على شاهد أخيه بلدوين .

(٤٤) يتفق ابن عبد الحق البغدادى (مراصد الاطلاع ٢٣٨/١) مع طافور فى وصف صغر بيت لحم حيث يقول عنها « بليد قرب البيت المقدس » ثم يعقب على ذلك قائلا « المشهور أن عيسى عليه السلام ولد به » .

(٤٥) كانت ترجمته إياه فى القرن الرابع للميلاد وهى التى أقرتها الكنيسة الرومانية وسمتها Lectio Volgata

(٤٦) نص العبارة مبارك الربّ إله إسرائيل .

(٤٧) يوجد وصف لفوا كه البحر الميت فى Curzon : Visits to Monasteries in the Levant (ed. by D. G. Hogarth, Oxford, 1916), p. 228.

(٤٨) جاء فى تعريفها فى مراصد الاطلاع ٦٣/١ أنها كلمة عبرانية : مدينة الجبارين فى الغور .

(٤٩) يعنى السيد الفرنسى القتيل .

(٥٠) يقول ماندفيل إنه رآه من داخله ، كما وصفه المؤرخ وليم الصورى ، والمقصود بذلك مسجد عمر .

(٥١) فى وصف هذا الاحتفال راجع Rohricht : Deustche Pilgerreisen, p. 21, & Favine, Theatre of Honour, p. 383.

(٥٢) قال مراصد الاطلاع ١٣٤٨/٣ فى شأنها « قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا ، منها اشتق اسم النصارى لأن المسيح سكنها فنسب إليها » .

(٥٣) راجع فى هذا الشأن A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages,

(٥٤) انظر ما سبق ص ١٠ حاشية رقم ٧ .

(٥٥) وتسمى Ines أو Agnes of Lusignan وهى أخت جانوس الثانى ملك قبرص .

(٥٦) وهو جانوس الثالث بن جانوس الثانى ، وقد ولد عام ١٤١٥ م وتولى بعد أبيه العرش سنة ١٤٣٢ ، وكان رجلا ضعيفاً فاسداً ، وحينما وافاه الموت عام ١٤٥٨ كان البيت الملكى فى الواقع قد انقرض ، ولم يترك من الأبناء الشرعيين سوى فتاة اسمها شارلوت خلفته على العرش ، ولكن الأمر إذ ذاك كان قد أصبح منازعة بين البنادقة والجنويين فى أيهما يملك الجزيرة التى استولت عليها البندقية تماماً عام ١٤٨٩ وظلت فى حوزتها مدة اثنتين وثمانين سنة ضد الأتراك العثمانيين ، أما الكردينال فهو Hugo de Lusignian أخو جانوس الثانى .

(٥٧) يصف أحد مشاهدى العيان (Monstrelet, ch. XXXIX) قيد الأسرى كل اثنين معاً ، وقد أركبوا الملك بغلاً .

(٥٨) يقول مونستريليه (شرحه) إن هذا الفارس اسمه Sir Galeran Savary وأنه ألقى بنفسه على الملك صائحاً بالعربية « هذا هو الملك » ، ويلاحظ أن جانوس الثانى قد نهب الساحل المصرى وأثار غضب السلطان المملوكى الذى غزا الجزيرة عام ١٤٢٦ م وأسر الملك واستمر أسره مدة خمسة عشر شهراً ، ثم فك أسره بعد دفع جزية كبيرة وعاد محطم القلب حيث مات سنة ١٤٣٢ .

(٥٩) فيما يتعلق باستعمال الحمام الزاجل انظر :

Mario Esposito : Pilgrimage of Symon Semeonis (in) Geogr. Journal, Nov. 1917, p. 340; Schiltberger : Bondage and Travels (Hakluyt Society) p. 58, and Rohricht : op. cit. p. 24.

(٦٠) يعنى بذلك مصر القديمة الحالية .

(٦١) Schiltberger : Bondage and Travels, p. 61.

(٦٢) المطرية قرب القاهرة « عندها الموضع الذى فيه شجر البلسان الذى يستخرج منه الدهن وليس ذلك فى موضع آخر » ، انظر مراصد الاطلاع ١٢٨٤/٣ .

(٦٣) أطال Mendville, Ch. Vii فى وصف البلسم وتجارته التى يحتكرها المسلمون لبيعه لجماعات النصارى .

(٦٤) فيما يتعلق بهذه التسمية للأهرام انظر : Esposito : The Pilgrimage of Symon Symeonis (in) Geogr. Journal, 1918, Febr., p. 87.

(٦٥) مكيال الخروبة يعادل ٤ جالونات .

(٦٦) لقد رأى سيمونيز هو الآخر الفيلة وزرافة بالقاهرة ، انظر :

Geogr. Journ., Febr., 1918, p. 86.

(٦٧) أى ستة عشر قدماً .

(٦٨) لقد شاهد كيرزون نفس الأمر لكن بعد أربعمائة سنة ، انظر :

Visits to the Monasteries in the Levant, p. 98.

(٦٩) كان اللعب بالكرة من الألعاب الحبيبة إلى سلاطين مصر المملوكية ، وهى المعروفة الآن بالبولو .

(٧٠) كانت الرحلة إلى جبل سيناء تجربة قاسية خطيرة ، قل أن يكررها الحاج مرة أخرى ، أما فيما يتعلق بالرحالة المتأخرين فانظر: Bates : Touring in 1600 (Lond., 1911) pp. 223, Röhricht : Deutsche Pilgerreisen, p. 23 ، ويوجد وصف رائع للدير في وقتنا الحاضر ومكتبته في :
A. Mary R. Dobson : Mount Sinai, a Modern Pilgrimage (Lond.,1925).
ولقد ظلت تجارة الموميات حتى القرن الثامن عشر .

(٧١) كان من البلاد التي زارها نيكولودي كونتي بلاد فارس وبعض أقاليم هندستان الداخلية وجزيرة سيلان وسومطرة وجاوة ، ثم رحل إلى الصين ، فلما كان في طريق عودته سار مصاقباً لساحل الحبشة وركب البحر الأحمر حتى بلغ القاهرة حيث ماتت زوجته وأولاده وعاد إلى البندقية بعد غيبة عدة أعوام عنها ، وراح يلتمس غفران البابا له على تركه ملته ، فطلب إليه البابا أن يقص خبر رحلاته على سكرتيره الخاص Poggio Bracciolini الذي كتبها باللغة اللاتينية، وقد أصدرت جمعية هاكلويت عام ١٨٥٧ ترجمتها الإنجليزية بعنوان India in the 15th Century ، على أن المقارنة بينها وبين ما رواه طافور في المتن هنا تشير إلى أن ما رواه نيكولودي كونتي لطافور يتضمن أموراً خلت منها نسخة « بوجو » .

(٧٢) هو ملك الهند المسيحي الخرافي ، وقد وردت الإشارة إليه أول مرة في كتاب لأوتو أسقف فريزنجن سنة ١١٤٥ م ، وفي عام ١١٦٥م انتشر في أوربة خطاب قيل إنه موجه من « بريستر جون » إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل ، ويختفي بريستر جون بعدئذ من الهند ليظهر في الحبشة ، انظر : F. Zarnche :
Der Priester Johannes, 1876—79; Yule: Cathay and the Way Thither, (Hakluyt Society).

(٧٣) لم نقف لهذه الطائفة على خبر .

(٧٤) انظر حاشية رقم ٧٢ .

(٧٥) وتعرف قمته « بقمة آدم » حيث يقال إن قبره موجود بها وهي شديدة الانحدار لا يستطاع تسلقها إلا بالسلاسل ، انظر :

C.R. Beazley: The Dawn of Modern Geography, III, pp. 137, 269, 309.

(٧٦) شاهد ابن بطوطة مثل هذا الأمر فى بلاط أحد الملوك التتار ، انظر أيضاً
Yule : Marco Polo (3rd ed.) II. p 849.

(٧٧) فيما يتعلق بعرفة طافور السابقة بقبرص انظر ص ٥٤ وما بعدها.

(٧٨) تزوج الملك جانوس الثانى مرتين إحداهما بابنة مركيز دى مونتفرات وثانيهما بهيلين باليولوجس ابنة تيودور التى أنجب منها ابنة واحدة هى شارلوت التى خلفته على العرش .

(٧٩) انظر ما سبق ص١١ .

(٨٠) اختير أنطون فلوفيان الأراجونى الجنسية عام ١٤٢١ رئيساً للفرسان الاسبتارية ومات فى التاسع من أكتوبر ١٤٣٧ ، وانظر أيضاً : : De Balabre
Rhodes of the Knights. p. 19.

(٨١) وقع الاختيار على « جان دى لاستيك » الذى مات يوم ١٧ أغسطس سنة ١٤٥٤ .

(٨٢) هو Louis de Amaral y Costa الذى أرسله جون ملك البرتغال إلى مجمع بازل ، وكان هذا الأسقف فى تلك الآونة فى الشرق فى سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى ؛ كما أنه كان أحد المبعوثين الذين أسروا — مع طافور — قرب مينز كما سيرد فيما بعد فى الفصل الخامس والعشرين .

(٨٣) كان هذا رسالة السيد الأعظم رئيس الفرسان الصادرة عام ١٤٤٥ م يطلب فيها المال والرجال للوقوف ضد الاستعدادات التى أعدها السلطان جقمق لمهاجمة الجزيرة .

(٨٤) انظر ص ١٢٤ فيما بعد .

(٨٥) ظلت جنوة تحكم خيوس من سنة ١٣٤٦ حتى ١٥٦٦م ، وكان يشرف على إدارتها هيئة تسمى Maona ، ويطلق على أعضائها Maonesi ، انظر فى ذلك
Miller : Essays on the Latin Orient, p. 296.

(٨٦) بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ استقر الجنويةفى « بيريه » حيث فرضوا قوانينهم وولاتهم وأخذوا من هناك يشرفون على تجارة البحر الأسود ،

وكان أهم مركز فى « كافا » التى زارها طافور فيما بعد ، انظر ص١٣٣ وما بعدها من هذه الترجمة وراجع أيضاً : Heyd : Hist. du Commerce du Levant, t. I, p 436 ويوجد وصف لميناء بيرة فى Clavijo ; Embasy to Samarcand (1403—6), pp. 47—8. هذا وقد اختفت هذه الجالية مسع الإمبراطورية ، انظر ص ١٥٤ .

(٨٧) كان هذا هو الإمبراطور الذى نفاه أخوه ويذكر طافور ص ١٣٢ أنه قابل الإمبراطور المغتصب فى طرابيزون .

(٨٨) غير معروف على وجه التحقيق تاريخ قيام هذه الجماعة من الفرسان ، لكن يظهر أنه أنشأها جوان الثانى ملك قشتالة عام ١٤٢٠ لجــذب الأشراف والأفصال للانخراط تحت رايته ، وكان أعضاؤها يقطعون على أنفسهم اليمين بالدفاع عن المملكة ضد المسلمين ،والطاعة حتى الموت فى سبيل الدين .

(٨٩) أراد الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوجس — وقد هدده الأتراك — أن يحوّل المنازعات التى أثارها مؤتمر بازل لصالحه ، ولقد رحل الإمبراطور إلى أوربة يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ ، وكان طافور شاهد عيان لرحيله حيث لقيه فى فرارا مرة ثانية (ص ١٨٣) ، وقد رفض الشعب اليونانى الوحــدة المذهبية مع كنيسة روما،وكان موت الإمبراطور سنة ١٤٤٨ حيث سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك بعد خمس سنوات ، راجع فى هذا : Cambridge Medieval History; IV, pp. 621 ff.

(٩٠) فى سنة ١٢٠٤ قام أسطول صليبى من الفرنسيين والألمان والبنادقــة وانحرف عن وجهته الصليبية واستولى على القسطنطينية التى استردها اليونان عام ١٢٦١ .

(٩١) سيرد وصف الجياد والأعمدة فيما بعد ص ١٧٢ .

(٩٢) بعد سقوط القسطنطينية تجمّع اليونان فى نيقية وقد نجح ميخائيل باليولوجس الذى تزوج من إحدى أميرات البيت الإمبراطورى فى استرداد

القسطنطينية يوم ١٥ أغسطس ١٢٦١ ووضع التاج على رأسه فى كنيسة القديسة صوفيا ، انظر Cambridge Medieval History ,IV, P. 427 ff

(٩٣) سمى بعدئذ قسطنطين الحادى عشر باليولوجس ، وقدمات بعد الاستيلاء على القسطنطينية .

(٩٤) كان هذا يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ .

(٩٥) كانت طرابيزون إذ ذاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المستقلة التى أقيمت فى أعقاب الفتح اللاتينى للقسطنطينية عام ١٢٠٤م ، وكان الإمبراطور يوحنا الرابع كومنين قد اغتال أباه ، والمعتقد أن الأب ألكسيوس الرابع قد ظل على قيد الحياة حتى عام ١٤٤٦م ، على حين أنه يستفاد من رواية طافور على أنه قد مات سنة ١٤٣٧ أو فى مستهل ١٤٣٨ ، ولذلك فإن ماذكره Finlay: Greece, Vol .IV p. 399 يحتاج إلى مراجعة وتصحيح ، ويوافق وليم ميللر على ما جاء فى طافور ، أنظر English Historical Review, 1923.p. 409 ، هذا ويلاحظ أن السلطان العثمانى محمداً الفاتح قد نجح فى سنة ١٤٦١ فى ضم طرابيزون للأملاك العثمانية ، ويمكن للقارىء أن يطالع وصفا لها عام ١٤٠٤ فى Clavigo: Embassy to Samarcand (Hakluyt Society, p.92)

(٩٦) كانت كافا تشغل مكانة أكبر من أن تقتصر على أن تكون مركزاً للتجارة الجنوية فى الشرق ، إذا كانت هى و« غلطة » العاصمة التجارية للشرق اللاتينى ، وربما أمكن القول بأن استقرار الجنوية هناك قد تم قبل عام ١٢٠٤م ولكن وجود الجالية الكبيرة قد نجم عن استعادة اليونان لبلادهم عام ١٢٦١ ، ونستدل من وصف Schiltberger (حوالى عام ١٤٢٠ م) على أن كافا كانت محاطة بفصيل مزدوج وبها ستة آلاف دار فى الفصيل الضيق ، وأربعون ألف دار فى الفصيل الأوسع ، وكانت قاعدة أرشية بعثة تبشيرية كبرى وكان بها ستة أنواع من الملل والمذاهب ، انظر: Schiltberger Bondage and Travels, Hakluyt Society, PP. 49-50; Beazley: Dawn of Modern Geography, III, PP. 571 477, II, P. 458.

(٩٧) كانت كلتا Tana ، Ryxabaque تطلقان على بحر أزوف، أما بحر باكو فهو بحر قزوين .

(٩٨) قارن ذلك بما كتبه شلتبرجر (ص ٤٨) حيث يقول « إنهم يأخذون قطعة من اللحم ويقطعونها إلى شرائح ، ويضعونها تحت السرج الذي يركبون عليه ، ويأكلونها حين يحسون بالجوع ، ولكنهم يملحونها أولا، ويظنون أنها بذلك لاتفسد لأنها تصبح جافة بسبب دفء الحصان ، وتصبح لينة تحت السرج من جراء الركوب » .

(٩٩) كان نهر الدون واحداً من نقط البداية الكبرى للطرق التجارية إلى الصين ، انظر في ذلك C. R. Beazley : op. cit. Vol. II, pp. 465 ff.

(١٠٠) خبر هذه السفارة (١٤٠٣ — ١٤٠٦ م) وارد في رحلة كونزالز دى كلافيجو في ترجمة سير كليمنس مرخام ، عام ١٨٥٩ .

(١٠١) فيما يتعلق بهذه الطائفة انظر W. R. Lethaby & H. Swainson : Santa Sophia, 1896, PP. 19,196 ويقول كلافيجو إن عشرة من الأغربة كانت تستطيع السير هناك (ص٣٨) ، وهذا المكيال يعادل الواحد منه ٥١٦ لتراً .

(١٠٢) هذا في الواقع هو تمثال جستنيان الذي حطمته صاعقة عام ١٤٩٢ م، ويوجد رسم رائع له في مكتبة سراى ، وقد نقله J. Ebersolt : Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, Paris, 1919 4. 80. ولقد نجح « بيرجيل P. Gilles » المؤلف والعالم الطبيعي الذي أرسله فرنسيس الأول ملك فرنسا عام ١٥٤٤ إلى الشرق في العثور على أجزاء من هذا التمثال ، وهي أجزاء ضخمة ، فكانت الساق تتجاوز قامة الرجل ، كما أن طول الأنف كان تسع بوصات.

(١٠٣) رأى كلافيجو (ص٤٠٣) هذه الصورة في كنيسة القديسة ماريا ديستريا ويقول إنها شديدة الثقل حتى أنها كانت تتطلب أربعة رجال لحملها فيما بينهم بواسطة حبال من الجلد انظر Embassy to Samarcand P.44. وقد تحطمت هذه الصورة حين دخل الأتراك المدينة ، إذ مزقها الإنكشارية إلى

قطع صغيرة للهو بها ؛ انظر W. H. Hutton: Constantin ople (Med. Towns Series) P.P. 268,266 ويبدو أن الصورة كانت تحفظ — بين وقت آخر — في مختلف الكنائس .

(١٠٤) الأرجح أن هذه هي كنيسة « بلاشيرن » وقد رآها أطلالاً « جيلز » عام ١٥٤٤م انظر Ebersolt : Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, p. 81.

(١٠٥) كنيسة « المسيح ضابط الكل » Pantokrator شيدها يوحنا كومنين وزوجته إيرين التي توفيت سنة ١١٢٤ ، وهي في الواقع ثلاث كنائس بعضها داخل بعض ، أما الوسطى منها فكانت ضريح آل كومنين .

(١٠٦) يعني بذلك الهبدروم وعمود البرنت . وقد عمد قسطنطين إلى نقل العمود من دلفي ، وكان العمود يحمل في بداية إقامته الركيزة الثلاثية الذهبية التي كرسها اليونان لأبولو بعد انتصارهم على أجزرسيس في بلاتاي Platea ، ويمكن مطالعة أسماء المدن المدونة على أسطوانتها ، أما الرءوس الثلاثة فقد اختفت منذ زمن بعيد ، وواحدة منها في التحف ، أما فيما يتعلق بتاريخ العمود والنقوش فانظر Pausanias's Description of Greece, Vol. V, pp. 299 ff.

(١٠٧) لا نعرف على وجه التدقيق أي تمثال يشير إليه طافور ولا القصة الموجودة في كتابات الرحالة الآخرين .

(١٠٨) من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى الأسطورة المتعلقة بحمامات Zeuxippus التي كانت ملاصقة للقصر وللهبدروم .

(١٠٩) جاء تيودوسيوس بهذه المسلة من هليوبوليس وظلت باقية في مكانها الذى وضعت فيه .

(١١٠) لم يبق من المباني التي كانت تؤلف القصر الإمبراطوري سوى بعض الأطلال ، ولا شك في أن الإشارة إلى المكتبة ذات أهمية خاصة وذلك لوجود نقاش كثير حول مكانها .

(١١١) ضرب الترك في عام ١٤٢٢ حصاراً حولها استمر من يونيو إلى أغسطس

لكنهم ما لبثوا أن رفعوه ، وحينذاك عقد الإمبراطور السلم لكن على شرط قيامه بدفع جزية ضخمة ، وتخليه لهم عن كثير من الأماكن الواقعة على البحر الأسود ، انظر Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 689, 60.

(١١٢) تشغل بروصة السفوح السفلى من جبل أوليمبس ميزيان ، ويقال إنها تأسست بناء على إشارة من هانيبال ، وقد استولى عليها الترك عام ١٣٢٧ بعد حصار استمر عشرة أعوام وبقيت عاصمة لهم حتى انتقل مراد الأول إلى أدرنة .

(١١٣) وتعرف اليوم بأزميد ، وقد جاء فى لى استرانج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) ص ١٩٠ أن العرب الجغرافيين الأوائل عرفوها باسم « نقموديا » وهى تعريب لكلمة Nicomedia ، وسماها الترك « أزنكميد » .

(١١٤) فيما يتعلق بيبره راجع ما سبق ص ١١٥ .

(١١٥) استردت سالونيكا بعد كثير من الأحداث وأخذت من البنادقة عام ١٤٣٠ ، وقد بيع سبعة آلاف من سكانها رقيقاً ، انظر : Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 690, W. Miller : Essays on the Latin Orient, 1921, pp. 279 ff.

(١١٦) انظر ما سبق ص ٣٥ .

(١١٧) كان تاريخ عودة طافور إلى البندقية هو ٢٢ مايو ١٤٣٨ .

(١١٨) يمكن للقارئ أن يستزيد عن هذا الخبر والأحداث التى أعقبته فى : Hazlitt: Venetian Republic, 1 st ed. I, p. 420 أما البابا فهو اسكندر الثالث ، وتذهب الرواية إلى أنه قدم إلى البندقية متنكراً عام ١١١٧ م ومضى إلى دير كريتا Carita حيث استقبلوه كقسيس بسيط أو — حسب رواية أخرى — مساعد طاه ، ويقال إن الذى عرفه هو رجل فرنسى اسمه Comodo ، ويلاحظ أنه ليس ثم أساس تاريخى لهذه القصة ، انظر : G. Tassini : Curiosita Veneziane, 4 th. ed. Venice, 1887. p. 148

(م ١٨ - طافور)

وقد حدثت هذه المعركة البحرية يوم ٢٦ مايو ١١٧٧ ، وكان اندحار الألمان فيها نهائياً ، وتشير ثلاث لوحات من الرخام الأحمر فى سقيفة باب كنيسة القديس مرقص إلى البقعة التى ركع فيها فردريك وأنهضه البابا وقد أغرورقت عيناه بدموع الفرح ومنحه قبلة السلام ، أما القصة التى يرويها طافور ويشير فيها إلى كيفية وضع البابا قدمه على رقبة الإمبراطور -وهو منبطح على الأرض- فتأخرة تاريخياً ، والصورة لا تزال موجودة فى صالة الاحتفالات الكبرى بقصر الدوج .

(١١٩) من المحتمل أن تكون الجياد البرونزية الشهيرة هى التى علت أقواس النصر لتكريم نيرون ومن بعده تراجان ، وقد بعث بها قسطنطين إلى القسطنطينية حينما جاء بها الدوج داندولو إلى البندقية عام ١٢٠٤ م .

(١٢٠) بدىء فى إقامة الـ Campanile عام ٨٨٨ م ثم أعيد بناؤه فى سنتى ١١٤٨ ، ١٣٢٩ م ، وقد سقط يوم ١٤ يوليو ١٩٠٢ ثم جدد مرة أخرى .

(١٢١) شيد العمودان المصنوعان من الجرانيت عام ١١٨٠ ، وكان أحدهما يحمل أسد القديس مرقص ، والآخر أسد القديس تيودور — وليس القديس جورج — على تمساح وهو حامى الجمهورية القديم قبل وصول رفات القديس مرقص من مصر عام ٨٢٧ ، وقد ظل العمودان ملقيين على الأرض بضعة أعوام حتى قام مهندس لباردى اسمه نيكولو برفعهما وحفظهما ، انظر Hazlit ; Venetian Repwblic , I , P. 483 .

(١٢٢) انظر ما سبق ص ٦١ .

(١٢٣) الإشارة هنا إلى المؤامرة الخائنة التى دبرها Marino Faliero الذى اختير دوجا عام ١٣٥٤ وهو فى السادسة والسبعين من عمره ، ويلاحظ أن طافور واسع الخيال فى هذه الناحية ، إذ أن الدوج أعدم يوم ١٧ إبريل ١٣٢٥ ، راجع :
Hazlit ; op. cit. vol, III pp. 145 ff.

(١٢٤) ولد فرانشسكو باسونى Francesco Bussone فى قرية صغيرة اسمها كرمانيولا Carmagnola فى إقليم تورين عام ١٣٩٠ ، وقد ثبتت عليه جريمة القيام بأعمال خائنة مع الفيكونتى وأعدم يوم ٥ مايو ١٤٣٢ .

(١٢٥) تأسست بيتيا فى سنة ١٣٤٦ لتلقى اللقطاء ، انظر : Taissini op. cit. p. 559.

(١٢٦) استمرت الحرب بين البندقية وميلان لمدة سنوات عدة ، ولم تتوقف إلا بموت فيليبو ماريا فيكونتى عام ١٤٤٧ ، وعلى أية حال فقد كان هو الخاسر ، إذ ثارت جنوة ، ومدت البندقية حدودها غرباً .

(١٢٧) نوع من القوارب الخفيفة ، محدودب الشكل أشبه بالسلحفاة .

(١٢٨) أصدر البابا يوجين قراراً بفض مجمع بازل واستدعى مجمعاً آخر فى « فرارا » فى يناير ١٤٣٨ ، ثم انتقل بعد عام واحد إلى فلورنسة ، وقد قبل الإمبراطور البيزنطى اتحاد الكنيستين اليونانية والرومانية لكن اليونان رفضوا هذا الأمر .

(١٢٩) هو نيكولو الثالث مركيز فرارا الثانى عشر (١٣٨٣ - ١٤٤١) وكان إذ ذاك فى الخامسة والخمسين من عمره ، ويبدو أن طافور شديد الاهتمام بمسألة السن ، أنظر ما سبق ص ٦٥ والفصل السادس والعشرين ص ٢٣٢ . وليس من اليسير معرفة الإشارة إلى الجلالون وإن كان Diego de Valera : Bronica de Espana Abreviada, Pt. IV, cap. 9 يشير إلى هذا الموضوع حيث كتب يقول « إن مؤرخى أسبانيا وفرنسا يشيرون إليها (أى إلى الهزيمة فى Roncesvalles) بأنها حدثت بسبب كونت فرنسى اسمه Galalon الذى لا يزال بعض ذريته يعيشون فى فرنسا ، وإذا حدث أن تناول أحدهم الطعام مع آخرين وضع الخبز مقلوباً أمامه على المائدة » . وجالالون (Galalon) هو الخائن فى أغنية رولاند .

(١٣٠) يبدو أن البينة المعاصرة لهذه المأساة قد فقدت ، ومن ثم لم يعد من اليسير التفرقة بين الحقيقة والخيال ، ولقد ماتت زوجة نيكولو الأولى عام ١٣٩٧م ، ثم عاد فتزوج مرة ثانية سنة ١٤١٨ م من Parisina Malatesta ، وقد أصبح Ugo إبن زوجها عشيقاً لها ، وقد أمسك الخاطئان ليلة ٢٠ مايو ١٤٢٥ وألقى بهما فى السجن وأعدما فى اليوم التالى ، وقد أصبح للمركيز كثير من الأبناء غير الشرعيين بعد موت « باريزينا » ، ثم كانت زوجته الثالثة Ricciarda de Saluzzio سنة ١٤٣١ ، وقد اشترط عليها أن يخلفه من بعده ابنه « ليونيللو Leonello » المولود عام ١٤٠٧ مهما رزق منها من صبية ، وقد أعلن شرعيته منه البابا مارتن الخامس ، أنظر Gardner : Dukes and Poets of Ferrara, 1904, PP. 37 ff.

(١٣١) ربما كانت الإشارة هنا يقصد بها أنها كانت ذات قدمين كبيرين .

(١٣٢) إلتق طافور بنيكولا بنشينينو من قبل ، أنظر ص٣٣ ، حاشية قم ١١ .

(١٣٣) كان فيليبو ماريا فيكونق بن جيان جالزو G. Galeazzo وقد تولى العرش بعد موت أخيه عام ١٤١٢م وكان آخر حكام بيت فيكونق الطغاة وظل يحكم مدة خمس وثلاثين سنة ، والمعروف عنه أنه كان ذا طلعة بالغة القبح وأنه كان شديد الإحساس بهذا العيب، ومن ثم فإن قلما كان يظهر للناس ، وأخذ نفسه بالعيش في حجرات سرية ، وكان إذا خرج أبى أن يحييه الناس في الشوارع .

(١٣٤) لم يكن لفيليبو ماريا ولى عهد يخلفه ، أما ابنته بيانكا Blanca فقد تزوجت ١٤٤١ من فرنشسكو سفورزا الذى اعتلى عرش الدوقية بعد فترة قصيرة من الحكم الجمهورى سنة ١٤٥٠ .

(١٣٥) هو قائد جماعة مرتزقة وقد تزوج بأرملة فيليبو ماريا فيكونق .

(١٣٦) إذا كانت هذه هي لوسرن فقد اختلط الأمر على طافور .

(١٣٧) عبر آدم دى أوسك هذا الممر في سنة ١٤٠٢ حيث « سحب في عربة يجرها ثور ، وقد قد أنهكه التعب بصورة تجعله نصف ميت من جراء البرد وعينين معصوبتين ، حتى لا أرى أخطار الممر » راجع Chronicle, ed. by Sir E. M. Thompson, 2 nd., P. 242.

(١٣٨) هناك وصف لبازيل في هذا الوقت وضعه اينياس سيلفياس Aeneas Sylvains الذى عرف فيما بعد باسم البابا بيوس الثانى ، وهو الوصف المترجم في Chreighton : History of the Papacy, new ed. II, P. 199. هذا وقد عقد المجلس عام ١٤٣١ واستمر منعقدا حتى سنة ١٤٤٩ .

(١٣٩) دون جوان دى سيلفا أول كونت لسفونتيا ألفريز الأكبر للملك جوان الثانى ، وقد كان ألفريز الأكبر هو الضابط الذى كان موكولا إليه حراسة علم المدينة بمناسبة إحدى الزيارات الملكية .

(١٤٠) من الأرجح أنها ماريا شتين التى كانت سابقاً أحد الأديرة البندكتانية والملحق بها كنيسة حج شهيرة .

(١٤١) أنظر ما سبق ص ١٥٦ .

(١٤٢) شيدت القلعة القديمة عام ١٣٧٦ فى رينز Rhense قرب كوبلنز ، وقد حل محلها بناء حديث وجرى فيها آخر انتخاب إمبراطورى عام ١٤٠٠ م .

(١٤٣) ربما كان يعنى بذلك جوهانسبرج لكنها تبعد عن كوبلنز عدة أميال كثيرة .

(١٤٤) تم انتخاب ديتريش الثانى فون مورز عام ١٤١٤ ومات سنة ١٤٦٤ وهو واحد من أقوى أمراء الكنيسة ، وعلى الرغم من إشارة طافور هذه إلا أن فون مورز اتخذ خطوات عنيفة فى العمل على إصلاح سير رجال الدين .

(١٤٥) هو أدولف الثانى أول دوق لكلوفس ١٣٧١ — ١٤٤٨ ، وكانت زوجته الثانية « ماريا » أخت فيليب الطيب .

(١٤٦) وكل إلى أرنولد ديجمونت عام ١٤٢٣ بدوقية جيلدرز Gueldres وتستفين Zutphen .

(١٤٧) لا يمكن أن يكون المقصود بها Lille ، ولابد من أن طافور يشير إلى مكان صغير مجاور لبوا — لى — ديك Bois-le-duc وخلط بين الاسمين .

(١٤٨) بقى فيليب الطيب الذى امتد حكمه من ١٤١٩ حتى ١٤٦٧ م ، وكان قد تزوج عام ١٤٣٠ بإزابلا ابنة خوان الأول ملك البرتغال وفيليب دى لانكاستر .

(١٤٩) جون دى لانكاستر هو الابن غير الشرعي لفالرام الثالث Waleram دوق لوكسمبرج ، وقد ولد سنة ١٣٩٠ م واعترف بنوته الشرعية سنة ١٤٣٦ ومات عام ١٤٦٦ م ، وكان يعد واحداً من أعظم جند يومه ، وقد أسر مرتين فى بعض المعارك ، وأنعم عليه بوسام طائفة القطيع الذهبي عام ١٤٣٣ م ولكن ليس بالطريقة التى يرويها طافور فى الرحلة ، إذ يبدو أنه يخلط بين جان دى لاتريموى Trimowile وسير دى مونتيج الذى اتهم بالجبن وأخرج من الطائفة عام ١٤٣١ م .

(١٥٠) هو الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم « شارل الأصلع » المولود سنة ١٤٣٣ والمتوفى عام ١٤٧٧ ، وكان قد تزوج فى سنة ١٤٦٨ بمرجريت دى يورك أخت إدوارد الرابع .

(١٥١) فيما يتعلق ببروجس راجع Malcolm Letts: Bruges and Sluys (London. 1926) ولقد كانت هـــذه المدينة وقت زيارة طافور لا تزال تعتبر سوقاً من أكبر الأسواق التجارية فى أوربة ، أنظر أيضا
Pirenne : Economic & Social History of Medieval Europe, chs. 5&6.

(١٥٢) cf. M. Letts : op cit.

(١٥٣) وكان موقعها عند الجانب الشرقى من القصر الكبير ، ولكنها تهدمت سنة ١٧٨٧ م .

(١٥٤) يشير طافور إلى ثورة ١٤٣٧ حيث هاجم الثوار الدوق عند بوابة « بوفرى » وكادوا أن يقتلوه وكانت نجاته إحدى المعجزات ، ومن ثم كانت نقمته عليها شديدة فعاود قتالها فى العام التالى واحتلها .

(١٥٥) كانت سلويز هى ميناء بروجس البحرى فى ذلك الحين ولكنها أضحت اليوم مدينة فى الداخل .

(١٥٦) ثارت « غنت » سنة ١٤٥٢ ، ويرجع الفضل فى مقاومتها للحصار المضروب عليها إلى استحكاماتها العظيمة ، غير أن هزيمة « جافيرا » يوم ٢٣ يوليو ١٤٥٣ أدّت إلى خضوع الثوار ، وفى يوم ٣٠ يوليو ركع ألفان من أهلها للدوق فيليب ملتمسين عفوه ، وفرض عليها أقسى الشروط المذلة .

(١٥٧) قام الإمبراطور سجسمند عام ١٤١٥ بمنح « انتورب » حق عقد سوقين فى كل عام ، ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة فى الازدهار والرخاء بصورة لم تشاهدها من قبل ، لكنها لم تستطع أن تكون مركز تجارة الشمال إلا منذ بداية القرن السادس عشر إذ كانت « بروجس » لا تزال منافساً خطيراً لها ، أنظر فى ذلك
Pirenne : Hist. de Belgique, II P. 440 ; J. Wegg : Antwerp 1477—1559. (1916).

(١٥٨) أنظر ما سبق ص ١٠٩ — ١١٠ .

(١٥٩) لابد من أن يكون الدوق الذى يقصـــده طافور فى المتن هو ابن فردريك دوق بافاريا المسمى لاندشوت Ingoldstadt .

(١٦٠) انعقد مجمع كونستانس عام ١٤١٤ وهو الذى قرر حرق « جون هس » انظر فى ذلك J. H. Wylie The Council of Constance to the Death of John Huss, (Lond., 1900) .

(١٦١) هو غير John de Turquemada المحقق فى ديوان التفتيش ، ولكنه من رجال الدين وقد مات سنة ١٤٦٨ ، كما أنه أحد رسل البابا الذين أوفدهم لحضور المجمع المنعقد فى بازل .

(١٦٢) ينتمى كاسبر شليك Kaspar Schlick إلى إحدى الأسرات الشريفة فى فرانكونيا ، وكان قد التحق بخدمة الإمبراطور سجسمند كاتباً فى ديوان مراسلاته ، ثم ما لبث أن أصبح صديق الإمبراطور وموضع ثقته بصورة جعلته يغدق عليه الأموال ومظاهر الشرف ، وقد ظل يشغل منصب المستشارية زمن « ألبرت » الثانى وفردريك الثالث .

(١٦٣) من هنا حتى عدة صفحات تالية يمكن مراجعة رحلات « يوحنا بوتسباخ J. Butzbach انظر فى ذلك M. Letts (in) English Historical Rev. January, 1917.

(١٦٤) Cf. Eng. Hist. Rev. Jan. 1917), P. 29.

(١٦٥) هو فردريك الثانى خليف الإمبراطور سجسمند

(١٦٦) كان ألبرت دى استريا زوج ابنة الإمبراطور سجسموند ، وقد أصبح ملك الرومان عام ١٤٣٧ ، ومات وهو فى محاربته الترك سنة ١٤٣٩ .

(١٦٧) فى سنه ١٤٢٠ غزا البنادقة جميع نواحي « فريولى » ومدوا حدودهم ناحية الشمال الغربى إلى الجبال .

(١٦٨) لم يكن هناك بطبيعة الحال زواج بملك بولندة الذي كان إذ ذاك صبياً صغيراً ، لكن حينما كان سجسموند فى مرضه الأخير أخذت الإمبراطورة فى التآمر ضده فرتبت زواجها من ملك بولندة بعد موت الإمبراطور ، كما رتبت

حصولها على تيجان بوهيميا وبولندة والمجر ، وكانت الإمبراطورة إذ ذاك فى الخامسة والأربعين من عمرها ، غير أن المؤامرة اكتشفت وألقيت الإمبراطورة فى السجن الذى ظلت حبيسة فيه حتى ردت إليها حريتها ولكنها ما لبثت أن ماتت سنة ١٤٥٧م، انظر فى ذلك : J. Aschbach : Geschichte Kaiser Sigismunds, Hamburg. 1845. Vol. IV.pp. 391. 395.

(١٦٩) كان فلادلسلاوس الثالث Wladislaus (١٤٣٤ — ١٤٤٤) لا يزال طفلا فى التاسعة من عمره حينما أصبح ملكا ثم وافاه الموت وهو فى العشرين فى معركة « فارنا » حيث كان يحارب الترك .

(١٧٠) يوجد منظر رائع لفينا عام ١٤٨٩ وارد فى J. Schwerdfeger Vienna Gloriosa, Vienna, 1923. p. 26.

(١٧١) كانت الإمبراطورة إليزابث سيدة ذات شجاعة كبيرة وتصميم قوى ، وقد مات زوجها عنها قبل ولادة ابنها حيث دبرت سرقة تاج المجر المقدس ووضعه على رأس الطفل الرضيع ، وتوجد مذكرات وصيفتها هيلين كوتانر — التى اختلست التاج — فى المكتبة الإمبراطورية بفينا (تحت رقم ٢٩٢٠) ، وقد طبعها س. اندليخر S. Endlicher عام ١٨٤٦ وكانت موضع أحد بحوث Gustav Freytag : Bilder aus der deutschen Vergangenheit (von Mittelalter Zu Neuzeit. ch. x).

ويوجد وصف رائع للطفل من حيث « إنه كان فى تتويجه قليل من البهجة ، وكان يبكى بصوت عال » .

(١٧٢) هو فردريك الثالث (١٤٤٠ — ١٤٩٣) الذى يعتبر أضعف من خلفوا أوتو العظيم ، أما فيما يتعلق بخلقه فراجع Stubbs : Lectures on Medieval and Moderm History, p. 887 هذا وقد تزوج ابنه مكسميليان من مارى البرجندية .

(١٧٣) أنظر ما سبق ص ٢٣٠ .

(١٧٤) شيد بيترو كوزو الصالة القائمة فى قصر البلدية بين عامى ١١٧٢ ، ١٢١٩ ،

وقد زينت الجدران بثلاثمائة لوحة فنية من إبداع جيوفانى ميرتيو وآخرين بعد سنة ١٤٢٠ .

(١٧٥) هو بطرس أبانو (١٢٥٠ — ١٣١٦) الفيلسوف والعالم الطبيعى الإيطالى ، وقد مات ميتة طبيعية وإن كان قد حوكم أمام محاكم التفتيش مرتين بتهمة ممارسته السحر ، وكانت وفاته قبل الفراغ من محاكمته الثانية ومن ثم صنعوا دمية تمثله وأحرقوها .

(١٧٦) فى يناير ١٤٣٩ قرر البابا نقل «المجمع» إلى فلورنسة ، وبدأ رحلته فى اليوم السادس عشر من يناير وبذلك يمكن تحديد تاريخ وصول طافور إلى فرارا ، انظر Creighton : History of the Papacy, new ed. II. p.p 340 ff. وإنه لأمر محير كيف رأى طافور كل ما يصفه ثم وصل بعد ذلك إلى فرارا بعد خمسة وعشرين يوماً من وصوله إلى بريسلاو ، ذلك أن الرحلة تستغرق اثنى عشر يوما (انظر ص ٢٣٦ س ٢١ من هذه الترجمة العربية) .

(١٧٧) ورد وصف هـذا الحفل الفريد فى Hazlitt : Venetian Rerublic; vol. IV, PP. 141 ff. فقد حمل أسطول مؤلف من خمس وعشرين سفينة وستة أغربة عبر جبال الألب فى التيرول وذلك فى عربات يجرها الرجال والثيران حتى داخل Lago di San Andrea ومن هناك عبر جبل « بالدو » إلى « لاجودى جاروا » وكانت المسافة التى قطعت تبلغ مائتى ميل ، وقدرت التكاليف بخمسة عشر ألف دوكات أو أكثر، وقد أنزل الأسطول بأجمعه فى فبراير ١٤٣٩ ؛ ومن البين أن طافور شاهد نقل واحد من السفن الأخيرة .

(١٧٨) فيما يتعلق بيتشينو راجع ما سبق ص ١٣ .

(١٧٩) ليس من السهل تفهم ما يريده طافور هنا ، ذلك أن البيازنة شاركوا فى الحرب الصليبية الأولى وبرهنوا على حماستهم لها وشجاعتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس وقد أدى ذلك إلى حصولهم على كثير من الامتيازات التجارية ، وربما

كانت الاشارة فى المتن راجعة إلى واحد من تلك الاضطرابات التى حاقت بالمدينة المنكودة الطالع فى القرن الثالث عشر ، وقد بعث بزا إلى فلورنسة فى سنة ١٤٠٥ .

(١٨٠) انظر ماسبق ص ١٠ .

(١٨١) يشير طافور إلى ظاهرة فذة على بعد ميل ونصف ميل من « بيترا مالا » عند سفح جبل « دى فو » المعروف باسم « إى فوكى Fouchi I » وهو يحتوى على خروج غازات غير حارقة أشبه ما تكون بمظهر بركانى ، وهذه النيران تكون على بعد قدم من سطح الأرض ، وأحسن ما تظهر بوضوح فى الليل .

(١٨٢) هو أحد الأديرة البازيلية ، أسسه روجر الأول ثم نقل من هناك حينما أعاد شارل الخامس بناء قلعة « سان سلفاتور » .

(١٨٣) لا تزال الصور والرسوم تمثل روعة الكنيسة وتجعلها من أجل كنائس العصور الوسطى .

(١٨٤) لا تزال « تراباني » تعد المركز الرئيسى لتجارة المرجان الصقلى .

كشاف أبجدى

بالأعلام والأماكن الواردة فى هذه الترجمة العربية (*)

(*) قام بعمل هذا الكشاف زميلى الدكتور اسحاق تاوضروس عبيد المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، فله منى خالص الشكر .



(م ١٩ ـ طافور)



مبارزة من حولية هولندية ترجع إلى القرن
الخامس عشر الميلادى أو مستهل السادس عشر .



الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوجس
في كنيسة قصر ريكاردي بفلورنسا